المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة



السير فوق الماء

(القراءة - والكتابة - والثورة)



تأليف : ديريك جنسن

ترجمة: سمير عبدربه



2159

السير فوق الماء

القراءة - والكتابة - والثورة

تـألـيـف : ديـريـك جنـسـن

ترجـمـة : سـمـير عـبـد ربه



2013

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

- العدد: 2159
- السير فوق الماء: القراءة، والكتابة، والثورة
- ديريك جنسن
- سمير عبد ربه
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

WALKING ON WATER: Reading, Writing & Revolution
By: Derrick Jensen

First published in the United States in 2004 by Pantheon Books

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جنسن ، دريرك .
السير فوق الماء : القراءة - والكتابة - والثورة /
تأليف : ديريك جنسن، ترجمة : سمير عبد ربه
ط١، القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٣
٢٢٤ ص ، ٢٤ سم
١ - المقالات الإنجليزية.
(أ) عبد ربه ، سمير (مترجم)
(ب) العنوان ٨٢٤

رقم الإيداع ٢٠١٢/٨٦٣٥
الترقيم الدولى 978-977-216-072-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

(تقوم المدرسة - بطريقة بطيئة وتدريجية - بغرس ثقافة الخوف من الفشل داخل النفس والذهن، والعمل على تكريس الثقافة الكاملة لكل الأشياء السخيفة المنافية للعقل)

جولز هنري

أمة من العبيد

إن كثيرًا من الناس الذين أعرفهم يعلمون عن يقين بأننى دائمًا ما أحببت المعرفة وكثيرًا ما رغبت فى التعلم، ومعظم أولئك يعرفون أيضًا الحقيقة المتمثلة فى كراهيتى للمدرسة.. كيف ولماذا؟

إن الإجابة واضحة بالنسبة لى الآن وهى أننى لم أحب ما كنت أتعلمه، ولم تكن مشكلتى الأساسية تتمثل فى المواد التى ندرسها، لقد تعلمت الأرقام بنفسى قبل التحاقى بالمرحلة الأولى من التعليم واستطعت بذلك متابعة نتائج مباريات البيسبول وكنت - فى المرحلة الثانية - أكتب المسرحيات القصيرة، إنه شىء ما مختلف وأكثر عمقًا!!

واحدة من الصعوبات التى تواجهنا أثناء التفكير أو الحديث عن مشكلات نظامنا التعليمى هى أننا نفترض دائمًا أن الغرض الأساسى من المدرسة هو مساعدة الأطفال على تعلم القراءة والكتابة والقيام بفروض علم الحساب.

ذلك خطأ غير قابل للفهم لكنه واحد من الأخطاء التى نعمل على تكرارها، وهكذا نجد أنفسنا مندفعين نحو الخطر، وفيما يتعلق بأساس العملية التعليمية أكثر من كونها مجرد تلقين للكتب أو حتى مجرد تطوير للشخصية، فإنها تقدم للأطفال الأدوات التى يستطيعون استخدامها فى الحياة بعد التخرج للاندماج داخل العالم الحقيقى، كما تعلمهم كيفية الاندماج فى ثقافتنا ليصبحوا أعضاء فاعلين فى تلك الثقافة، غير أن تلك العملية التعليمية لا تأبه بنوعية تلك الأدوات ولا بالكيفية الصحيحة فى تكوين أعضاء لتلك الثقافة،'وبكلمات أخرى قد يكون من الأجدر فى عملية التعليم أن نتساءل ونبحث عن الطريقة التى نتعلم بها الخلق والابتكار.

كانت تجربتى الخاصة الأولى فى المدرسة مملة للغاية، كنت أجلس - سنة بعد أخرى - فى آخر مقعد بالفصل وأنا أراقب اليد الثانية وهى تتحرك ببطء شديد ولا أستطيع أن أخبرك كم عدد المرات التى كنت أحسب فيها الثوانى حتى ينتهى اليوم الدراسى ثم بقية الأسبوع وهكذا حتى ينتهى العام الدراسى بأكمله، وهكذا انطبعتْ فى ذهنى أهمية علم الحساب وعندما كان يصيبنى الملل وخوفًا من الانفجار فى نوبة من الضحك لا أستطيع السيطرة عليها كنت أتعمد السخرية بطريقتى الخاصة كما كنت أفعل غالبًا حين أقرص فخذى بأصابع يدى حتى يصطبغ الجلد باللون الأحمر وأحيانًا كنت أقرص خدى حتى ينسلخ الجلد عن عظام الخد، كنت أتنقل من العبث بخدى الأيمن إلى الأيسر مستندًا على أردافى فى محاولة منى للإبقاء على يقظة قدمى خوفًا عليها من (التنميل)، وكنت أقوم بتسريب الكتب إلى داخل الفصول وأضعها فوق ركبتى لكى أقرأها ثم علمت نفسى لغة الإشارة الأمريكية للتواصل - بطريقة صامتة - مع أحد الأصدقاء فى صف آخر حتى لو لم يكن هناك ما يستدعى القول سوى اخباره بأنه شخص تافه مثلاً، لقد عرفت الوقت الذى أستطيع فيه أن أتحكم فى أنفاسى وحساب عدد المرات التى يقول فيها المدرس خلال ساعة واحدة: "هام" أو "أوكيه".

ما زلت أتذكر عدد المرات الذى وصل إلى مائتين وخمس عشرة مرة كرر فيهم المدرس بشكل لافت للنظر كلمة "هام" و"أوكيه" كما لا أستطيع أن أنسى ذلك العالم المتمثل فى الكتاب الذى وضعته فوق فخذى فى ذلك اليوم أما أحد أهم الأشياء التى تعلمتها فكان هو كيفية إضاعة الوقت.

تعلمت أيضًا أن أنسى حياتى وأذكر ذات يوم من أيام الربيع وأنا فى المرحلة الثامنة حين كنت واقفًا فى ملعب الكرة مع صديق جديد لم أعد أتذكر اسمه وأخبرته بأننى لم أستطع الانتظار حتى الشهر القادم للانتهاء من ذلك العام الدراسى وبداية إجازة الصيف.

نظر إلى وجهى بارتباك وقال لى كلامًا من الواضح أنه سمعه من والديه: أنت تنسى الشىء الوحيد الذى حصلت عليه.

عرفت فى الحال أنه كان على صواب غير أن ذلك لم يغير من حقيقة ما كنت أتمناه.

وماذا أيضًا تعلمت؟ تعلمت ألا أتحدث بطريقة غير مرتبة ويغلب عليها التشوش وألا أتوجه بالأسئلة إلى أصحاب أى سلطة من السلطات إلا بطريقة مراوغة خوفًا - على الأقل - من حرمانى من الاستمتاع بالفسحة ووقت الفراغ أو من الحصول على بعض الدرجات فيما بعد، لقد تعلمت أن أتجنب البوح بكل الأسئلة الصعبة التى لا يتحملها المدرسون وتصيبهم بنفاذ الصبر وتعلمت بالتالى ألا أتوقع أبدًا الحصول على إجابات مناسبة، تعلمت أيضًا محاكاة المدرسين وهم يعبرون عن آرائهم ويشرحون وجهات نظرهم وعرفت كيفية استنباط الحقائق وتفسيراتها من الكتب المدرسية سواء راقتنى تلك الحقائق وتفسيراتها أم لا، تعلمت قراءة صور السلطة المختلفة وعرفت بالتالى أن أقدم لهم ما يريدونه وأن أتودد إليهم كلما كان فى الأمر مصلحة لى، تعلمت باختصار أن أخون نفسى وأقوم بتعريتها.

تحدثت مع بعض الأصدقاء ممن كانوا يشعرون تجاه المدرسة بمثل ما أشعر وكان الشعور المؤكد الذى يعانون منه هو القلق بديلاً عن الضجر والملل فلم أكن أنا الشخص الوحيد الذى ظل طوال عشرين عامًا يحلم ويفكر بقلق وعمق- كما فعلت مرة أخرى منذ شهر مضى - فى الأسبوع الأخير من العام الدراسى وفى امتحان المواد التى لا أعرفها أو تلك التى لا أحبها أو أهتم بها.

ليس من الصواب أن نتحدث عن التعليم دون الحديث عن التنشئة الاجتماعية كما أنه لا يمكن الكلام عن التنشئة الاجتماعية دون التطرق إلى ذكر المجتمع نفسه والقيم التى يتمتع بها ذلك المجتمع، نحن نسمع الكثير من الكلام الفارغ الذى لا معنى له مثل الحديث عن مدى بشاعة الحقيقة المتمثلة فى عجز طلاب المرحلة الثانوية عن تحديد موقع الولايات المتحدة على خريطة العالم (التى يجب أن تكون أمرًا غاية فى السهولة) أو تحديد القرن الصحيح الذى حدثت فيه الحرب الأهلية فى أمريكا أو ذكر أسماء

أعضاء الإدارة الأمريكية، لقد أخبرونا أن الاختبار الموحد يجب أن يكون مفروضًا على الجميع للتأكد من تلقين الطلبة معايير موحدة يستطيعون من خلالها - فيما بعد - أن يكونوا مستعدين لمواجهة العالم الذى هو نفسه يتوجه إلى مزيد من التوحد ولم يسألنا أحد بالطبع عن مدى صحة توحيد الأطفال (عفواً، أقصد الطلاب) والمعرفة أو العالم الأكبر.

لا شيء من ذلك، لا الخرائط ولا التواريخ أو الأسماء وليست الاختبارات فى الحقيقة هى النقطة الجوهرية على الإطلاق، إن المدرسة تقع فى مغالطات وأخطاء كبيرة حين يلقنون الطلبة بالمعلومات ولا يعلمونهم السلوكيات وحسن التصرف.

نسمع كثيرًا أو قليلاً وبشكل ثابت أن المدارس تفشل فى مهمتها ولا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأ من ذلك التصور فالمدارس تنجح فى كل شىء بطريقة جيدة وتقوم بإنجاز أهدافها بدقة ولكن ما هدفها الأساسى؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد أن تسأل نفسك أولاً عن القيم التى تشكل المجتمع المطروح فيه السؤال، إننا لا نتحدث عن تلك القيم غير أن الحقيقة هى أن المال يسمو فوق كل قيم المجتمع الأخرى؛ لأنه يمثل القوة، ولأنه أيضًا يمنحنا الوهم بأننا قادرون على الحصول على كل ما نستطيع، إن واحدة مما يتكلفه الحصول على المال هو كيفية اكتسابه.

غالبًا ما نضطر إلى خيانة أنفسنا بأى شكل من الأشكال وتقديمها إلى أى شخص يملك المال فى مقابل الاستفادة بالقليل منه، المؤسسات، الرجال من أصحاب السيارات الفارهة، السيدات اللاتى يرتدين أزياء تفوح منها رائحة القوة والنفوذ، وأولئك المدرسون الذين لا يملكون المال وإنما يملكون فى نطاق الفصل القوة اللازمة المقابلة لقوة المال، نحن نعيش فى ثقافة تعتمد على الوهم والضلال والمظاهر الخادعة والتعليم هو السبب الرئيسى فى تكريس ذلك الوهم وفى التأكيد على أن السعادة تقع خارجنا وأن أولئك الذين يملكون القوة هم وحدهم من يستأثرون بالسعادة.

كثير منا كان يتوقع -خلال فترة الرشد- أن يحصل على العمل المناسب فى الوقت المحدد وليس قبل أن يدق جرس النهاية، كنا ننظر إلى الساعة ونحسب الثوانى حتى يحين موعد الانصراف فى الخامسة ونحسب الوقت حتى يحين يوم الجمعة ويوم الحصول على الأجر ثم نعاود حساب الوقت لمعرفة موعد يوم التقاعد حيث يعود وقتنا مرة أخرى ليصبح ملكنا كما كان من قبل ونحن فى الحضانة أو فى مرحلة ما قبل المدرسة، آه، كل هذا الانتظار!! أين نتعلم كل هذا الانتظار؟

كان من المتوقع أيضًا أننا سنكون مواطنين صالحين وأولادا وبناتا صالحين وأن كل شيء سيكون على ما يرام ولم نعترض كما لم يساورنا أى شك حول مفهوم الوطن والله والرأسمالية والعلم والاقتصاد والتاريخ وسلطة القانون ولم يحدث أن اختلفنا أو تجادلنا بشأن تلك المعانى لكننا كنا نذعن ونستسلم -فى كل تلك المجالات- إلى الخبراء والمختصين وكنا نواصل الإذعان كما علمونا فى جميع المراحل التعليمية.

وماذا عن المختصين والخبراء أنفسهم؟ كان من المتوقع أنهم سيلعبون دور الرقيب الذاتى بمهارة وكان من المفترض أنهم يعرفون دائمًا نوعية الطلاب الذين يتوجهون إليهم بالأسئلة ويفهمون المغزى من وراء كل سؤال وما الأسئلة التى لا يجب طرحها والأهم من ذلك ما الموضوعات التى يجب التطرق إليها على فترات متباعدة.

إذا ما سارت بنا الأمور على نحو جيد فإن أحدًا منا لن يسأل أبدًا كيف أن مجالات الدين والرأسمالية والعلم والتاريخ والقانون قد أضافت نوعًا من الزخارف على حياتنا الخاصة حتى لا نكشف عن أسرار حياتنا.

وهنا أود أن أطرح بعض الأسئلة التى راودتنى مؤخرًا ولعل أهمها: ما تأثير العملية التعليمية على الإبداع والابتكار؟ كيف تشجع العملية التعليمية التميز والتفرد الخاص بكل طفل ممن يملكون الموهبة؟ وهل يشعر الأطفال والتلاميذ والطلبة بالسعادة فى ظل العملية التعليمية؟ وهل ثقافتنا ككل تساهم فى توليد جيل جديد من الأطفال السعداء؟ ما الذى يتعلمه كل طفل جديد طوال سنوات التعليم حتى يستطيع فى النهاية

أن يقدم شيئًا للعملية التعليمية؟ كيف تساهم المدرسة فى الحفاظ على كل طفل والحرص على تنمية مواهبه ومساعدته فى أن تجعل منه ما يجب أن يكون عليه؟

كنت فى مكتبة سبوكين بواشنطن منذ عامين وكان أحد الزائرين يقود مجموعة متمردة من المراهقين ودخل بهم من الباب الأمامى حتى وصلوا إلى لائحة برامج الكمبيوتر حيث استدار بهم ناحية أكثر أمناء المكتبة شعبية (كما يعتقد هو)، كان شاباً يرتدى قميصًا ذا نسيج صوفى خفيف مطبوع عليه أشكال مربعة وكان الشاب يعقد شعره على شكل ذيل حصان لكن مجموعة الأولاد عبروا عن استيائهم فكان من الواضح أنهم قادمون من أحد السجون أو المعتقلات أو أى من مراكز التأهيل وربما كانوا قادمين من أحد المدارس التى أرسلتهم إلى هنا كنوع من العقاب بعد أن تسببوا فى كثير من المشاكل.

أشار أمين المكتبة إلى نهاية الصف وقال: أخبرونى بالموضوع الذى ترغبون فى الاطلاع عليه.

لم يتكلم أحد فقال الشاب: أى شيء، ما عليكم سوى إخبارى بما تريدون قراءته وسوف أجد لكم ما تريدون.

استطعت أن أرى من مكانى المتميز فى الناحية الأخرى من الصف واحداً منهم وقد بدا عليه الاهتمام والرغبة فى القراءة وبدا أنه يفكر قائلاً لنفسه: أستطيع أن أبحث فى أى موضوع.

كان الفتى يرتدى بنطالاً من الجينز الفضفاض وبدا أنه من أصل إسبانى وكان يضع منديلاً كبيراً مزدانًا بالرسوم فوق رأسه وله لحية كلحية التيس كما يفعل أمثاله ممن هم فى عمر السادسة عشرة، بدأ يقول شيئًا ثم توقف وكان الجميع ما زال صامتًا وفى النهاية رفع يده وقال: هل لديك كتاب عن البنادق أو المسدسات أو أى نوع من الأسلحة النارية؟

نظر إليه الشاب ذو الشعر المتدلى كذيل الحصان فكرر الفتى سؤاله بصوت واضح وكأن أمين المكتبة الشاب لم يسمعه فى المرة الأولى: نعم، أسلحة نارية!!

ضحك الجميع وراح الفتى يحدق للحظة قبل أن يخفض رأسه ويذهب بعيداً وهنا استطعت القول بأنه كان يرغب فى امتلاك بندقية أو مسدسًا فى ذلك الوقت لإحداث ثقب فوق شاشة الكمبيوتر وتمنيت ساعتها لو أننى أمتلك أحد الأسلحة النارية لتقديمها له ومساعدته فى تنفيذ رغبته.

شاهدت فتاة شقراء عند الجانب الآخر وهى ترفع يدها ثم سمعتها وهى تقول: حيتان!!

قال أمين المكتبة وهو يدون ما سمعه: حيتان!!

وهكذا فإن الأطفال والفتيان يكنون كراهية كبيرة للمدرسة.

تطرقت فى البداية لموضوع التعليم فى كتابى (The Language Older Than Words اللغة أقدم من الكلمات) ولأن التعليم كان موضوعًا هامشياً فى هذا الكتاب فإننى كنت أعرف بأننى سأعاود -ذات يوم- الكتابة فى الموضوع نفسه وبطريقة أشمل وأكثر توسعًا مما كتبته فى ذلك الكتاب وها هى أربع أو خمس صفحات منقولة من الكتاب الأول ويتضمنها هذا الكتاب بين صفحاته.

لقد تعاملت طوال خبرتى فى مجال التعليم بطريقة متحررة وحين كنت أقوم بعملية التدريس فى الجامعة وفى السجن (إن كلمة التدريس هنا ليست كلمة مناسبة لأننى كنت أعتبر دائمًا أن ذلك هو دورى) لم أكن معنيًا بمجرد تحقيق رغبات الطلبة فى تعليمهم ما يريدون، لقد كان الهدف الأساسى من هذا الكتاب وخاصة من الفصل الذى يحمل عنوان "كيفية عدم القيام بعملية التدريس" هو أن أستثمر خبراتى التى اكتسبتها فى جامعة واشنطن الشرقية وفى السجن الحكومى، تلك الخبرات المتشابهة إلى حد

كبير على عكس ما يتوقع المرء فى المرة الأولى والتى يحصل عليها شخص ما ويكتسبها من خلال شرحها مرات ومرات وبطرق مختلفة، لقد أدركت بسرعة أن القيام بالحديث عن خبرتى -دون أن تتضمن مناقشات حول البيئة الاجتماعية التى تخلق خبرة التعليم العادية- سيكون أمرًا اصطناعيًا وزائفًا وأقل فائدة بكثير، وبطريقة أخرى يمكن القول بأنه قبل أن أسأل أنا أو أى شخص آخر عن مدى نجاحنا داخل الفصل يجدر بنا أن نسأل أنفسنا أولاً عما نريد تحقيقه على ألا نعول على إجاباتنا على هذا السؤال، نحن فى حاجة لنسأل أنفسنا عن ماهية الدور الذى نقوم به فعلاً وعن النتائج التى تحدثها العملية التعليمية لأن إدراكنا وفهمنا لإجابة هذين السؤالين سيساعدنا - بعيدًا عن كل الكلمات الرنانة - فى فهم ما نرغب فيه حقًا كما سيساهم أيضًا فى تكوين شخصية الطلبة.

تظاهر بأنك تريد أمة من العبيد أو فلنقل بطريقة أخرى بأنك تتمنى أن تحظى مصالح بلدك التجارية بعدد ثابت من العمالة على أن يكون عدد السكان الأصليين كافيًا لعدم التصدى لمكاسبهم ولما يحصلون عليه، إن أبسط بل وربما أكثر وسائل التسهيلات شيوعًا كعملية الإنتاج مثلاً لا تكتمل إلا من خلال القوة المباشرة، أنت تستولى ببساطة على العمال وتسحبهم إلى مصانعك وإلى أماكن عملك وهم مقيدون بالسلاسل وتستطيع ببساطة أن تقوم بطردهم فى أية لحظة كما أنك تمنحهم حرية الاختيار بين الجوع أو القبول براتب العبودية الضئيل، أنت تستطيع أن تجبرهم على الاختيار بين دفع الضرائب أو شراء منتجاتك وبذلك ستضمن الانتعاش الاقتصادى وفى النهاية سيجبرون على العمل فى مصانعك أو فى مشروعك التجارى للحصول على العملات النقدية الصغيرة.

إن العائق الأساسى لكل تلك الأعمال هو أن العبيد يعرفون دائمًا بأنهم مستعبدون وأن آخر شىء يريده صاحب العمل هو إخماد أى محاولة للتمرد أو العصيان، من الأفضل لهم كثيرًا الاعتقاد بأنهم أحرار لأن عدم شعورهم بالسعادة فى

مثل هذه الحالة يحملهم وحدهم مسئولية الخطأ دون أن يكون صاحب العمل سببًا فى عدم سعادتهم.

كل شىء يبدأ من الصفر وإذا لم تبدأ مبكرًا وأنت صغير بما يكفى فلن تكون قادرًا أبدًا على التأثير فيهم بشكل كاف إلى الدرجة التى يكفرون فيها بالبدائل، وإذا كانوا يؤمنون فعلاً بالبدائل الأخرى التى لم تصنعها أنت فإنهم سيحاولون تحقيقها وفى هذه الحالة سيبرز سؤال مهم: أين ستكون أنت؟

((يبدو لى أن أى شىء يمكن أن يعلمه شخص إلى آخر هو نسبيًا شىء غير ذى أهمية وليس له تأثير واضح على سلوك وتصرفات الأشخاص إلا فيما ندر ولقد بدأت أشعر أن التعليم الوحيد الذى له تأثير واضح وقوى على السلوك هو تعلم الاكتشاف الذاتى والتعليم الحر المناسب للذات، مثل هذه الطريقة فى تعلم اكتشاف الذات والتى هى ملائمة لشخصية صاحبها وخاضعة لتجربته الخاصة لا يمكن أن تتواصل بشكل مباشر مع الآخر مادام أن الفرد يحاول التواصل مع هذه الخبرة مباشرة والتى غالبًا ما يصاحبها - محاولة التواصل - حماس طبيعى، إنها طريقة فى التدريس ذات نتائج غير منطقية وبلا أهمية، عندما أحاول أن أقوم بعملية التدريس كما أفعل أحيانًا فإن النتائج تصيبنى بالرعب الذى يبدو أكثر قليلاً من المنطق لأن عملية التدريس تبدو ناجحة فى بعض الأحيان، وعندما يحدث ذلك فإننى أكتشف أن النتائج غير مفيدة وربما تكون ضارة فى كثير من الأحيان وبالتالى فإنها تدفع الفرد إلى الشك وعدم الثقة فى تجربته وخبرته الشخصية كما تشكل عائقًا بينه وبين التعليم المهم والمثمر وهكذا بدأت أعرف أن نتائج التدريس لا تخرج عن كونها بلا أهمية على الإطلاق أو أنها عملية غير مفيدة، عندما أنظر إلى نتائج عملى السابقة بالتدريس فإن النتائج الحقيقية تبدو أمامى هى النتائج نفسها التى تتسم بعدم الأهمية وعدم الفائدة وبناء على ذلك أدركت بأننى مولع فقط بكونى معلمًا أميل إلى تعليم الأشياء المهمة والموضوعات الخلافية والتى لها تأثير واضح ومؤثر على سلوكى، اكتشفت أن واحدة

من أفضل الطرق بالنسبة لى أثناء قيامى بعملية التدريس هى نفسها أصعب الطرق؛ ألا وهى أن أتخلى عن كل دفاعاتى الشخصية بشكل مؤقت على الأقل وأن أحاول فهم ما تبدو عليه تجربة الآخرين والمشاعر تجاه الآخر كما اكتشفت وسيلة أخرى للتعليم تتعلق بضرورة أن أبوح بشكوكى وتساؤلاتى فى محاولة منى لتوضيح حيرتى وارتباكى مما يساعدنى على الاقتراب من المعنى الذى اكتسبته من خلال خبرتى، يعنى ذلك على ما يبدو أن خبرتى هى التى تقودنى وتساعدنى فى مواصلة عملى نحو الأمام وصوب الأهداف التى أستطيع تحديدها بصعوبة، كما أننى أحاول أن أفهم على الأقل المعنى الشائع لتلك التجربة)).

(كارل روجرز)

كيفية عدم القيام بعملية التدريس

دخلت إلى الفصل فى اليوم الأول وأنا أرتدى سترة البدلة القديمة الوحيدة التى كنت أمتلكها وكان القسم حينها يتطلع إلى الفوز بمدرسين مساعدين جدد يتسمون بقدر من الحرفية، كانت سترة البدلة قديمة جداً وقد ارتديتها وأنا شاب مراهق صغير فى يوم زفاف أخى، ومرة أخرى أثناء حضورى إحدى الحفلات الراقصة فى الكلي،ة ثم لم أفكر فى ارتدائها مرة ثانية بعد ذلك؛ لأنها كانت مثيرة للضحك بالفعل، كما أنها جعلتنى أشعر بإحساس ثقيل طوال عقد من الزمان، (أوه، حسنًا، أذكر أن ذلك هو ما أحسست به أول مرة) لكننى الآن لا أقوم بتثبيت الأزرار وفور دخولى الفصل فإننى أسارع بخلع السترة ثم أضعها فوق ظهر المقعد وبعد ذلك أبدأ فى النظر إلى طلبة الكلية، كان البعض منهم شباباً صغاراً ولا تبدو عليهم المعاناة أو العمل فى الفلاحة حيث كانت الكلية تقع عند الحافة الشرقية لأجمل مزرعة، كان معظم الطلبة الأجانب من آسيا وكان بعض الطلبة أكبر منى سنًا وكانوا جميعًا يجلسون أمامى فى صفوف، كانت الصفوف تصيبنى بالصداع وتشعرنى بالورطة، كنت أتجول ببصرى فى أرجاء الحجرة فأرى سبورة النشرات المصنوعة من الفلين بجوار الباب، كانت السبورة مليئة بالإعلانات عن تأشيرات السفر وبطاقات الائتمان والإجازات الخاصة فمشيت - ذات يوم - حتى وصلت إلى آخر الحجرة دون أن تتوقف أعين الطلبة عن ملاحقتى وقلت فجأة: ليس هذا مكانا للإعلانات.

سحبت الإعلان من فوق الحائط وألقيت به داخل سلة القمامة ثم تقدمت نحو الأمام وسط أعين الطلبة التى ما زالت تلاحقنى، ابتسمت وكان أول سؤال وجهه لى أحد الطلبة وهو يشير إلى بقية الإعلانات: ألا يجب أن تلقى بكل ذلك فى سلة المهملات؟ .

منذ سنوات مضت لم أكن دائمًا أشعر بارتياح فى مواجهة الطلبة وكان الخوف ينتابنى فى البداية وعندما بلغت الثالثة والعشرين من عمرى وأوشكت على التخرج وأصبح باستطاعتى مواصلة التقدم والحصول على عمل مناسب حدث كسر فى قدمى فلم أستطع العمل، أخبرنى واحد من المدرسين بالجامعة الذين أعرفهم أنه يستطيع مساعدتى وكان من المفترض أن أعمل مساعداً له فى تعليم فصلين من الطلبة فى مرحلة ما قبل التخرج ولكن قبل موافقتى وجدت نفسى أبحث فى القاموس عن معنى كلمة sinecure* (وتعنى الوظيفة العاطلة أو المنصب الذى لا يقوم صاحبه بأى عمل أو يقوم بعمل لا يتناسب مع راتبه الكبير) والتى لم أكن قد سمعت بها من قبل.

عرفت أن الكلمة نفسها تعنى أيضًا مكتبًا يربح بدون موظفين، أى مكتب أو منصب يقدم المكافآت دون أن يسألك القيام بأعمال كثيرة ودون أن يكلفك بأقل المسئوليات وعندئذ راقت لى الفكرة والأفضل من ذلك أننى اكتشفت أن الكلمة هى وصف دقيق ومعقول لحالتى كما أنها تناسب احتياجاتى.

كنت معتاداً على الجلوس فى آخر الفصل لمراقبة ذلك المدرس وهو يتولى مهام التدريس وحدث أننى توجهت مرتين إلى مقدمة الفصل حيث لم أتردد فى التحدث إلى الطلبة والتفاعل معهم وكنت دائمًا ما أتبادل الأحاديث مع المدرس بعد انتهائه من الفصل المسائى لفترات طويلة عرفت من خلالها بأنه لم يكن سعيداً مع زوجته كما أنه لم يكن يبد اهتمامًا كبيراً بمناقشاتنا الفلسفية مادام هو بعيد عن بيته وكنت -أثناء تلك الأحاديث الممتدة- أتقدم أحيانًا ببعض الآراء النقدية.

كان الوصف المناسب لمحاضراتى هو أنها محاضرات كارثية وكانت حدة الكارثة تزيد أو تقل قليلاً بين محاضرة وأخرى حيث كنت أتمتم وأتلعثم فى الكلام وفى محاولة منى لاستعادة الأحداث الماضية والسيئة منها بالتحديد فإننى لا أستطيع أبداً نسيان تلك الطريقة التقليدية فى التدريس التى قمت بها كما تعلمتها من أساتذتى والتى لا تتخذ من التفكير منهجًا والتى بدا أن الطلبة قد تأثروا بها قليلاً كما تأثرت أنا بها من

قبل لكننى انفجرت غاضباً - ذات مرة - وأخبرت الطلبة بعدم وجوب استخدام حروف الجر دائمًا عند نهاية كل جملة وأذكر أننى تحدثت مرة أخرى عن تهجئة الحروف دون أن يثمر حديثى أى فائدة فعرفت فى النهاية أنك لا تستطيع أن تعطى شيئًا لا تملكه وأن واجب المدرس الحقيقى والوحيد وبخاصة المدرس الذى يقوم بتدريس الكتابة هو مساعدة الطلبة على اكتشاف ذواتهم أما فيما عدا ذلك فلا يتعدى كونه تسلية ولهواً أو نوعًا من أنواع الخبل أو شيئًا شبيهًا بالنافذة المزينة فى أحسن الأحوال.

قلت من قبل فى كتابى (The Language Older Than Words اللغة أقدم من الكلمات): إن كلمة "تعليم" هى اشتقاق من الكلمة اللاتينية e - ducere والتى تعنى التقدم للأمام أو الانطلاق والكلمة نفسها تشير فى الأصل إلى معنى القابلة التى تشرف على الولادة وحين رحت أقارن بينها وبين جذور كلمة (seduce بمعنى يغرى أو يغوى والتى هى أكثر قرباً من المعنى ولكن مع اختلاف ملحوظ وجدت إن كلمة educe تعنى أن يستنبط الإنسان فكرة أو يستخرج معنى من المعانى وهى بذلك تعنى التقدم للأمام أما كلمة seduce بمعنى يغرى أو يغوى فتعنى التضليل وكنت أرغب لو أننى تحدثت عن ذلك مع أولئك الطلبة منذ سنوات مضت كما تمنيت لو اقترحت عليهم التفكير فى ذلك الاختلاف فى نهاية الأسبوع وهم يتحدثون مع أقرانهم من الجنس نفسه ولربما عبر أحدهم عن رغبته فى استنباط ما بداخل الآخر الذى يرد بدوره قائلاً: ابتعد عنى.

رغبت أكثر لو أننى اقترحت (لو أننا أمناء مع أنفسنا بما يكفى) أن نسمى أقسام التعليم لدينا بأقسام الإغراء؛ لأن ذلك ما يفعلونه بالفعل، إنهم لا يعلموننا اكتشاف ذواتنا بقدر ما ينجحون فى إبعادنا عن أنفسنا .

ومن ناحية أخرى قد يكون من الأفضل أننى لم أتحدث فى ذلك الشأن فلقد عانيت كثيراً من المشاكل أثناء حديثى عن حروف الجر وعن التهجئة فمن يعرف نوع المشاكل التى كنت سألاقيها إذا ما كنت قد بدأت فى الحديث عن العلاقة بين ما يحدث فى حجرات الدرس وبين الإغراء.

إن أكثر أجزاء التكنولوجيا أهمية فى أى فصل دراسى هى عقارب الساعة، إنهم يسعون - دون وعى منهم - فى تعليم ملايين الطلبة الطريقة نفسها فى التوسل وهم ينظرون إلى عقارب الساعة قائلين: (نبتهل إليك يا إلهى أن تجعل عقارب الساعة تتحرك بسرعة أكثر).

أصبحت بعد سنوات قليلة من تخرجى مدرسًا خصوصيًا ذائع الصيت فى (كلية إيداهو الشمالية North Idaho College) لأن الثقة بالنفس تلعب الدور الأهم فى التقدم فى العمل وفى إحراز الشهرة بطريقة تفوق ما يحدث فى الألعاب الرياضية وإذا لم تؤمن بقدرتك على التقدم فى عملك فأنت فى الغالب لا تريد وإذا كنت مؤمنًا بتلك القدرة فسوف تتقدم حتمًا وإذا كنت ما تزال راغبًا فى عدم التقدم فعليك أن تعرف بأن وعيك الذاتى قد تلاشى، لقد اعتمد عملى بالتدريس تقريبًا على الإطراء والثناء وهذا لا يعنى أبدًا أننى لم أقدم النصيحة الفنية ولا يعنى أننى كنت مبدعًا وحسب فى كيفية تقديم النصيحة لكننى كنت حريصًا على التأكد من أن كل ما نتحدث عنه فى الدرس كان يحمل الرسالة نفسها وهى أنك متسلق بارع وعلى سبيل المثال فإننى لم أقل أبدًا: (إن طريقة تفكيرك منافية للأخلاق أو الذوق أو المألوف) فى حين أننى كنت أقول مثلاً: (إن قوة قدمك مدهشة لأنك ترفعها بقوة فى الهواء وحالتك الجسدية والعقلية لا تساعدك ولكن عندما تتناسب حالتك العقلية مع قوة قدمك فإن أحدًا لا يستطيع عندئذ أن يقهرك).

لكنهم راحوا يركزون على قوة أقدامهم بدلاً من التركيز على ما يتمتعون به من عقل.

وأنا بالطبع لم أكذب أبدًا، إن خدعة التدريس من خلال الإطراء هى التى لا يجب أبدًا أن تقوم بها فلقد اعتاد الناس كثيرًا على النقد ولم يعتادوا على الإطراء والثناء حيث إن الإطراء يصيبهم بالارتياب كما أنهم يشمون رائحة الكذب بسرعة وإذن فإنه

من الأفضل كثيراً ونحو بذل مجهود أقل أن تبحث ببساطة عن الأشياء المقنعة والحقيقية وتتبنى من خلالها دروسك بدلاً من المحاولات المضنية فى إعادة بناء المصداقية التى تم فقدها أثناء عملية الإطراء والمديح الزائفة التى تحتاج إلى إثبات بالإضافة إلى أن قول الحقيقة الإيجابية يساعد فى التركيز على الأشياء المهمة التى تخص الطلبة ومهاراتهم مما لا يحدث فى حال نقص مصداقيتك.

لقد منعت طلبتى من الحديث عن أى شىء سلبى فى أى مجال من المجالات وكنت أقوم بإغرائهم بالسؤال مثلاً عن كيفية حبهم لحالة الطقس فى أيام شهر مارس المليئة بالرزاز وعندما كانوا يقدمون الشكوى ويعترضون على منعى إياهم من الحديث عن الأشياء السلبية كنت أسمح لهم بالتعبير عما يريدون وكانوا يخبروننى عن الذى يحبونه فى حالة الطقس.

كانوا يحتجون فى البداية عن زيف ذلك المنع الواضح مما جعلنى أحاول تعليمهم مرة أخرى عدم البوح بشكواهم إلا حين نكون خارج قاعات الدرس لكننى كنت أعرف أن ذلك الطقس البائس دائمًا ما أصابنى بالصداع ومثل كل زملائى حينئذ كنت أتذمر من البرد والرطوبة وعدم قدرتى على تثبيت أقدامى فوق الأرض، ومن الناحية الأخرى كان طلبة كلية إيداهو الشمالية يتحدثون عن المميزات التى يتمتعون بها أثناء ذلك الجو، كانوا يركزون على الجوانب الإيجابية.

كانوا يتقدمون أيضًا بشكل جيد وكان كل طلبتى المنتخبين مؤهلين لتمثيل بلدهم، أصبحوا جميعًا أمريكيين بامتياز أو أمريكيين محترمين كما أصبح أحدهم بطلاً قوميًا.

سألنى شخص ما ذات مرة أثناء الحديث عن السبب وراء إصرارى على ذكر الجوانب الإيجابية عند الحديث مع طلبتى رغم أننى ناقد بلا حدود لأولئك المشرفين على إدارة أمورنا الثقافية الذين يقتلون كل شىء جميل فى كوكبنا فأجبت فى الحال قائلاً: القوة، إذا ما امتلكت القوة أو السلطة التى تستطيع بها السيطرة على الناس فإن مسئوليتى عندئذ تجبرنى على استخدام هذه القوة فى مساعدتهم فقط ويصبح من

واجبى أن أقبلهم وأثنى عليهم وعلى ما هم عليه لكننى إذا رأيت شخصًا يسيء استخدام القوة ويقوم بإيذاء شخص آخر فإنه من صميم مسئوليتى فى مثل تلك الحالة أن أعمل على إيقافه باستخدام كل الوسائل الممكنة والضرورية.

سارعنا بعد فترة وجيزة بالانتشار داخل الفصول الخالية من الطلبة وقمنا بنزع كل ما أمكننا رؤيته من إعلانات أو ملصقات كما قام الطلبة على مدى أسابيع تالية بغلق المغلفات البريدية؛ تمهيداً لإعادتها إلى أصحاب الإعلانات وفى النهاية امتلأت سلات المهملات عن آخرها.

بعد سنوات كثيرة عندما دخلت الفصل بصفتى مدرسًا حقيقيًا وليس تابعًا فى جامعة واشنطن الشرقية قمت بتغيير اسم المنهج من (مبادئ التفكير والكتابة) إلى (التحرر الروحى والفكرى والفلسفى واكتشاف أروع ما فى الإنسان) ثم عملنا على تغيير نظام المقاعد وقمنا بترتيبها على شكل دائرة بدلاً من الصفوف المتراصة وكنت كلما مشيت فى الفصل لا أتوقف عن سؤال الطلبة والطالبات عن الأشياء التى يحبونها وقد أخبرونى عن حكايات تخص عائلاتهم وحكوا لى عن الزراعة وعن الفن وعن حبهم للرياضة فتعلمت أكثر مما تعلمت من تفاصيل حياتهم أنهم حكائون ورواة بطبعهم فلم يكونوا حقًا فى احتياج لتعليمهم كيفية الحكى لكنهم كانوا بالأحرى فى حاجة لمن يساعدهم فى أن يكونوا ما هم عليه بالفعل، ولقد أدركت أيضًا وبسرعة أن طلبتى ممن يدرسون الكتابة لا يحتاجون كثيراً لمن يعلمهم فن الكتابة بقدر احتياجهم أن يصبحوا ما هم عليه داخل أنفسهم، إنهم يعرفون كيف ومتى يبدءون القصة وكيف يسردون التفاصيل المناسبة فى الوقت المناسب كما يعرفون أهمية أن تثمر القصة بعض النتائج والأفكار وكل ذلك كان واضحًا فى حكاياتهم الأولى التى أخبرونى بها عن الأشياء أو الأشخاص الذين أحبوهم وكان من الواجب أن يدركوا المواهب التى يمتلكونها وأنا لم

أستطع اكتشاف مواهبهم من فراغ ولكن يمكنني القول بكل بساطة وعن يقين أنهم موهوبون بالفعل ولم تكن مساعدتي لهم سوى نوع من التوجيه.

في أول يوم أعمل فيه بالتدريس بصفتي محترفًا أخبرت الطلبة عن مدرس الاقتصاد الذي كان يدرس لي في يوم من الأيام وعما أخبرنا به قائلاً: (لا تصدق أبداً أي شيء تقرأه ولا تصدق إلا النادر جداً مما تفكر فيه).

قلت لهم أيضًا بأنه كان واحداً من أفضل المدرسين الذين تعلمت منهم ثم توقفت لحظة وسألتهم: هل قام أحدكم طوال عمره بنزهة فوق خطوط السكك الحديدية؟ وهل واصل السير حتى عرفت بأنه بعيد جداً عن المدينة؟ وهل أخرج ساعته بعد ذلك من جيبه ووضعها فوق الطريق؟ وهل - بعد أن خطا خطوات كثيرة - ما زال يسمع تكات الساعة بينما يتدفق الدم من أذنيه؟ وهل يتنحى جانبًا عندما يقترب القطار تاركًا للرياح فرصة العبث بشعره دون أن يتوقف عن الارتعاش من شدة الخوف وعدم القدرة على التنفس حتى تمضي آخر عربة من القطار؟

هل رأيت النجوم أو القمر في الصحراء؟ هل نمت عاريًا فوق الأرض المبللة؟ ومتى كانت آخر مرة سرت فيها حافي القدمين فوق الجليد وأنت تراقب تساقط النجوم أو وأنت تستحم في نهر بارد وسريع الجريان؟ متى كانت آخر مرة استمعت فيها إلى المزمار في لحظات الفجر، كان أصحاب تلك الأسئلة هم أمهر وأفضل المدرسين الذين قابلتهم.

لكنني سأخبرك بالأفضل، لقد اعتدت أن أصطحب معي كلبًا صغيراً مدللاً، كان الكلب سريع الحركة وكانت أذناه ترفرف ولسانه يتحرك أثناء جريه الدائم في كل مكان ولم يكن ذيله يتوقف عن الحركة أبدًا مهما كان يفعل ولقد اعتاد على أن يتجاهلني وكان الدرس الذي تعلمته من الكلاب هو الاعتراف بصحة القواعد ثم تجاهلها وعدم

الالتـزام بها، إن كل شيء يفعله الكلب إنما يفعله بحيـوية وحمـاس وبطريقة مـبهـجة ومفعمة بالحياة حتى إننى لا أستطيع أن أتخيل مدرسًا أحسن من ذلك.

التـقط الطلبـة أنفـاسـهم بعـمق بعـد أن اسـتـمـعـوا لى ولم يـسـتطيـعـوا التـأكـد من استيعاب ما سمعوه منى كما أننى أيضًا لم أستطع أن أفهم ردود أفعالهم.

قلت: إن العـاطفة والحب والكراهيـة والخـوف والأمل هى المصـادر الرئـيسـيـة التى تثمر كتابة أفضل كما أن الحياة نفسها تتشكل من تلك المعانى والانفعالات وهكذا فإننا نستطيع أن نتسـاءل قائلين: وماذا تعنى الكتابة بدون الحياة؟ الكتـابة والحيـاة والحياة والكتابة، كلاهما يشكل المادة التى تصنع الآخر.

كنت كـذلك أحذرهـم قـائلاً: إذا كنتم قـد جئـتم إلى هنا من أجل السـمـعـة الطيـبـة ولأجل الافـتـخـار بانتـمـائكم للجـامـعة وللبـحث فقط عن الجـمل البـلاغيـة والنـقاط الفـاصلة ومجرد تدوين المقالات القصيرة فلتعلموا أن هـذا الفصل سيكون مصدرًا كبيرًا للتخلف لى ولكم وعـائقًا لأى نوع من التـقدم، وإذا لم يكن لديكم الاهتـمـام الكافى والرغبـة فى الوصـول إلى حـافـة الخيـال الصـعبـة حيث الموهبـة والشـعـور بالنشـوة فلن تـقدروا على التـحـرر من قـيـود الزمن ومن الأوهـام المترسـبـة داخل وعى وإدراك كل منكم وفى هذه الحالة فإنه يمكننى القول بكل أمانة إنه من الأفضل لكم أن تبحثوا عن فصل آخر وإذا حدث هذا يكون كلانا قد قدم خدمة كبيرة للآخر ولكننى أرجوكم ألا تسـارعوا بالذهاب إلى مكتب رئيسى لأننى متـفق مـعه على السـمـاح لى بأن أفـعل مـا أريـد داخل الفـصل على أن يضـمن لى نـقلكم إلى فصل آخر إذا لم تعـجبكم طـريقـتى فى التـدريس، أعـرف أن طريقتى لا تروق لكل شخص والحقيقة أن كونها كذلك لا يعنى بالضرورة أنها تمثل انعكاسـًا لحـالتى أو لحـالتكم وإنمـا الأمـر لا يتعـدى كونـه مـثل امـتـلاكك لكتـابين فـوق رف المكتبـة أحدهمـا أحمر اللون والآخر أخضـر، إنهمـا فقط غير متنـاسـقين، ولكن إذا أردت أن تركب الموجة وإذا سـمـحت للموجة أن تركبك، وإذا أردت أن تكتب من أعمـاقك ومن داخل روحك فعليك أن تمد يدك بعمق إلى فراء النمر والإمسـاك به بقوة؛ لأننا جميعًا فى حاجة لجولة مليئة بالمخاطر.

لم يتحرك أحد من مكانه.

عرفت من خلال خبرتى وكما كتب "كارل روجرز" أن التعليم الوحيد الحقيقى يتمثل فى اكتشاف الذات وفى التعليم المناسب للذات، إن وظيفتى لا تعنى القيام بتعليمك أى شيء وإنما كيفية خلق الجو المناسب الذى تستطيع من خلاله أن تعلم نفسك.

إن أحد المهارات الضرورية فى أيامنا هذه المليئة بالأساطير البالية والمفرطة فى العنف هى اكتساب القدرة على التفكير الناقد ومساءلة السلطات والشك فى كل شيء.

قالت صديقتى "جانيت أرمسترونج": (لدينا جميعًا أنظمة من السلوك الثقافى المكتسب قد أصبحت مع مرور الوقت جزءًا لا يتجزأ من اللاوعى عندنا وتلك الأنظمة تلعب دورًا مهمًا فى الطريقة التى ننظر بها إلى العالم كما أنها تؤثر فى تصرفاتنا وفى طريقة كلامنا وفى لغة أجسادنا والكلمات التى نستخدمها وأيضًا فى الطريقة التى نستجمع بها أفكارنا ولا بد لنا من العثور على طرق عديدة للوقوف أمام استمرار ذلك الدور الذى تلعبه أنظمة السلوك هذه لكن أصعب الأشياء التى يجب أن نفعلها هو أن نرى الأشياء من منظور مختلف.

استطردت صديقتى قائلة: يجب أن أعلم نفسى باستمرار تفكيك وتحليل ما أعتقد فيه وجعله على الطريقة التى يجب أن يكون عليها وأن أعمل باستمرار على تحرير عقلى مما أعتقد فيه ويجب دومًا ألا تتوقف معلوماتى عند حد معين حتى تزيد رقعة المعرفة والإدراك عندى وأستطيع القول بكلمات أخرى إنك لن تكون راضيًا أبدًا؛ لأننى راضية مما يجعلنى أبدو مستاءة لكن الأمر لا يعنى كذلك وإنما يعنى بأنك لن تكون راضيًا أبدًا وأنت تفكر بأنك عرفت نتيجة الأشياء وأن تسأل دائمًا ما يدور فى رأسى أنا، إننى دائمًا أقول لطلبتى الذين يدرسون فن الكتابة أن يبدءوا بل ويتمسكوا بموقفهم عندما يقولون كلمة "هراء" للتعبير عن استيائهم بأى شيء وأن يكونوا فرحين وسعداء وهم يعبرون عن أنفسهم بترديد تلك الكلمة لأنه فى معظم الأوقات يصبح من المخيف أن تتبنى التصرفات والسلوكيات القديمة أو الخلافات القديمة التى لا يجب أن

نعمل بها ونعتقد فيها وإنما علينا معرفتها وهكذا نتواصل مع تلك الأنماط والسلوكيات لأنها مألوفة.

قلت: من المقبول جداً والرائع أن تختلف معى ومن الجميل أن تختلف مع أى شخص وعليك فقط أن تكون مقبولاً ومحبوباً وتحظى بالاحترام طوال الوقت بالطريقة التى توافق أنت عليها، يجب أن تكون رأسك مليئة بالأفكار وأن تكون حكيماً فى رفضك.

سادت حالة من الصمت قلت بعدها: أيريد أحدكم أن يسألنى فيما قلت؟

رفع أحد الشباب يده فأشرت له بالحديث فقال: قلت كلمة "هراء" فى الفصل.

* نعم.

*هل تقولنَّها مرة أخرى؟ فأنا لم أسمع مدرساً يقولها من قبل!

قلت بلا تردد: "هراء".

منذ سنوات مضت استغرقت فى حديث طويل مع عازف جيتار كثير الأسفار وكان يعمل مع فرقة موسيقية هى الأفضل كما قال. وبالعودة إلى الستينيات نجده قد وقف على خشبة المسرح مع كثيرين بدءاً من "كارلوس سانتانا" إلى "راندى كاليفورنيا" إلى "جيمى بيج" لكنه كما قال بأن عازف الجيتار الذى علمه معظم تقنيات العزف كان عجوزاً وأستاذاً فى موسيقى الأغانى الزنجية وقد قابله عندما كان طفلاً قائلاً له: أرغب فى أن تعلمنى العزف على الجيتار.

فأجابه الرجل: أستطيع أن أعلمك كل شيء أعرفه فى خمس عشرة دقيقة ثم عليك بعد ذلك أن تعود إلى بيتك لتمارس ما علمتك إياه طوال خمسة عشر عاماً.

أصبح من الواضح جداً بالنسبة لى أن كلمات العازف العجوز تنطبق تماماً على الكتابة وعلى كل من يرغب بالتفوق فى عمله كما أنها صالحة ومناسبة للحياة نفسها.

(عند كتـابة الفقـرة الأولى يجب أن تمسك بالقـارئ من رقـبـتـه وفى الفقرة الثانية لا بد أن تغرس أصابعك فى قصبته الهوائية ثـم عليـك بإبقائـه قـبالة الحائـط حتى نهـاية السطر الأخير)

بول أونيل

لا تجعل القارئ يشعر بالضجر

فى اليوم الثانى دخلت الفصل متأخرًا حوالى دقيقتين وكان الطلبة يحركون المقاعد ويضعونها على شكل دائرة فأعلنت بأننا نتبع قاعدة فى الجلوس لكنهم راحوا يحدقون فى بأفواه مفتوحة غير أننى وبعد يوم واحد فقط اعتدت على ردود أفعالهم وعلى أفواههم المفتوحة فقلت: إن القاعدة الوحيدة فى الجلوس هى أنك لا تستطيع الجلوس فى المكان نفسه الذى كنت تجلس فيه بالأمس ولا تستطيع الجلوس إلى جوار الزملاء أنفسهم.

قال أحدهم: إنها ليست قاعدة واحدة بل قاعدتين.

أجبت قائلاً: إنها كذلك.

لكنك قلت بأنها قاعدة واحدة للجلوس.

وعندئذ جاء دورى فى التحديق بينما راحوا يتمتمون قليلاً وهم يتحركون نحو مقاعدهم.

كان السبب الأول من تلك القاعدة واضحًا وهو أننى كنت أريد لهم أن يحاولوا رؤية الأشياء من منظور مختلف فى كل يوم أما السبب الثانى فهو ما رغبت أن يفعله أساتذتى حين كنت فى المدرسة وهو رغبتى فى أن يجد طلبة الفصل الأكثر خجلاً العذر المناسب للجلوس إلى جوار شخص ما بعد أن سيطر عليهم الاهتمام بالحديث معه أو معرفة ما بداخله أو على الأقل جداً؛ لأن إعجاباً ما قد راودهم تجاه ذلك الشخص عندما اقتربوا منه لم يكن موجوداً حين كان بعيداً عنهم.

قلت: حسناً، فلتخرجوا الأوراق والقلم وسنتحدث اليوم عن قواعد ومبادئ الكتابة.

قرأت فوق وجوههم معنى الاستسلام والاعتراف حين أدركوا أن سؤالى فى اليوم السابق عن الأشياء التى يحبونها وتسمية عنوان الدرس باسم مختلف لم يكونا سوى طريقتين لحملهم على التفكير بأن هذا الفصل مختلف عن بقية الفصول، وهكذا هدأت ثورتهم وأصبحوا على استعداد لقبول مدرسهم الجديد الذى سيكون بالطبع مثل المدرس القديم.

اتخذوا شكل الطلبة واستعدوا لكتابة ما أقول وأصبح بمقدورهم أن يخبرونى فيما بعد بما كتبوه.

قلت يومها: إن أول شرط من شروط الكتابة هو ألا تصيب القارئ بالملل.

وكتبوا ذلك فوراً فى أوراقهم فأضفت قائلاً: إن أهمية رسالة الكاتب لا تهم ولا تعنى شيئًا إذا لم يبقيك الكتاب أو الفيلم السينمائى فى حالة من الانتباه المتواصل وإذا لم يعمل على إثارة انتباهك، إذا قرأت كتاباً مملاً فماذا تفعل؟ إذا شاهدت فيلمًا سينمائيًا لم يجذب انتباهك فماذا تفعل؟ إن أى وقت تقرأ فيه كتابًا أو تشاهد فيه فيلمًا كان باستطاعتك أن تقوم فيه بفعل أى شيء فى العالم، كنت تستطيع القيام بنزهة وربما كان بمقدورك تناول الطعام أو الاشتراك فى مناقشة جميلة عن تعرية وتفكيك الحضارة.

أشاروا برءوسهم وراح البعض يدون بعض الملاحظات فقلت مستطرداً: وربما كان من الأجدر أن تذهب لممارسة الجنس.

توقفت الأقلام عن التدوين فعرفت أننى استحوذت على انتباههم.

الشئ نفسه ينطبق على رؤيتى لما تكتبون حيث يمكننى فعل أى شيء آخر غير قراءة ما تكتبون ولذلك فأنا لا أطلب سوى شيء واحد فقط وهو أهمية أن تعرفوا أننى غير مهتم بما تكتبون سواء كانت كتاباتكم روائية أو قصصية ولا يعنينى قبولى أو عدم قبولى لآرائكم.

كانت وجوههم خالية من التعبير فأدركت بأنهم لم يصدقونى وراحوا يواصلون الكتابة وعندئذ أضفت قائلاً: ولكن من المهم جداً أن تكون كلماتكم فوق هذه الأوراق مفيدة وممتعة ولا بد أن تحمل فى طياتها ما يكفى من الإثارة مما يجعلنى أفضل قراءتها على ممارسة الجنس، هل كلامى واضح؟

توقفت الأقلام مرة ثانية وسادت الفوضى ثم أطلقت امرأة فى نهاية العشرينيات من عمرها ضحكة متقطعة ضحك على إثرها بقية الفصل، لقد كانوا يعتقدون بأننى أمزح.

كان الطلبة فى جامعة واشنطن الشرقية يضحكون دائمًا كلما أخبرتهم الكلام نفسه وعندما قمت بعمل محاضرة كضيف فى أحد فصول جامعة نبراسكا وذكرت لهم أهمية أن تكون الكلمات فوق الأوراق مفيدة وممتعة وضرورة أن تتسم بالإثارة حتى يمكننى تفضيل قراءتها على ممارسة الجنس راح الطلبة يحدقون فى وجهى بإمعان وارتسمت فوق وجوههم علامات تفكير عميق وأومأ بعضهم برأسه بما يفيد أن كلامى معقول فأخبرتهم -عندئذ- بأن مجرد التفكير فى كلامى واستجابتهم تعنى أنهم كتاب جيدون كما يجب أن ينتهزوا أول فرصة للالتحاق بجامعة واشنطن الشرقية.

مارست كتابة القصص بعض الوقت حين كنت فى العشرينيات من عمرى وكنت فى بعض الأوقات كاتبًا سيئًا وكان لا بد من إدخال بعض التحسينات على الطريقة التى أكتب بها، كان خوفى الشديد فى مواجهة الجماهير وأى حشد من الناس هو أحد مشاكلى لكن المشكلة الأساسية كانت فيما أكتبه من حكايات زائفة حيث لم أكن قد فهمت بعد أن الكتابة الجيدة أو حتى مجرد سرد قصة جيدة لا يتطلب اختراع شيء خيالى وغير ممكن وإنما يتطلب ببساطة أن أكون نفسى بقدر المستطاع، لقد قمت مع

صديقى "وادى ميتشل" شاعر رعاة البقر الشهير بعمل عدد لا بأس به من المهرجانات والندوات الأدبية والتى اتسمت بالطابع الاحتفالى المبهج وحدث ذات مرة وبعد انتهاء آخر ليلة فى آن آربور بميتشجان أن كاتبة تدعى "ملبر بيرش" راحت تتحدث معى فى وقت متأخر من تلك الليلة، إنها واحدة من أكثر كتاب القصة والرواية موهبة وقد أجبرتنى حينها أن أقرأ لها واحدة من قصصى وفور الانتهاء من القراءة راحت تنتقد العمل كلمة وراء كلمة، كنت من ناحية أستخدم كلمة خطأ من أجل وصف شيء ما مثلما كنت أقول المجراف بدلاً من المجرفة وعندما انتقدتنى وقامت بتصحيح بعض الزلات قلت: إنها مجرد كلمة.

أجابت باستغراب: مجرد كلمة!! لا، أنت قمت باستغفالى وكأنك سرقت محفظتى، لقد ضحكت علي بالكلمات وسرقت لحظة من حياتى، إن كل لحظة تقف فيها على خشبة المسرح أو كل لحظة تكتب فيها شيئًا ما لشخص آخر هى ملك للمشاهدين وللناس الذين يقرعون ما تكتبه؛ لأنهم يقدمون لك وقتهم الذى كان من الممكن أن يستفيدوا به فى عمل شيء آخر، أنت إذن مسئول عن كل ثانية أمضوها فى قراءتك وبالتالى فلا بد أن تقدم لهم كل ما هو مفيد ومثير بما فى ذلك الحقيقة كما تفهمها وكما يجب أن تكون فى كل لحظة من اللحظات المختلفة.

يصبح السؤال عندئذ: كيف تحافظ على انتباه قرائك؟ وما الفائدة أو المتعة التى ستقدمها لهم؟ وكيف تعمل على أن تكون تلك المتعة متساوية مع الوقت الذى أمضوه فى القراءة.

لا شيء، إنهم يتوقعون منى طرح الأسئلة والإجابة عليها أيضاً.

ما الذى يجعلك تواصل مشاهدة فيلم ما؟

يجيب شخص ما أخيراً: الإثارة، شيء ما يشدنى.

أكرر: الإثارة، إننى أقوم بتقليب المحطات وأرى شخصًا ما وهو يختلس النظر عند أحد الأركان ويمسك بالبندقية فأرغب ربما فى التوقف والانتظار مدة طويلة لرؤية ما يمكن أن يحدث لأن شيئًا ما يجب أن يحدث، إن القاعدة فى الغرب - كما سمعتها - هى ضرورة أن تصيب القارئ ببعض الطلقات النارية فى الصفحات العشر الأوائل.

اقتنع كثير من طلبتى بتلك القاعدة الغربية وراحوا يكتبون على غرارها.

قال شخص آخر: فكاهة!!

أجبت: إن الفكاهة والمزاح والهزل أشياء جيدة.

أضاف شخص آخر قائلاً: وعنصر التشويق!!

إنه لأمر مهم، هل شاهد أحدكم فيلم الزوال؟

حمدت الله كثيراً لأن أحداً لم يشاهد الفيلم.

كنت قد شاهدت النسخة الأوروبية من الفيلم وسمعت بأن النسخة الأمريكية تستحق المشاهدة، إنه يحكى عن عاشق يفقد عشيقته حين توقفا عند محطة للبنزين أثناء رحلتهما فى الطريق، ثم تمضى بقية أحداث الفيلم فى الكشف عن محاولات العشيقة لمعرفة ما حدث لها، كان الحوار غريبًا والأداء مضحكًا وكانت الشخصية الرئيسية بلهاء، لكننى بعد أن شاهدت بقية الفيلم الملعون استطعت عندئذ أن أكتشف ما حدث لها، لقد كان شيئًا بشعًا وقد نجح الفيلم فقط فى التشويق وإثارة الانتباه.

سادت لحظات من الصمت قطعها شخص ما قائلاً: ثم؟

ثم ماذا؟

ثم ما الذى حدث لها؟

قلت: ثمة شيء آخر تستطيع عمله من أجل التشويق والإثارة وهو أن تذهب

بالقارئ إلى ما قبل نهاية القصة بقليل أو إلى أن تصل بهم حتى نهاية جزء من الحدث ثم تنتقل للحديث عن شيء آخر مما يجعل القراء يواصلون - رغمًا عنهم - قراءة كل الأحداث المملة حتى تعود مرة أخرى إلى ما كنت تتحدث عنه من أحداث جادة، أنت ترغب فى البقاء على الإثارة واللهفة فى معرفة القادم لكنك لن تستطيع أبداً أن تنجح فى ذلك دون أن تخلق نوعًا جديداً من الإثارة.

قال الشخص نفسه متسائلاً: ماذا حدث للمرأة؟

أجبت: إثارة، فكاهة، تشويق.. هل ثمة شيء آخر؟

قالت امرأة: أنا أحب قراءة الإنجيل.

سألتها: لماذا؟

لأن قراءة الإنجيل تساعدنى فى معرفة الله.

لكن الكاتب يستطيع أن يستحوذ على انتباه القارئ بشىء آخر ولا يهم أن يكون ذلك الشيء عن الله أو التاريخ أو الفلسفة أو الحياة أو حتى عن تصليح السيارات، إن الشىء المهم هو أن تكون ما تريد وأن ترغب فى ما تحتاج وأن تكون مستعداً للتعلم والمعرفة.

لم يتكلم أحد فقلت مستطرداً: وماذا عن الكتابة الجميلة؟ والحوار العظيم الذى يتسم بمستوى رفيع؟ تلك هى الأشياء التى تجعلك تهتم بمشاهدة السينما ولا تنقطع عن القراءة إلى جانب الشخصيات المثيرة للانتباه وليست الشخصيات النمطية، وبالمناسبة فإن ثمة سبب واحد يجعل من أفلام الأربعينيات والخمسينيات أفضل من أفلام اليوم وهو أن كثيراً من كتاب تلك الأفلام القديمة كانوا روائيين وكانوا يجيدون بالتالى رسم الشخصيات، أما فى أيامنا هذه فإن معظم الكتاب من خريجى معاهد السينما أو من دارسى الإعلانات مما يعنى أنهم أفضل كثيراً فى إيهام المشاهدين بأنهم يشاهدون شيئًا غير مألوف وذلك بالقفز من مقطع لآخر وباستخدام الصور

المدهشة لكنهم لا يعرفون كيفية كتابة ذلك الحوار الذى يكشف -من خلال كلماته- عن كل الأشياء التى تحتاج لمعرفتها ويكشف لك شخصية المتكلم فى جملة واحدة مفيدة كما حدث فى فيلم (رجل المطر) حيث كان كل من "داستين هوفمان" و"توم كروز" يصعدان السلالم ثم ينزلان فى مشهد رائع لكننى ظللت أفكر أنهم استخدموا ذلك المشهد لكى يساعدونى ويساعدوا كل المشاهدين فى معرفة الشخصيات من خلال حوار دقيق وبارع.

بدا أنهم فهموا ما قلت غير أنهم لم يقولوا شيئًا.

وما الذى يجعلك تشعر بالإثارة أيضًا؟

كنت أعرف ما يفكرون فيه لكننى كنت أعرف أيضًا أنهم لن يبوحوا به وعندئذ قلت: إنه الجنس، لقد أضاف جهاز التحكم عن بعد كثيراً من المشاهد الجنسية إلى الأفلام فأنت تستطيع أن تتنقل عن طريق الجهاز من قناة إلى أخرى حتى ترى بعض الأجساد مما يجعلك - غالبًا - تتوقف بضع لحظات.

قال واحد من الطلبة: يتوقف ذلك على نوعية الجسد.

ساد مزيد من الصمت وكنت أعرف أيضًا ما يفكرون فيه هذه المرة لكن أحداً لن يتجرأ على القول.

قلت: أظن أنه "تشارلز ديكنز" الذى تحدث عن العنف وأباح قتل أحد الأطفال إذا ما ساورتك الشكوك، إنه يعنى بذلك سير الأحداث ويراعى الحبكة الروائية ولا يعنى حدوث الشىء نفسه فى الحياة الواقعية مع أن الأمر مع "ديكنز" ليس مؤكداً، لقد قرأت منذ سنوات مضت كتاباً فى الفلسفة لـ"ميشيل فوكو" بعنوان (تأديب وعقاب) هو فى الأساس اختبار للعقود الخمسة الأخيرة لدولة من الدول ومدى استجابتها للجرائم، كان واحداً من أفضل ما كتب فى الفلسفة ومن أجمل الكتب التى قرأتها، لقد بدأ "فوكو" بوصف تصويرى حى لتعذيب شخص ما وإعدامه حاول أن يقتل الملك، لقد استخدموا كماشة ساخنة ومتوهجة فى تمزيق جسده وكانوا يصبون الزيت المغلى فوق

الجروح كما ربطوا ذراعيه وقدميه فى رقبة حصانين ثم تركوا لهما فرصة الجرى بأقصى سرعتهما لتمزيقه وعندما لم تنجح تلك المحاولة البشعة قاموا بتقطيع ذراعيه وقدميه بضربات متوالية، كان أمرًا فظيعًا ومشينًا لكنه جعلنى أقرأ ذلك الكتاب اللعين وظللت _أثناء القراءة - أتوقع المزيد غير أننى لم أحصل على شيء فى النهاية سوى مئات الصفحات من الفلسفة.

سألنى أحدهم: ألم تشعر بالخديعة؟

أجبت: لا، إذا كانت الفلسفة مملة لأصبح الكتاب خدعة رخيصة لكن الفلسفة علم مثير للانتباه ويحمل فى ثناياه كثيراً من التشويق والمتعة، لقد نجح الكتاب تقريبًا وأستطيع القول بأنها لم تكن خدعة رخيصة.

قال الشخص الذى ظل يتساءل عن التلاشى والزوال: أتتحدث عن الخدع الرخيصة، ماذا حدث للمرأة؟

● آه، عليك بمشاهدة الفيلم لكى تكتشف بنفسك لكنهم اختطفوها على أية حال وقاموا بدفنها وهى حية.

قال شخصان فى وقت واحد: أوه، لقد شاهدناه، إنه فيلم رائع وجميل.

سأل أحد الطلبة قائلاً: وهل ذلك هو ما تحتاجه الكتابة لتكون أفضل من ممارسة الجنس؟ وهل ينطبق الشيء على الكتب والأفلام أم على ما يحدث داخل الفصول أيضًا؟

أجبت قائلاً: بالطبع، إن جوهر وظيفتى هو أن أبث روح الإثارة داخل الفصول بقدر المستطاع مما يجعلك تفضل المجيء إلى الفصل عن ممارسة الجنس مع امرأة فاتنة.

ضحكوا لأنهم لم يدركوا بأننى أتحدث بجدية فقلت مستطرداً: وإذن فما الذى يجعلكم تأتون إلى هنا؟

أريد القول بأن الفصول التى أقوم بالتدريس فيها كانت مليئة بالإثارة والتشويق حتى إن كل طالب على حدة كان يحضر إلى الفصل من تلقاء نفسه؛ رغبة منه فى مزيد من التشويق ولم يكن ذلك يمثل الحقيقة الكاملة لأن معظم الطلبة فى الحقيقة كانوا يحضرون بالمصادفة أثناء تجوالهم من فصل لآخر وذلك من باب الفضول لرؤية ما يحدث داخل الفصل الجديد وأحياناً للمشاركة فى بعض التدريبات المفضلة لديهم.

حاولت عدم القيام بدورى المعهود فى فصلين من الفصول ولم أتعهد لهما بالانتظام فى الحضور لكن دائماً ما كان يوجد واحد أو اثنان فى كل فصل من الذين لا تبدوا عليهم أبداً علامات عدم الإكراه.

سألت أحدهم: هل تحب الفصل؟

- نعم، أحبه كثيراً.
- لكن ذلك لا يبدو واضحاً إلا إذا جئت أنا.

قال: لماذا ينبغى أن أكون فى الفصل إذا كان بمقدورى أن أكون خارجه؟

مضيت نحوه وأخبرته بأن يكون واضحاً وصريحاً مع نفسه ويتصرف طبقاً لما يريد لكنه قال: لقد بالغت فى اعتقادك أننى أستطيع التصرف طبقاً لرغباتى حتى لو أننى سأفعل ما أحب.

استدرت بعيداً عنه.

بدأت حديثى قائلاً: إن أول قاعدة يجب مراعاتها عند الكتابة هى.........

لم ينتظروا نهاية الجملة وقاطعونى قائلين: ألا تصيب القارئ بالضجر.

قلت: والقاعدة الثانية هى ألا تصيب القارئ بالضجر.

قال أحدهم: ولكن ذلك......

قاطعته وأضفت: والقاعدة الثالثة التى لا بد من مراعاتها عند الكتابة هى ألا تصيب القارئ بالضجر، وإذن فهل يستطيع أحدكم الآن أن يخمن القاعدة الرابعة والخامسة؟

إن التدريس فى السجن لا يشكل فرقًا فى الحقيقة عن التدريس فى أى مكان آخر فالطلبة هم الطلبة والكتابة هى نفسها الكتابة مع بعض الاختلافات الطفيفة بالتأكيد لكن تلك الاختلافات أصغر مما قد يظن المرء فالقصص يتناولها الكتاب فى السجن مليئة أكثر بالأحداث عن تلك التى يتناولها الكتاب فى الكلية كما أن الحدث نفسه يكون أكثر إثارة وتوجد أيضًا بعض الاختلافات الخفية فى طريقة التدريس التى أتناولها لأن طلبتى فى السجن محرومون فى الغالب من العلاقات الرومانسية الحميمية واللقاءات المنتظمة المباشرة وهكذا فإننى لا أطلب منهم أن تكون قصصهم وكتاباتهم أفضل من ممارسة الجنس؛ لأنهم سيتذكرون على الفور بأننى أطلب شيئًا لا يمتلكونه بالإضافة إلى أن بعضهم لن يمارس تلك العلاقة بقية حياته ولا يجب أن أطلب منهم فى الوقت نفسه أن تكون كتاباتهم وقصصهم أفضل من السير فى الغابة وإنما يجب إخبارهم بأن تكون كتاباتهم أفضل من كتابات أخرى كثيرة قمت بقراءتها على مدى سنوات أو أكثر إثارة من الأفلام التى شاهدتها، هكذا فقط يمكن إخبارهم؛ كى يتفاعلوا معى ولا يشعرون بالزيف.

أخبرنى طلبة السجن فور البدء فى العمل معهم بأنهم لاحظوا عدم خوفى منهم وأن ذلك الأمر نادر الحدوث وقال بعضهم بأننى فى الغالب المدرس الوحيد الذى لم يخف منهم.

كان كثير من المدرسين وآخرين ممن يتعاملون معهم يبدون فى البداية وقد ملأهم الرعب لئلا يقوم أحد المساجين بحركة مفاجئة وسريعة فقلت: لا يوجد سبب لديكم لإيذائى فلماذا أخاف إذن؟

قالوا: تماماً، لا يوجد أى سبب.

كان لا بد من ممارسة قليل من الذكاء أثناء التعامل معهم فلم أكن مثلاً أدير ظهرى للطلبة الذين لا أعرفهم رغم أننى دائمًا ما كنت ودوداً ولطيفًا معهم كما كنت أيضًا حريصًا على الدوام أن أضع جهازًا للإنذار فى حزامى يمكننى أن أضغط عليه فى أى لحظة أشعر فيها بالخوف ليسارع الحرس بإنقاذى، لم يكن طلبتى يتمتعون بتلك الميزة.

كان حبى واحترامى لطلبتى متساويًا بين طلبة الكلية وطلبة السجن ولم يحدث أن شعرت بفرق بينهما.

لم يستطع كل الطلبة تقدير جهودى سواء فى الكلية أو فى السجن ومن المحتمل أن ذلك ما حدث فى الشوارع وفى البيوت، منذ عامين تقريبًا التحق طالب جديد بفصلى فى السجن واستطعت بسرعة أن أكتشف أنه كاتب موهوب ورائع ولا أنسى أبداً ذلك السطر فى القصيدة الذى راح يصف فيه الرجل المضروب دفاعًا عن الجماعة بالكيميائى البارع الذى يخلط المعادن ببذور النباتات والثمار، رأيت هذا الطالب الجديد مرة واحدة ثم اختفيت لفترة كنت مشغولاً فيها بمراجعة أحد الكتب وبعد عودتى لم يكن موجوداً فلم أشاهده لشهور عديدة لكننى رأيت فى الفصل الثانى رجلاً طويلاً ونحيلاً بدا لى مألوفًا فسارعت بسؤاله: هل أنت هو الشخص الذى كتب ذلك السطر عن خلط المعادن ببذور النباتات والثمار؟

نظر نحوى بأطراف عينيه وقال: نعم.

قلت: لقد قلت لكل الناس وفى كل مكان بالبلد أنك كاتب عظيم، لقد كان وصفًا رائعًا.

ابتسم وبدا أنها المرة الأولى أو أحد المرات القليلة التى استمتع فيها بوجوده فى الفصل وفى السنة التالية أو السنتين التاليتين كان متحفظًا وبدا فاترًا إلى حد ما، كانت قراءته لقصائده الخاصة وقصصه - التى اتسمت فى الغالب بالبراعة – هى أقصى ما يستطيع أن يشارك به لكنه كآخرين من أمثاله لم يكن يحب الفصل على ما أعتقد وفى يوم ما أخبرنا عما يضايقه وقال: لقد سئمت حقًا من الطريقة التى تعاملوننا بها، إنكم تعاملوننا كالأطفال وليس من المستبعد أن تحضروا لنا الحفاضات فى يوم ما، إن كل ما تفعلونه دائمًا هو الإشارة إلى أننا كتاب جيدون لكن الحقيقة أن بعض الكتاب هنا ما زالوا مبتدئين والكثير من أعمالهم لا ترقى إلى مستوى الإبداع لكنكم لا تخبرونهم بذلك أبدًا.

قلت: إننى أقدم بعض الاقتراحات وإذا أبديتم قبولاً لتلك الاقتراحات وأيضًا إذا ما قمتم بتطبيقها لتحسين كتاباتكم فلن أتردد فى تقديم المزيد من الاقتراحات أما إذا لم تقبلوا بها وأبديتم عدم تفهم لها فلن أتقدم بالنصيحة؛ لأنها حينئذ تكون عديمة الفائدة.

* لكنك لم تخبرنا أبدًا بأخطائنا.

* إنه ليسعدنى أن ترغبوا فى مزيد النقد لأعمالكم وتوضيح أخطائكم.

* أوه، أنا لا أتحدث عن أعمالى الشخصية فهى كتابات جيدة وكل ما قلته لا يعنى بالنسبة لى أى شيء على أية حال لكن بعض الطلبة هنا فى حاجة لأن تتحدث معهم، إن أعمالهم الإبداعية مبتذلة ويجب أن تخبرهم بذلك حتى يتوقفوا عن تبديد وقت الآخرين ووقتهم هم أولاً.

كان ذلك الكلام فى المقام الأول بمثابة إشارة لى وبدا واضحًا بالنسبة لى وبالنسبة لواحد من طلبتى المفضلين الذى يأتى كل أسبوع أن الأمر ممتع ولطيف، كتب الكثير، كانت لديه الهبة لكى يلحق بأحداث الرواية ويدرك الحبكة الروائية، ومن وجهة

نظرى فإن ما هو أهم من كل ذلك أن الأمر برمته مناسب للتعليم، عندما بدأنا العمل سوياً فى البداية كانت كتاباته أقرب إلى المسودات والأفكار المختصرة منها إلى القصص فاقترحت عليه أن يدخل فى تفاصيل أكثر لكى يبين لنا على سبيل المثال شخصاً بريئًا وقد عثر على نقود كثيرة مسروقة من أحد البنوك وبدلاً من القول بأنه كان فى نزهة حين وجد حقيبة وبها مليون دولار أتساءل أنا قائلاً: هل كانت الحقيبة تشير إلى محتواها؟ وبماذا شعر حين فتحها؟ هل كان عصبياً؟ وهل فكر فى مجرد إعادتها؟

عند سماعهم لسؤالى الأخير ارتسمت على وجوههم علامات تتهمنى بالحمق.

عاد فى الأسبوع التالى وقد أعاد كتابة سبعين صفحة احتوت على مثل تلك التفاصيل ومنها الطريقة التي وصف فيها الشخص الذى وجد الحقيبة وهو يتناول إفطاره حيث ذكر أن الإفطار بدأ فى السابعة والدقيقة الثالثة والعشرين وتحدث عن كَمية السجق بالواحدة،وعدد البيضات وكيف قام بتسوية كل بيضة على حدة وهكذا حتى إنه اعترف بالإغراق فى التفاصيل وقد أجبرناه على تمزيق كل الأوراق فاستمع إلينا ولا بد أنه تعلم شيئًا جديداً مما جعلنى أشعر بسعادة بالغة.

دافعت عن هذا الطالب علانية بينما راح زملاء آخرون يواصلون هجومهم معبرين عن استيائهم لضياع الوقت.

عدت فى الأسبوع التالى وأخبرت زملائى بأننى فى حاجة لتوضيح بعض الأشياء ثم لم أتردد فى القول: ليس مسموحًا لأحد أن يبدى عدم احترامه لطلبتى وهذا الكلام ينطبق على الطلبة أنفسهم فليس مسموحاً لأى طالب أن يعبر عن ازدرائه لأى زميل له فى الفصل كما أنه ليس من حق الطلبة ألا يكنوا الاحترام لأنفسهم أولاً.

ساد شعور بالرضا لدى كثير من الطلبة بعد سماع ذلك الكلام ورحت أتجول فى الفصل وأسأل كل واحد على حدة عما إذا كان راغباً فى الحديث عن الموضوع فقال أحدهم بأنه لا يتفق معى فى فلسفتى التعليمية التى أعتمد فيها على المديح والإشادة والتمجيد ثم اُستطرد قائلاً: إذا رغبت أنا مثلاً فى الكتابة بشكل أفضل فلابد أننى فى حاجة أولاً لمعرفة نقاط ضعفى ككاتب.

قلت له: أتعرف نقاط قوتك ككاتب أولاً؟

* لا.

* حسنًا، بعد أن نكتشف نقاط قوتك سيكون أمر اكتشاف نقاط ضعفك واضحًا جليًا، أفليس من الصواب إذن أن نتعرف على نقاط قوتك وعلى مميزاتك فى الكتابة قبل الحديث عن نقاط الضعف.

وافقنى بإشارة من رأسه.

هكذا سارت الأمور حتى وصلنا فى النهاية إلى الشكوى الأساسية حين قال شخص ما بصراحة: نحن المدانون، نحن لا نشبه بقية الناس كما أننا لسنا مثل طلبة الكلية الذين تجبرهم على ارتداء الحفاضات، نحن نقوم بعمل أشياء فظيعة ومروعة والبعض منا أشخاص مروعين، نريدك أن تخبرنا عن أخطائنا وعيوبنا.

غضبت بشدة ولكن ليس بسبب ما قاله فقط وإنما بسبب أولئك الذين التقوا به فى حياته وأقنعوه بأن إخباره بأخطائه دليل على اهتمامهم به، وغضبت أيضًا بسبب كل تلك الثقافة التى نشأت فى ظل بيئة لا تقبل الاختلاف ولا يسود فيها الاحترام المتبادل ويفقد فيها الناس قدرتهم على حب ذواتهم، لقد فكرت فى ذلك الملصق الضخم الذى شاهدته فى يوم ما وكان مكتوبًا عليه: "أولئك الذين يخافون من اتباع أحلامهم هم الذين سيقومون بتدميرك".

ضربت يدى بقوة فوق الطاولة فتراجع أحد الطلبة إلى الوراء وقلت بصوت أكثر حدة من أى وقت مضى: أنا لا يعنينى ماذا تفعل ولا أهتم حتى بأنك قمت بنكاح أمك أو قتلت صديقك الحميم، لا يهمنى كيف يعاملونك خارج هذا الفصل وكيف تعامل أنت الآخرين خارج هذا الفصل فأنا لا أستطيع التحكم فيما يحدث بالخارج ولكن فى هذا الفصل وهنا داخل هذه الحجرة فإن جميعكم بشر وآدميون ولا بد أن يكون التعامل معكم باحترام وذلك أمر غير قابل للتفاوض.

انتهيت من كلامى فقام على الفور بمغادرة الفصل ومن يومها لم أشاهده مرة أخرى ولم أسمع عنه شيئًا لكننى أظن بأنه لا يزال يمارس الكتابة وبشكل جيد وربما يتسنى لى رؤيته فى يوم ما وربما لا.

من المدهش حقًا أن نظام التعليم قد ساهم بشكل كبير فى تدمير روح الطلبة وكانت تلك غايتهم منذ البداية على ما يبدو وأرجو ألا تغضب منى أو من كلامى ولكن عليك بالغضب على الذين أسسوا ذلك النظام، فى عام ١٨٨٨ (وأنا هنا أدين بالفضل كله للمربى والكاتب الكبير "جون تايلور جاتو" لجمعه تلك الاقتباسات الخاصة بالهدف الأساسى من التعليم الصناعى) كانٍ مجلس الجامعة غاضبًا من جودة التعليم التى يتلقاها الطلبة فى المدارس المحلية غير الموحدة فكتب التقرير التالى: نعتقد أن التعليم هو أحد الأسباب الرئيسية فى الاستياء وحالة السخط التى سادت فى السنوات الأخيرة داخل الفصول.

كيف بدأ المسئولون فى المدارس الصناعية يدركون حجم المشكلة؟

قال المعلم والفيلسوف "جون ديوى": يجب على كل مدرس أن يدرك أنه يعمل فى خدمة مجتمعه وأنه يدخر كل مجهوداته لعملية إصلاح النظام الاجتماعى المناسب وصيانته والعمل على تأمين التطور الاجتماعى السليم.

وكان السؤال التالى: ما النظام الاجتماعى المناسب وما التطور الاجتماعي؟

فى عام ١٩٠٦ أجاب "إلوود كوبرلى" الذى أصبح - فيما بعد - عميداً لمدارس إحدى كليات التعليم وقال: ينبغى أن تصبح المدارس كالمصانع حيث يقومون بتشكيل المواد الخام ويصنعون منها أشكالاً نهائية فى صورة منتجات مختلفة وهذا بالضبط ما يجب أن يحدث فى المدارس، يجب أن يعملوا على تشكيل عقول الأطفال وتدريبهم على التفكير الحر وعلى الإبداع والابتكار.

وفى عام ١٩٠٦ قام مجلس روكفلر للتعليم بصفته أكبر المناصرين لحركة التعليم العامة الإلزامية بمساندة الحركة مادياً وقالوا فى ذلك الصدد: إن الناس تسلم نفسها لنا طواعية لنشكلهم حسبما نريد، إن اتفاقيات التعليم الحاضرة مثل اتفاقية تطوير مهارات الأطفال وشخصياتهم داخل المنزل وفى المدارس المحلية لم تعد تشغل حيزاً من تفكيرنا وساهمت التقاليد بشكل كبير فى إعاقتها، لن نحاول أن نجعل من أولئك الناس فلاسفة أو رجال تعليم أو رجال علم ولن نحاول أن نكتشف -من خلالهم- الكتاب والمعلمين والشعراء أو الأدباء، لن نبحث عن الفنانين العظماء الصغار أو الرسامين والموسيقيين ولا حتى المحامين والأطباء والدعاة ورجال السياسة أو رجال الدولة والذين هم موجودون بكثرة وإنما مهمتنا التى تشغلنا ونحاول تحقيقها هى مهمة بسيطة تنحصر فى كيفية تنظيم الأطفال وتعليمهم اتقان فعل الأشياء نفسها التى كان يفعلها أباؤهم وأمهاتهم بغير إتقان.

لم يستطع المسئولون أن يكونوا أكثر وضوحاً وكتب "وليام تورى هاريس" مفوض التعليم الأمريكى فى الفترة ما بين ١٨٨٩ - ١٩٠٦ قائلاً: إن ٩٩ ٪ من الطلبة تلقائيون وحريصون على السير فى طرق وممرات محددة وكذلك على اتباع العادات المحددة نفسها وليس ذلك مصادفة ولكن نتائج التعليم الأساسية والتى يمكن تعريفها بشكل علمى هى مقدمة لشخصية الفرد.

استطرد "هاريس" للتدليل على أن الأمر لا يتعلق بالطلبة فقط وعلاقاتهم ببعضهم البعض وإنما للبلد بأكملها: إن هدف المدرسة الأساسى والأهم يمكن إدراكه بشكل أفضل فى الظلام والسكون والأماكن الرديئة حيث يمكن السيطرة على النفس وتجاوز جمال الطبيعة، يجب أن تقوم المدرسة بعملية تطوير القوة للانسحاب من العالم الخارجى.

لا عجب إذن لأننا جميعًا نكره المدرسة وتلك الكراهية فى حد ذاتها شيء جيد جداً لأنها تعنى بأننا ما زلنا أحياء.

رغـــبت فـــقط أن أعـــيش مـــتـــصـــالحًـــا مع

مــــعــــتــــقــــداتى الشــــخــــصــــيــــة

ولكن لماذا كـــان ذلك أمـــرًا بالغ الصـــعـــوبة؟؟؟؟؟؟

«هيرمان هيسه»

مـنْ أنـت؟

تنطوى الحياة – فى الحقيقة – على تساؤل واحد وتحمل درسًا واحدًا ولا ينفك ذلك التساؤل فى مهاجمتنا برفق وبشكل متكرر وأينما ذهبنا، إن القمر ينطق بالتساؤل نفسه كل ليلة وكذلك تفعل النجوم كما يظل التساؤل فى الإلحاح عندما تتساقط قطرات من المطر وتتعانق مع أوراق شجرة الأرز الطرية وكذلك عندما تتجمع قطرات من المياه بين ثنيات أنفك أو عند جوانب فمك.. الضفادع، الزهور، الأحجار، قطع البلاستيك الجامدة، كل تلك الأشياء تؤدى إلى التساؤل نفسه .

التساؤل هو: منْ أنت؟

أما الدرس فهو تساؤل آخر عما إذا كنا قد ولدنا أم أننا جئنا نتيجة بذور تم غرسها فى الأرض أم نتيجة لبيضة مفقوسة أم أننا خرجنا من الحجارة أم أننا سقطنا من السماء وربما نكون قد عشنا ثم وافتنا المنية أو تلاشينا أو تحطمنا وتكسرنا أم أنهم قاموا بإلقائنا أشلاءً فى النهر أو البحيرة أو فى أعماق البحر، إن الأمواج تتدفق نحو الخارج كى ترتد مرة أخرى من الشاطئ البعيد وإذن ما الذى سوف تفعله فى تلك الأثناء وأثناء حدوث كل ذلك؟ وما الذى ستحاول اكتشافه؟ وما الذى ستريد أن تكون عليه؟ منْ تكون أنت؟ ومنْ أنت تكون؟ وكيف ستتصرف حيال ذلك؟

إذا تطلب التعليم الصناعى الحديث والحضارة الصناعية بشكل عام تعريفًا عامًا للفرد وتحويله من إنسان نابض بالحياة إلى إنسان آلى وإلى قوى عاملة مطيعة ولينة فإن أقصى ما يمكننا فعله هو أن نتبع قلوبنا لإظهار حقيقتنا ومعرفة منْ نكون، نحن

فى حاجة ماسة للثورة بكل أشكالها المختلفة من الشخصى جداً إلى العالمى، من الهادئ جداً إلى الصاخب الموجع، نحن نقضى على الحياة فوق كوكب الأرض ونقتل بعضنا البعض، إننا نقتل أنفسنا.

وما زال جيراننا وإخوتنا فى الإنسانية والطيور الطنانة وأشجار التوت والانفجار الحاد للزلزال الذى يوقظك من نومك ويسألنا: منْ أنتم؟ وماذا تمثلون بالنسبة لنا وبالنسبة لأنفسكم؟

إن نظامنا الحالى يفصلنا عن وجداننا وعن أجسادنا ويباعد بيننا وبين جيراننا ويخلع عنا إنسانيتنا ويقتل الحيوان بداخلنا ويحصرنا داخل دائرة العالم الذى نعيش فيه كما يباعد بيننا وبين الأخلاقيات السوية ويحرمنا من التفكير البدائى (كم هو رائع أن تدمر مكان إقامتك؟ ومن العبقرى الذى ابتكر فكرة وضع السم فى طعامنا وفى الماء الذى نشربه والهواء الذى نتنفسه؟).

لقد سمعت المدافعين عن ذلك النظام يقولون بأن اتباع الإنسان لعاطفته ووجدانه ليس كافيًا من الناحية الأخلاقية وضربوا مثالاً على ذلك بهتلر الذى كان منقاداً لعاطفته ووجدانه عندما حاول أن يقهر العالم كله ويتخلص من أولئك الذين كان يراهم غير جديرين بالحياة، لكن هتلر لم يعد يتبع قلبه أكثر من أى منا نحن الذين نساهم بطريقة عمياء فى الثقافة التى أنجزت ما أراده هتلر ولم تستطع أن تصل به إلى الكمال، إن الحقيقة تتمثل فى -كما بينتها فى مكان آخر- أنها كلمة مطاطة وكثيراً ما تتسبب فى المتاعب وذلك فقط من خلال الانتهاكات المخزية التى تحدث لقلوبنا وعقولنا وأجسادنا والتى نغرسها نحن ونضعها فى نظام حيث تصبح جزءاً من نفوسنا المشوهة والممزقة؛ كى نضفى نوعًا من الخلود على الطريقة القائمة على الاستغلال والتخلص من كل شخص وكل شيء يمكن أن نمسك به فى أيادينا.

من خلال هذا السياق فإن السؤال الذى يسأله العالم كله فى كل لحظة يصبح بلا

قيمة ولكنه يجعل الأمر أكثر خطورة، منْ أنت؟ منْ أنت حقيقة؟ منْ أنت فى ظل ذلك الحصار وتلك الصدمات التى تثير الفوضى فى حياتنا وتساهم فى تشكيلها؟ وماذا تريد أن تفعل بتلك الحياة القصيرة جداً التى يشاء لك أن تحياها؟ إننا لا نستطيع العيش بالطريقة التى نعيش بها إلا إذا لم نسأل أنفسنا ذلك السؤال وقمنا بتدريب أنفسنا والآخرين على اجتناب ذلك السؤال بالإضافة إلى إجبار الآخرين على عدم طرح ذلك السؤال أمامنا ومحاولة النيل من أولئك الذين يفعلون.

كنا على وشك الانتهاء من الأسبوع الدراسى الأول حين توجهت بالسؤال التالى: إذا حصلت فجأة على مبلغ من المال أكثر مما تتخيل أو فلنقل مليوناً من الدولارات مثلاً فهل ستواصل دراستك؟

قال شخص ما: أفترض مبلغًا أكثر من المليون.

حسناً، ثلاثة ملايين.

أكثر.

لا تكن جشعًا وأجب عن السؤال، هل ستستمر فى الدراسة؟

قال آخر: لا بد أنك تهذى، لا أحد فى الفصل كله سيواصل المجيء إلى هنا لمواصلة الدراسة إذا امتلك مثل هذا المبلغ الكبير من المال.

لقد سألت السؤال نفسه على مدى سنوات عديدة حتى الآن وكانت إجابات كل الطلبة تؤكد ترك الدراسة فيما عدا خمسة أو ستة من الطلبة فقط هم الذين رغبوا فى الاستمرار.

وتناقشنا حول ما يمكن أن يعملوه عند حصولهم على تلك النقود وترك الدراسة فأخبرنى الكثير برغبتهم فى السفر بينما قال البعض بأنهم سيبقون فى بلدهم ويجلسون فى البيت لمتابعة التليفزيون كما عبر البعض الآخر عن رغبتهم فى إقامة

حفلات صاخبة وأكد كثير من الطلبة على أهمية عدم مشاركة الوالدين والأقرباء والأصدقاء فى شئونهم الاقتصادية وقد سارع كثيرون أيضًا بالتعبير عن رغبتهم فى شراء بيوت لذويهم، أما القليلون منهم وبخاصة الأكبر سنًا وأولئك الذين عادوا لاستئناف الدراسة بعد طول انقطاع فقالوا بأنهم فيما عدا ترك المدرسة فإنهم لن يغيروا كثيرًا من طريقة حياتهم.

قلت متسائلاً: هل ستحصلون على وظيفة وتحافظون عليها؟

ضحكوا جميعًا ولم يجب أحد منهم بالإيجاب.

ثم أضفت مخاطبًا أحدهم: حسنًا، لقد حصلت على كل تلك النقود وفى اليوم التالى ذهبت للطبيب لعمل فحوصات كالتى تقوم بعملها من وقت لآخر وعندئذ اكتشفت بأنك مصاب بمرض لعين وأنك ستبقى حيًا لمدة عام دون إحساس بأى من أعراض ذلك المرض اللعين وأنك ستبدو أمام الناس فى حالة جيدة طوال الوقت لكنك فى نهاية تلك المدة ستموت فجأة، ماذا ستفعل عندئذ؟

أمهلنا بعض الوقت للتفكير.

ضحكت قائلاً: إنه السؤال نفسه ولا يحتاج لمزيد من التفكير.

راحوا يفكرون فقاطعتهم وقلت: هل ستواصلون المجيء إلى المدرسة؟

بالطبع لا.

إذا كانت فرصتكم فى العيش على قيد الحياة محدودة فهل ستتقدمون للحصول علي وظيفة؟

بالطبع لا.

راح الكثير منهم يعبر مرة أخرى عن رغبته فى السفر بينما قرر آخرون البقاء وتمضية الوقت مع عائلاتهم وقال عدد لا بأس به بأنهم سيفرطون فى ممارسة الجنس وأعلنت واحدة عن رغبتها فى أن يكون لها طفل لكن بعضهم اعترض على رغبتها تلك

لأن الطفل سرعان ما سيصبح بلا أم غير أن آخرين وقفوا إلى صفها وأيدوا فكرتها، أما القليلون فقالوا بأنهم سيتعلمون التحليق فى الهواء وفى اليوم الأخير سيقفزون بالمظلة وقال أحدهم بأنه سيمشى فى اليوم الأخير فوق جناح طائرة متحركة لينتهى نهاية مأساوية وفى الأخير قال اثنان بأنهما سيقضيان أيامهما الأخيرة فى المستشفى أملاً فى الشفاء.

عندما بدأت ردود الأفعال والإجابات تتوقف سأل واحد من الطلبة باهتمام شديد: وما الهدف من مثل هذا السؤال؟

فكرت لحظة ثم هززت كتفى قائلاً: لمجرد اللهو والمزاح.

بدا أنه اقتنع بإجابتى فسأل شخص آخر قائلاً: وماذا لو كان الأمر مختلفًا بمعنى أننى امتلكت كل تلك النقود دون أن أعانى من أى مرض؟

قلت: ليس شيئًا سيئًا.

لا شيء؟

قد أخرج لأتناول مزيداً من الطعام فأنا لا أجيد طهى الطعام وإذا امتلكت مزيداً من النقود فسوف أشترى أرضًا.

رفعت امرأة يدها بخجل فنظرت إليها وأومأت لها برأسى ثم قالت بهدوء: ألا تعتقد عندئذ أنه بمقدورك شراء سترة جديدة تكون مناسبة لك؟

وأضاف آخر: ولتفعل شيئًا بخصوص تلك القمصان التى ترتديها، من أين تشترى تلك القمصان؟

حسنًا، فى الحقيقة.......

اتفقوا جميعًا على شراء ملابس حديثة من أجلى فى حال امتلاكهم النقود وتحدثوا فى كُل التفاصيل التى تجعلنى فى النهاية لائقًا من حيث المظهر ثم سأل أحدهم: وماذا لو أنك ستعيش سنة واحدة فقط؟

أجبت: سوف أكتب بلا توقف فبداخلى قائمة طويلة من الأشياء التى ينبغى كتابتها ولا أريد أن أموت دون الانتهاء من كتابتها.

هل ستقوم بعمل شيء خاص فى اليوم الأخير؟

أجبت قائلاً: أووه، سأطوق نفسى بحزام ناسف وأسارع إلى أقرب سد أو خزان وذلك أقل ما يمكننى عمله للنهر ولأسماك السلمون.

سألتنى امرأة أثناء إحدى محاضراتى الأخيرة عن ما يجب أن تفعله مع ابنها ذى الخمسة عشر عامًا والذى هو على الرغم من أنه شخص جميل ورائع فإنه يكره المدرسة ويكره التدبير والثقافة وقالت بأنها لا ترغب فى إجباره على العمل ولقد بذلت أوقاتًا عصيبة من أجل إقناع نفسها بضرورة حثه على البقاء فى المدرسة.

عجزت عن التفكير ولم أستطع أفضل من القول: إنه لموقف صعب حقًا، أنت تريدين تعليم الأولاد كيفية تحمل المسئولية ولكن المسئولية طبقًا لثقافتنا هى الذهاب إلى المدرسة والحصول على وظيفة وكيفية أن تكون عبدًا ولكن كيف تستطيعين تعريف المسئولية وتعليمها للأولاد فى ظل كل تلك القيود والمعوقات؟ أنا لا أعرف!!!

تنفست بعمق وقبل أن أتمكن من الاستمرار ظهرت امرأة أخرى من بين الحضور وكانت هى صديقتى القديمة "كارولين رافينسبيرجر" ثم تساءلت عما إذا كان بمقدورها المحاولة رغم القيود.

أومأت برأسى فقالت: أحد أهم الأشياء التى يمكننا القيام بها هو مساعدة الشباب لمعرفة طريقهم الصحيح والذى يستطيعون من خلاله أن يكونوا فى خدمة شيء أكبر من ذواتهم، إن السبب الوحيد الذى يجعل الأطفال فى العادة يذهبون إلى المدارس والكليات هو الرغبة الأزلية فى التحرك إلى الأمام لكننا نفشل فى تعليم أطفالنا العمل على خدمة شيء أكبر من ذواتهم مما قد يقودهم إلى حياة سعيدة

ومرحة ويؤدى بهم إلى الشعور بالرضا وإلى العيش فى ظل حياة ثرية وبيئة طبيعية.

نظرت المرأة إليها باهتمام كما فعل كثير من الموجودين فى الحجرة فاستطردت "كارولين" قائلة: كل ذلك يبدأ بالسؤال عن أكبر المشاكل وأهمها التى أستطيع القيام بحلها باستخدام مواهبى ومهاراتى وحتى يمكننى الإجابة بشكل مبدئى على ذلك السؤال يجب أن أبدأ بتحديد المسار المناسب والبسيط.

ذلك ما جعلنى أفكر فى ما كان فلاسفة الإغريق يطلقون عليه فلسفة السعادة لكننى أعتقد -إذا التزمنا مزيداً من الدقة- بأنه التوافق والتطابق وعندئذ يمكن طرح السؤال التالى: كيف تتوافق أفعالك مع مواهبك؟ وكيف تتوافق مع شخصيتك؟

إن مفهومى لذلك هو أننا بعد الموت نعيش مئات المرات التى نتعامل فيها كما كنا نتعامل مع الآخرين قبل أن نموت، وعندما يأتى دورنا فى البعث من جديد فإننا نقرر من سيتولون رعايتنا ويصبحون آباءً وأمهات لنا وكذلك نقرر ما ستكون عليه مواهبنا وأهدافنا، وقبل أن نأمل فى العودة إلى هذا الجانب فإننا نتناول شرابًا ما يجعلنا ننسى كل شيء وبعد أن نصبح أحياء مرة أخرى يصبح لزامًا علينا أن نتذكر مواهبنا وقدراتنا والمهام التى ينبغى القيام بها ويتحتم علينا إدراكها بمساعدة الأرواح التى تقوم بتوجيهنا أو بتوجيه من الأرواح التى تحرسنا وهكذا فإن فلسفة السعادة التى تبناها فلاسفة الإغريق تعنى ببساطة أن تمتلك روحًا حارسة تكون بمثابة الوصى.

أضافت "كارولين": بعد انتهائى من الجامعة والدراسات العليا لم أكن أعرف شيئًا عما يجب أن أفعله بحياتى ففكرت أن أدرس القانون على أمل مزيد من التقدم لكننى فشلت فى البداية وربما كان ذلك شيئًا جيداً لأننى لو لم أفشل لكان من المحتمل أن أصبح موضوعًا شيقًا للمزاح غير أننى بعد ذلك استشعرت ضرورة الالتحاق بمدرسة القانون بهدف تحقيق رغبتى فى العمل فى مجال حماية البيئة وعندئذ حققت نجاحًا ملحوظًا، لقد كنت الشخص نفسه فى المرتين لكن غياب الهدف فى المرة الأولى هو ما أدى إلى الفشل بينما كان الحافز فى المرة الثانية هو سبب النجاح، عندما

يعرف الناس نوع المشكلة التى يرغبون فى حلها ويستخدمون فى ذلك مهاراتهم التى يتفردون بها فإنهم غالبًا ما يعرفون ما يحتاجونه للقيام بالخطوة التالية.

طلبوا منى إلقاء محاضرة لطلبة المرحلة الثامنة حتى المرحلة الثانية عشرة فاعترانى الخوف أكثر مما كان يحدث لى فى السجن وأخبرت الأولاد عن مخاوفى وعن أسبابها قائلاً: عندما كنت فى السنوات الأولى من التعليم الابتدائى والتعليم الثانوى وكانوا يجبروننى على حضور كل الدروس كنت أجلس فى آخر صف من الفصل واضعًا يدى فى جيوبى.

ثم طلبت منهم أن أرى أياديهم فرفعوها عاليًا وهم يضحكون.

بذلت مجهودًا كبيرًا فى التفكير فيما يمكننى قوله لهم وفى كيفية شرح وتوضيح القاعدة الأولى التى يجب مراعاتها أثناء الكتابة أو الحديث وفكرت بشكل خاص فيما يمكننى أن أقدمه لهم ويكون مساويًا للوقت الذى منحونى إياه وفى النهاية قررت كالعادة أننى يجب أن أقول الحقيقة عندما يفشل الجميع فقلت لنفسى بأننى سأخبرهم عن بعض الأشياء التى كنت أرغب أن يخبرنى بها أحد عندما كنت فى مثل أعمارهم وعندئذ قلت: أعتقد أن أول شيء كنت أرغب فى معرفته عن طريق شخص ما هو القول بأن كراهية المدرسة شيء عادى وأنه من الجنون حقًا أن تتوقع جلوس الناس بلا حراك وهم يتظاهرون بالاهتمام والأمر الأكثر جنونًا هو أن تتوقع تعاطفهم وحبهم، يبتهج الأولاد بعد فترة من الخمود فهل المديرين باستثنائى أنا يعتقدون أو يظنون فى أسباب مختلفة.

الشيء الثانى الذى تمنيت أن يخبرنى به أى شخص هو أن الأشياء ستمضى إلى الأفضل إذا قام كل فرد بواجبه، قال أحد الطلبة فى حفل تخرجنا من المدرسة العليا بأننا فى يوم ما سنشتاق كثيرًا لأيامنا هذه وسوف ننظر لها على أنها أفضل

أيام حياتنا وكان أول شيء فكرت فيه حينئذ أن المرحلة كلها سوف تتلاشى وتتحول إلى آلاف من الذكريات المتناثرة لكننى بعد ذلك مباشرة فكرت لو أن ذلك هو ما سيحدث بالفعل لسارعت بقتل نفسى لكن الأشياء تتجه للأفضل، كانت سنوات العشرين صعبة وربما كريهة مثل سنوات المدرسة لأنك تستنزف وقتًا طويلاً حتى يمكنك الشفاء منها لتبدأ بعد ذلك فى الفهم والتفكير والإحساس بنفسك وهى سنوات صعبة أيضًا لأنك تتعلم خلالها كيفية التفكير وتكتشف حينها أنك جزء من العالم، أما سنوات الثلاثينيات فهى سنوات ممتعة لأننى أدرك خلالها من أكون وتكتمل أثناءها فكرة معرفة الذات وأبدأ فعلاً فى معايشة نفسى والشيء نفسه بالنسبة لسنوات الأربعينيات فهى أيضًا سنوات ممتعة وعظيمة.

الشيء الثالث الذى كنت أتمنى أن يخبرنى به شخص ما هو ألا ينبغى أن أكون ضعيفًا وأنه يجب أن أمضى فى طريقى لتحقيق النجاح وأن أطلب من الآخرين إفساح الطريق.

أدركت من نظراتهم المرتسمة فوق وجوههم أنهم فهموا كلامى على أنه نصيحة فأخبرتهم بأن آخر ما قالته لى أمى أثناء صعودى للطائرة المتجهة إلى كاليفورنيا فى فترة الصيف قبل انتقالى إلى المرحلة النهائية من المدرسة الثانوية هو قولها: (تأكد أنها فى الثامنة عشر من عمرها)!!

ثم قلت لهم: إن ما قالته أمى كان أفضل شيء تقوله لشاب خجول جدًا ليست له خبرة مع الفتيات مثلى مثل كثير من أصدقائى وربما مثل جميع أصدقائى، تمنيت أن أخبرهم بشيء آخر لكننى لم أفعل ربما لأن اللغة لم تسعفنى ولقد ندمت بسبب خجلى أكثر مما ندمت على تهورى وطيشى فى بعض الأحيان، كانت الأحداث التى لم يتم إنجازها أكثر من تلك التى حدثت بالفعل ولم يحدث الندم أبدًا مع الانقياد لقلبى وعواطفى ومع الالتزام بالمودة والألفة مهما ترتب على ذلك من ألم لكن – بسبب الخوف – كان الندم يجتاحنى عندما كنت لا أشارك فى الوقت الذى يجب أن أشارك فيه وكذلك

لم أكن أنصرف فى الوقت المناسب، لقد اعترانى الندم عندما تملكنى الخوف وتمنيت لو أننى أخبرتهم أن ذلك ما حدث بالفعل وليس مع امرأة وإنما مع كل شيء.

حكيت لهم عن الوثب العالى وقلت لهم إننى كنت أخاف التنافس فى مسابقات الوثب العالى -رغم حبى الدائم له- حتى أصبحت فى السنة الثانية من دراستى الجامعية حيث لاحظنى المدرب وأنا أقفز حول الملعب وأقنعنى بضرورة الاشتراك فى المنافسة وفى النهاية استطعت تحطيم الرقم القياسى وحصلت على البطولة لكننى بعد التخرج أصبحت خارج المنافسة وحين تملكنى خوف البداية من جديد أضفت قائلاً لهم: كم كان جيداً وجميلاً كل ما استطعت الحصول عليه والقيام به.

ثم استطردت قائلاً: أخذت عهداً على نفسى بأن أفعل ما أريد وما أستطيع القيام به فى الوقت المناسب وقبل فوات الأوان.

قلت لهم أيضًا: أحيانًا أفكر بأن الجبن والخجل يعملان على تدمير كوكب الأرض مثلهما مثل الجشع والحياة العسكرية والضغينة، ولقد عرفت الآن أن تلك الأشياء جميعها هى أشكال مختلفة للمشكة نفسها، إن أصحاب النفوذ وأولئك الذين يملكون القوة لا يقدرون على ارتكاب الأعمال الوحشية الكثيرة والتى يفعلونها بطريقة روتينية إذا لم نكن نحن فى الأساس مدربين على الخضوع والاستسلام، إنهم يقتلون كوكب الأرض وعندما يحين موعد موتى لا أرغب فى النظر للخلف وفيما فعلت وإنما أتمنى لو أننى قمت بعمل المزيد ولو أننى كنت راديكاليًا وميالاً إلى التغيير أكثر وأكثر اشتباكًا مع الواقع، إننى أريد أن أحيا حياتى وكأنها حياة مهمة فعلاً، أن أعيش حياتى وكأننى أحيا بالفعل، أن أعيش حياتى وكأنها شيء حقيقى.

أخذت نفسًا عميقًا ثم استطردت: وأريد أن أعتذر كما ينبغى للأجيال السابقة أن تعتذر لى عن الخراب الذى يسود العالم والذى نصنعه نحن ونتركه لكم، إن جيلى من الناس قدم لكم النماذج والبنية الاجتماعية وفرض عليكم طريقة العيش والتفكير وصنعوا أشياءً تعمل على تلوث البيئة ودمار الكرة الأرضية، لا شك أنكم ستعانون من كل ما نصنعه نحن وأنا آسف جداً.

ما جعلنى أنتقل إلى الشيء الثانى هو أننى كنت أرغب لو أن شخصًا ما كان قد قال لى ذلك، عندئذ كان سينقذنى من عناء وقلق سنوات طويلة، أنتم لستم بمجانين وإنما الثقافة هى المجنونة وإذا بدت لكم كذلك لدرجة أن ثقافتنا تعمل على تعرية بيئة الأرض وتفكيكها بالإضافة إلى أننا نبدى اهتمامًا أقل لأمر البيئة من اهتمامنا بممارسة الرياضة والعمل على احترافها مما يؤكد أنها ثقافة مجنونة، وإذا بدت لكم ثقافتنا غريبة وبلا معنى وتعلى من قيمة النقود والناتج الاقتصادى على حساب الحياة الإنسانية وغير الإنسانية فذلك لأنها بلا معنى، وإذا رأيتم أنها ثقافة مهووسة يقضى فيها معظم الناس أكثر أوقاتهم وساعات عملهم فى عمل أشياء من الأفضل عدم القيام بها فذلك لأنها ثقافة مهووسة، ليس من الخطأ أن تفكروا فى مثل تلك الأشياء وإنما ذلك يعنى فى الحقيقة أنكم ما زلتم أحياء.

أتمنى أيضًا لو أن أحدهم قد سألنى مئات المرات عما إذا كان مناسبًا أن يكون المرء سعيداً أو أن يعيش حياته بالطريقة نفسها التى يرغب فيها وهل يكون الأمر حسنًا إذا لم يحصل المرء على وظيفة أو إذا لم يعمل أبداً، هل هو شيء جميل أن تعرف الأسباب التى تجعلك سعيداً ثم تناضل من أجل تحقيقها وهل هو شيء حسن أن تكرس حياتك لاكتشاف نفسك.

انتهى وقت المحاضرة وبدأ الأولاد فى الهتاف واندفع بعضهم ناحية المنصة وتقدم ناحيتى ولد طويل ونحيل ثم سألنى بشغف: هل يعنى كل ذلك أننا لسنا مضطرين لعمل أى شيء لا نرغب فيه أو لا نريده؟ وهل يعنى ذلك أن كل شيء سيكون سهلاً؟

قلت: لا، سيكون الأمر صعبًا جداً، سوف ترتكبون ملايين الأخطاء وسوف تدفعون ثمن كل تلك الأخطاء بطريقة أو بأخرى وهذه هى الطريقة الوحيدة التى ستتعلمون من خلالها وربما هى الطريقة الوحيدة التى تعلمت أنا بها، أما الأجزاء الصعبة فستبقى هى أخطاؤكم الصعبة ولن تكون أخطاء خاصة بآخرين قد فرضوا أفكارهم عليكم لأسباب تتعلق بمدى ثقافتهم أو ربما بدون أسباب على الإطلاق، إن امتلاككم للأسباب ومسئولياتكم تجاهها هو ما يتسبب فى كل الفروق والاختلافات التى تسود العالم.

(إنه مصيرنا، إذا لم نمتلك الفرصة للتمرد والعيش بعبثية لم نجربها أبدًا من قبل)

"أرنو جروين"(إذا هم أملوا عليك ما تكتبه عليك أن تكتب بطريقة أخرى مختلفة)

"هل هو "برادبوري" أو "وليام كارولز" أو "خوان رامون" أول من قال هذه العبارة؟ لست أدري!!"

أهم التدريبات على الكتابة

قلت: إن القاعدة السادسة للكتابة مختلفة بعض الشيء، إنها تبين ولا تقول.

تحركت الأقلام فوق الورق فأضفت متسائلاً: كم واحد منكم صرخ أو هتف أو تهلل أثناء قراءته لكتاب ما؟

رفع عدد كبير أياديهم بما فيهم أولئك الذين أصابتهم الدهشة.

سألت: وما الكتب التى جعلتكم تصرخون؟

انخفضت الأيادى فقلت: وما ذلك الشيء الذى تصرخون من أجله؟ إن الكتب ليست أكثر من خربشة بالحبر فوق الورق ويحاول الكتاب إثارتنا والعمل على إضحاكنا أو التأثير فينا حتى البكاء وينجحون أحيانًا فى تغيير حياتنا، كيف يقومون بفعل ذلك؟

لم أتوقع سماع إجابة من أحد فأضفت قائلاً: وكيف تفعل الأفلام الشيء نفسه؟ أنت ترى مثلاً "بروس ويليز" وهو معلق فى أحد المنحدرات الصخرية فينتابك الخوف اعتقاداً منك بأنه سيموت لكنك تعرف الآن أنهم يضعون فراشًا من القطن تحته بحوالى خمسة أقدام وتعلم أيضًا بأن "بروس ويليز" لن يموت وأنه يعمل فى سبعة أفلام أخرى فى هذا العام نفسه لكنك ما زلت خائفًا وما زال القلق يسيطر عليك.. كيف يحدث ذلك إذن؟

قبل الإجابة على هذا السؤال نحتاج للدخول فى جزء آخر من اللغز والتفكير بعمق أكثر والنظر بعين الاعتبار إلى أفضل مدرس ألا وهو التجربة، لقد تعلمت كثيراً

من أخطائى أكثر من الآخرين ولكن بالتحديد عند قراءتك لكتاب أو عندما تشاهد فيلماً سينمائياً فأنت لا تختبر أو تجرب ذلك بنفسك وإنما تفعل ذلك بديلاً عن الآخرين من خلال المشاركة بالقراءة أو بالمشاهدة، ولذلك فكيف أصابك صانعو الفيلم بالخوف عندما علقوا "بروس ويليز" فى المنحدر؟ وكيف جعلوك تتوحد معه وكأن كلاكما شخص واحد؟ لقد نجحوا فى إجبارك على المشاركة فى تجربته فكيف فعلوا ذلك؟ لقد رسموا تلك التجارب بطريقتهم وبدقة شديدة وكأنها حقيقة وجعلوك تشعر وكأنك مكانه أو وكأنه ليس "بروس ويليز" وإنما هو أنت.

كانوا معى فى كل ما قلت فأضفت قائلاً: دعونا نقوم بتدريب، فلنفترض أننى من كوكب المريخ.

لم يعترضوا على الافتراض ولم تكن لديهم أى مشكلة فقلت: نحن سكان كوكب المريخ ليست لدينا أية عواطف من أى نوع، إننا نشعر بالأشياء نفسها التى تشعرون بها ولكنه شعور مادى فقط ولا يحمل أى قدر من العواطف، أستطيع أن أشعر بالضغط فوق جلدى لكننى لا أشعر بالحب والآن ومن أجل أن تساعدونى فى فهم طبيعتكم أنتم الذين تعيشون فوق كوكب الأرض فإننى أرغب فى أن تخبرونى على سبيل المثال عن الغضب، ماذا يشبه شعور الغضب؟

ساد صمت لبضع لحظات تطوع بعدها شخص ما وقال: إنه يشعرنى بالجنون.

لم أفهم ذلك أيضاً.

حسناً، الغضب.

الشيء نفسه.

قال آخر: إنه يشعرنى وكأننى على وشك الانفجار.

وكأنك تناولت كثيراً من الطعام أو وكأن جلد بشرتك قد تمدد مثل البالونة أو وكأنك سألت سؤالاً فى حين لم يتبق سوى ثلاث دقائق على الانصراف.

قال شخص ثالث: إن الغضب يدفعني للإحساس بالرغبة في تسديد اللكمات لشخص ما.

وماذا يشبه ذلك الإحساس؟ وأين بالتحديد تشعر به؟ وبأي شيء يجعلك الغضب تشعر داخل جسدك؟ وفي رقبتك وفي أكتافك وخلف مقلة عينيك وفيما وراء ركبتيك؟

عرفت من عيونهم أنهم فهموا ما أرمي إليه ثم قالت امرأة: إن أكتافي محدودبة والعضلات في الأعلى مشدودة.

قال آخر: إنني أطبق فمي وتبدأ أسناني في الاحتكاك بعضها بالبعض.

وقال ثالث: تنحرف عيناي وكأنني أصبت بالحول وأشعر بثقل ما خلفهما.

وأضاف رابع: يتصبب جسدي بالعرق.

سألت قائلاً: أين؟

تتساقط قطرات العرق من كل أجزاء جسدي.

قلت: أوه، كل ذلك جيد وأستطيع أن أتفهمه.

إننا نصنع طريقنا القادم من خلال الخوف ثم من خلال الحب.

طلبوا مني تحديد نوع الحب لأنهم يقولون بأن شعور الوقوع في الحب في أول الأمر مختلف عنه بعد فترة من الوقت وهل يكون ذلك الحب أقوى من حب الوالدين؟ وهل حب الوالدين أقوى من حب الكلب؟ وهل حب الكلب أقوى من حب الوطن؟

شعرت بسعادة لأنهم أجبروني على الدقة في تعريفي فقلت: إن الحب للرفيق أو الرفيقة يكون في المرحلة التي تتعرفون فيها على العواطف وتبادل المجاملات ولكنكم لا تستقرون على شكل نهائي للعلاقة.

قال أحدهم وقد نسوا كل شيء تعلمناه وتناقشنا حوله حتى الآن: إنه الإحساس بالسير فوق السحاب.

*هل تستطيع أن تفعل ذلك فوق الأرض؟ نحن لا نستطيع فى كوكب المريخ، أعتقد أنه كانت توجد بعض السحب فى السماء، دعنا نخرج من هنا لتريني.

*إنه احساس مثل كل شيء عظيم فى العالم.

*وماذا يشبه ذلك الإحساس؟

أدركت مرة أخرى ما يدور فى عيونهم، إنهم يصفون الأحاسيس المادية والجسدية وأحيانًا الشذوذ على أنها أشياء يجب القبول بها باعتبارها أشياء خاصة مما جعلنى أشعر بالخجل كما أنهم يصفون أحيانًا الحب بكلمات ومصطلحات متطابقة مع ما يمكن أن نصف به الفزع والخوف.

قلت: دعونا نتحدث بطريقة أخرى أو فلنذهب فى اتجاه آخر، أريدكم أن تصفوا لى الغضب مرة أخرى ولكننى أريدكم الآن أن تتخيلوا أنكم تقومون بعمل فيلم سينمائى بما يعنى أنكم لا تستطيعون الدخول إلى أعماق الشخص لتصفوا إحساسه بالغضب وإنما عليكم إبراز أفعاله من الخارج.

نظروا ناحيتى باندهاش فضربت بيدى فوق المكتب ثم بصقت وقلت: اللعنة!

أصابنى العبوس ورحت أمشى حول منتصف الحجرة فتراجعوا فى أماكنهم وشعروا بالندم الشديد رغم عدم تأكدهم من الخطأ الذى ارتكبوه.

قلت: لا، ذلك ما أعنيه، العمل على إبراز ردود أفعالهم من الخارج، لقد كنت على علاقة بامرأة منذ سنوات مضت وكانت تتشاجر معى بشكل ثابت، لم يكن الأمر مقلقًا بما فيه الكفاية إلا إذا كانت امرأة مجنونة بالفعل، كيف كانت تظهر ذلك؟ تعلمت بسرعة بأننى أعانى من ورطة وبأننى أواجه مشكلة كبيرة حين كانت تعض شفتها السفلى وتهز رأسها وحين كانت تتجه ببصرها إلى الجانب الآخر.

قال شخص ما: عندما أصاب بالجنون أصبح هادئًا ويصير صوتى قويًا.

وقال آخر: يبدأ جسدى كله فى الارتعاش وأبدأ فى ضم قبضتى يدى.

استطردوا فى التعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم ووصف ما ينتابهم فى اللحظة التى يصابون فيها بالجنون ولقد لاحظت اختلافًا مثيرًا بين طلبتى فى السجن وطلبتى فى الجامعة، كانت الأمثلة التى يختارها طلبة السجن أمثلة علنية وأكثر صراحة، كانوا يلقون بالمقاعد فى مقابل النظرات العدائية لكننى لم أنتهِ إلى فكرة بعينها ولم أصل إلى انطباع معين، لقد لاحظت ذلك فقط.

تمنيت أثناء أحد التدريبات أن ينتبه طلبتى إلى التفاصيل فالاهتمام الكامل بالتفاصيل يعد درسًا أساسيًا من دروس الحياة (جرب مثلاً قيادة السيارة وسط زحام المرور الشديد بدون أن تدرك التفاصيل المهمة وغير المهمة) وربما يكون درس الكتابة الأساسى هو أنك تحتاج بشكل ثابت أن تختار التفاصيل التى ينبغى عليك الكتابة فيها حتى تتمكن من جذب القارئ وأهمية الانتباه إلى التفاصيل التى يجب أن تتجاهلها؛ كى لا يصاب القارئ بالملل، إن معظم الناس مثلاً يقضون حاجتهم مرة واحدة فى اليوم على الأقل وإذن فلا يوجد سبب قهرى لكى توضح ذلك للقراء.

إننى أطلب من طلبتى أن يكتبوا وصفًا لشيء ما أو شخص ما، أريد لهم أن يتحدثوا عن حجرة مظلمة، عن قليل من الضوء، عن آلة موسيقية وعن أشياء أخرى تافهة وفى حقيقة الأمر أننى أحب أن أقول إن تلك الأشياء هى نتاج طبيعى لتفكير عميق تساعدهم فى التنافس على الكتابة بأفضل طريقة ممكنة، طلبت منهم أن يكتبوا عن كل الحواس الخمس وهل يستطيعون التعبير عنها فى شكل حبكة روائية أم لا.

بدءوا فى الكتابة وفى النهاية كانت القصص التى كتبوها جيدة فشعرت بالسرور.

يقودنا ذلك إلى نتيجة "ستيفن كينج" الطبيعية وهى عدم تحديد قاعدة للكتابة وإنما يمكن القول بأنها جاءت على هذا النحو فقط، إن "ستيفن كينج" هو واحد من أفضل من تبنوا فكرة التحديد والدقة والوضوح فى التعبير بديلاً عن التفاصيل المجردة

ولقد استخدم تلك التفاصيل الواضحة فى جذب القارئ، إنه نادرًا ما استخدم أى سيارة قديمة فى كتبه إلا إذا كانت ماركة سيتروين سيدان كما أن أى رجل أعمال متمرس لا يذهب لتناول الغذاء فى أى مطعم شهير إلا إذا كان أحد فروع مطاعم سالم.

يحدث أحيانًا أن يقول الطلبة ردًا على تلك النتيجة: لكننا نرغب أن تكون كتاباتنا عالمية وشاملة، نحن نريد لها أن تصل إلى كل الناس.

أقول لهم فى تلك الحالة إنه أولاً يستحيل أن تصل كلماتكم إلى كل الناس وثانيًا إن أفضل الطرق للوصول إلى أكبر عدد من القراء هو أن تشاركهم مرة ثانية فيما تكتبه وأفضل الطرق لفعل ذلك أن ترسم لهم صورًا يتمسكون بها ويرفضون التخلى عنها كأن تقول مثلاً: (كنت جالسًا فى المقهى الجميل مع "لورنس" وأنا أحدق بشغف فى ساقى "باولين".

هناك نقطة أعمق لفعل ذلك، العمل على تحديد كل شيء، إن أكبر فشل فى ثقافتنا هو الاعتقاد العام بإمكانية جعل أى شيء عالميًا وشاملاً، إن ثقافتنا تتبنى طريقة العيش نفسها فى أجمل الأماكن كما تتبناها نفسها فى سياتل وميامى، نحن نعتقد بأنه يمكن تلقين الطلبة دروسًا وقواعد واختبارات ثابتة يطبقونها فى كل أرجاء العالم، إننا نحول حياة الأشجار البرية إلى شيء يمكن قياسه بالمعادلات الرياضية ونحول الأسماك إلى أسماك عاجزة عن الحركة ونحول الجزر إلى مجرد مجموعة من العصى رغم أن كل قطعة من الجزر تختلف عن الأخرى كما أن كل سمكة تختلف عن السمكة الأخرى وكل شجرة لا تشبه أى شجرة أخرى وهكذا فإن كل طالب يختلف عن الطالب الآخر وكل مكان يختلف عن أى مكان آخر وإذا كان علينا أن نتذكر ما يجب أن تكون عليه الإنسانية وكان علينا أن نأمل فى بداية قوية للحياة فى مكان ما حيث نتمتع بالمؤازرة فلا بد أن نتذكر بأن التحديد والوضوح والتميز هو كل شيء وهو الشيء الوحيد الذى نمتلكه.

فى هذه اللحظة أنا لا أكتب كتابة تجريدية أو نظرية ولكننى أكتب تلك الكلمات المحددة فوق تلك القطعة المحددة من الورق مستخدماً ذلك القلم المحدد وأنا راقد فوق ذلك السرير المحدد بالقرب من تلك القطعة المحددة، لا شيء بمعزل عن الخصوصية وكل شيء يستلزم الدقة والآن فإننى أستطيع بالتأكيد أن أبتكر أفكاراً مجردة للكتابة أو عن الإنسانية أو المدن أو الطبيعة أو العالم لكنها أفكار غير حقيقية، إن الشيء الحقيقى هو الشيء المباشر والحاضر والخاص والمتميز، تلك الأشياء هى الحقيقة فى الحياة والحقيقة فى الكتابة والبدء فى الكتابة حينئذ يصبح شيئًا جميلاً.

لقد وصف طلبتى الآلات الموسيقية وصفًا دقيقًا فى الأماكن التى يعيشون فيها، الهارمونيكا المهربة داخل زنزانة السجن والبيانو فى الكنيسة والكمان فى الدور الأرضى من بيت الطفولة ثم طلبت منهم اصطحابى إلى الشاطئ ولم أبال وقتها بأى شيء لكننى قلت: إلا إذا كان جو الشاطئ حاراً فإننى أريد أن أشعر بألم فى قدمى عندما أسمعكم تقرءون القصة بصوت عال، وإذا كان الشاطئ فى جنوب كاليفورنيا فإننى أتمنى أن أشم رائحة زيت جوز الهند أما إذا كان فى ألاسكا فإننى أرغب فى أن أشم رائحة السمك الميت وعندئذ راحوا يكتبون فكانت إبداعاتهم جيدة، لقد برعوا فى وصف الشواطئ التى شاهدوها وتلك التى جلسوا فوق ترابها والتى لعبوا فيها كرة القدم.

قلت: الكتابة ليست عملية شاقة، عليكم فقط أن تتذكروا الأماكن التى كنتم فيها والأشياء التى قمتم بعملها ثم محاولة وصف ذلك فى كلمات، إننى حقًا أريد أن أسمعكم.

راق لهم الأمر وبدا أنهم أحبوا سماع ذلك وكانت لدى كل منهم بالتأكيد قصص وحكايات يمكن سردها وأشياء يمكن قولها.

كان يومًا أثيرًا لدي عندما دخلت الفصل مبكرًا فى الأسبوع الثانى من الدراسة، كان اثنان من الطلبة قد حضروا من فصول أخرى قمت فيها بالتدريس سابقًا، أما الطلبة الجدد فكانوا يتوقعون حدوث شيء ما، كنت قد أحضرت معى جهازًا لتشغيل الاسطوانات وعدداً لا بأس به من الاسطوانات وكمية من الكتب ثم قلت: عندما أتوجه إليكم بسؤال فإننى عادة لا أنتظر إجابة محددة وإنما أريد فقط معرفة ما تفكرون به لكننى سأسألكم سؤالاً الآن وأطمع فى التواصل، هل أنتم جاهزون؟

هزوا جميعًا رءوسهم بالموافقة فقلت: ما الشيء الجذاب فى رقصة الروك آند رول؟

أصابتهم الدهشة من السؤال وراحوا يحاولون قراءة أفكارى لمعرفة ما أعنيه بالسؤال بدلاً من التفكير فى إجابات خاصة بهم.

سألت: هل هم الرجال ذوى الشعر الطويل بسراويلهم الجلدية الضيقة؟ أم هى تلك الأساور الخضراء المتلألئة؟ وماذا عن المشي فوق تقيؤ شخص ما؟ ربما يكون هو الاقتناع بفكرة الأغنية.

وافقنا جميعًا على أن لا شيء من ذلك كله هو الجذاب فى الرقصة فقلت متسائلاً: فما الشيء الجذاب إذن؟ هل هى تلك القوة التى يتمتع بها الراقصون أم هى العاطفة وذلك الانفعال الذى ينتابهم أم أنه ذلك النشاط المفعم بالحماسة؟

عندما حطم "جيمى هندريكس" الجيتار لم يقتلع كل وتر بحذر شديد ولكنه حطمه إلى قطع صغيرة وعندما راح "بيت تاونسيند" يدور فى الهواء كالطاحونة لم يهتز خصره وإنما نجح فى تجميع جسده كله داخل خصره وأيضًا حين دمر "كيت مون" الطبلة فإنه لم يقلبها فى يده بعناية.

انحنيت بدقة فوق مقعد المكتب فارتطم بالأرض وبدلاً من أن يتحطم سحبته وقذفت به فى حركة دائرية إلى السقف لكنه عاد وارتطم بالأرض.

قلت: مئات من الناس يستطيعون الكتابة، الرجل العجوز الذى يشعر بالأسى والمرارة، المرأة العجوز التى تقتلها الوحدة، لقد سئم الرجل العجوز السعيد والمرأة

العجوز السعيدة من الحياة لكنهما يشعران بالرضا تجاهها، الرجل الشاب المبتهج والمفعم بالنشوة والفتاة الشابة المرحة الطروب، المرأة الغاضبة، كلهم لديهم الكثير من قوة الآراء والمعتقدات وكلهم موجودون بداخل كل منا ومن سوء الحظ أن الشيء الوحيد غير القادر على الكتابة هو الشيء الذى نرتديه فوق وجوهنا طوال الوقت، ذلك الشيء المهذب اللطيف والرقيق، ذلك الشيء الذى ينشد القبول والاستحسان ويرغب فى اكتساب درجة أو منزلة معينة أو هو الإنسان الذى يقف عائقًا ضد أى رأى صائب وقوى وضد أى نزوة أو حافز، ذلك الشخص لا يستطيع أن يكتب سوى التفاهات.

توقفت لحظة لالتقاط أنفاسى ثم استطردت قائلاً: إن الكتابة فى الحقيقة شيء يسير وفى غاية السهولة، عليك فقط بوضع الورقة البيضاء أمامك والسير فوقها بالقلم وكل شيء بعد ذلك لا يعدو كونه تكنيكًا فنيًا وإذا لم تكن راغبًا فى عمل ذلك فإنك تستطيع (كما كتب "جين فاولر") أن تحدق فى قطعة بيضاء من الورق وخالية من الكلمات حتى تتكون قطرات من الدم فوق جبهتك.

سارعت بالتقاط قطعة من الطباشير وكتبت بحروف كبيرة وواضحة: (هيا بنا!!).

ثم مضيت ببطء وكبرياء نحو أداة تشغيل الاسطوانات وقمت بتشغيلها فانبعثت من الاسطوانة موسيقى "تومى بولينز" وعدت مرة أخرى للإمساك بالطباشير حيث كتبت: (لا، حقًا دعونا نبدأ!!).

توجهت مرة ثانية إلى مشغل الاسطوانات لتشغيله من جديد ثم كتبت فوق السبورة: (لا، دعونا نبدأ بالفعل!!).

قمت بتخفيض صوت مشغل الاسطوانات حتى يتمكنوا من سماعى ثم بدأت فى القراءة من كتاب (ناسك الصحراء) للكاتب "إدوارد آبى": (لا تصعد إلى سيارتك فى

يونيو القادم وتنطلق إلى الوادى الضيق على أمل أن ترى بعضًا من تلك التى حاولت أن أكتب عنها فى تلك الصفحات، لا تستطيع فى مثل هذه الحالة أن ترى أى شيء من السيارة وإنما عليك بالخروج من ذلك الشيء الملعون وتبدأ فى السير على قدميك ومن الأفضل فيما بعد أن تزحف على يديك وركبتيك فوق رمال الأحجار ومن خلال أشواك الشجيرات وأوراق الصبار وعندما تبدأ آثار الدماء فى الظهور والانتشار فوق يديك وبعض أجزاء من جسدك فإنك عندئذ سترى شيئًا ما، ربما تستطيع رؤية شيء ما وربما لا تستطيع!! أما فى الحالة الثانية فإن معظم الأشياء التى أكتب عنها فى هذا الكتاب قد انتهت بالفعل أو أنها فى الطريق إلى الزوال، ذلك ليس مرشداً سياحيًا أو دليلاً للسفر وإنما هو مجرد عمل يدعو للرثاء أو مجرد نصب تذكارى، أنت تمسك تمثالاً فى يديك أو صخرة دامية أفلا تلقى بها فوق قدميك وماذا ستخسر عندئذ؟

وضعت الكتاب جانبًا وتناولت كتابًا آخر بعنوان (Johnny got his gun) للكاتب "دالتون ترومبو" والذى يقول فيه: إذا كان رجال السياسة والوطنيين هم صناع الحرب وإذا وجدت البنادق لأجل تلك الحرب والقذائف من أجل إطلاقها والرجال لكى يموتوا فلن نكون نحن أولئك الرجال، لن نكون نحن الذين نزرع القمح لنصنع منه الطعام، نحن الذين نصنع الملابس ونصدر الصحف ونشيد المنازل والمعاول ونصنع السيارات والطائرات والدبابات والبنادق، أوه.. لسنا نحن الذين سيموتون، قد تكونون أنتم، أنتم الذين تحرضوننا على القتال، أنتم الذين تشجعوننا على الوقوف ضد بعضنا، أنتم الذين تجعلون عاملاً يقتل زميلاً له وإسكافيًا يقتل إسكافيًا آخر، أنتم الذين ترغمون إنسانًا - ليست لديه أية طموحات سوى العيش فى سلام - على التخلص من حياة إنسان آخر لا يتمنى هو الآخر سوى العيش فى سلام، تذكروا ذلك، تذكروا ذلك جيداً أيها الناس الذين تخططون للحرب وأنتم أيها الوطنيون تذكروا بأنكم صانعوا الكراهية وأنكم مخترعو الشعارات، تذكروا كل ذلك أكثر من أى شيء آخر فى حياتكم، إننا رجال السلام، نحن نعمل ولا نرغب فى القتال وإذا ما حاولتم القضاء على السلام الذى ننعم به أو فكرتم فى حرماننا من العمل أو حاولتم التفريق بيننا فلا بد أن تدركوا بأننا

نعرف تماماً ما سوف نعمله عندئذ وإذا ما رغبتم فى أن نجعل العالم آمناً من أجل الديمقراطية فإننا سنتعامل مع الأمر بجدية وسنعمل - بمساعدة الرب والمسيح - على تحقيق ذلك، سوف نستخدم البنادق التى تستخدمونها ضدنا لحماية حياتنا الخاصة والدفاع عنها بشتى الوسائل كما أن التهديد الذى يواجهنا لن يقع فى الجانب الآخر من المنطقة المهملة والمجردة من السلاح بدون موافقتنا وإنما من خلال حدودنا الموجودة هنا والتى نراها الآن ونعرفها وسوف نستخدم البنادق المحمولة فوق أيادينا، قدموا لنا الشعارات لنعمل على تحويلها إلى حقائق وانشدوا تراتيل المعركة وسنقوم نحن بفهمها والعمل على استمرارها بعد أن تتخلوا أنتم عنها، ليس واحداً أو عشرة وليس عشرة آلاف أو مليوناً أو عشرة ملايين ولا مئات الملايين ولكن بليوناً أو بليونيين منا أو كل شعوب العالم سوف نمتلك الشعارات والتراتيل والبنادق وسنستخدم كل ذلك وسوف نحيا، سنكون على قيد الحياة وسنمشى ونتحدث ونأكل ونغنى ونضحك ولن نفقد إحساسنا وسوف نحب وننجب أطفالاً فى هدوء وأمان وسلام وطبقًا للآداب العامة، أنتم تخططون للحرب، أنتم يا سادة البشرية تخططون للحرب وتشيرون إلى الطريق وسوف نشير نحن إلى البنادق.

أحياناً يجب أن أتوقف عن القراءة خاصة حين يتحشرج صوتى وتملأنى الانفعالات فقلت: إن الأمر لا يشكل إهانة وإنما من الممكن أن يكون شيئاً جميلاً.

قرأت وصفاً لـ"تيرى تيمبست وليامز" من رباعية الصحراء: الأرض، الصخور، الصحراء، إننى أسير حافى القدمين فوق الرمال المليئة بالأحجار والجسد يستجيب للجسد، كان الجو حاراً بشدة وقد أوشك باطن قدمى على الاحتراق فوق الصخرة المتصلبة وكان لا بد من الإسراع بخطواتى والسير بأسرع ما أستطيع مع مراعاة الحذر فى كل خطوة وكان أقصى ما استطعت رؤيته هو جنوب ذلك الوادى الضيق لقرية "أوته" الممتدة فى كل الاتجاهات، لم أكن أملك بوصلة ترشدنى وإنما فقط كنت قد أخذت عهداً على نفسى بمواصلة السير فى ذلك الطريق الوعر والمخيف، إن ما أخشاه وأتمناه أكثر من أى شيء فى العالم هو الولع والشغف، إننى أخشى الولع لأنه يجعلك

طبيعيًا ولا تملك السيطرة على مشاعرك ولا تستطيع التعرف على نفسك ويساعدك فى الخروج من ذاتيتك، إننى أرغب به لأن له لونًا مثل تلك الأرض الفضاء التى أمامى، إنه ليس شاحبًا وليس محايداً، إنه يكشف خفايا القلب.

تسلقت الصخرة الملساء وأنا أتشبث بجوانبها الأربع بكلتا يدى وقدمى فلفحتنى الحرارة وكان إحساسًا جيداً أن تشعر بالعرق والانخراط فى مواصلة التسلق وكان جميلاً أن أسكن جسدى الحيوانى.

قرأت لـ"سوزان جريفين" أوصافًا جميلة ومتقدة بالعاطفة فسارعت بإخراج الاسطوانة لتشغيل الموسيقى الافتتاحية لسيمفونية بيتهوفن الخامسة ثم توجهت صوب طباشير السبورة والتقطت واحدة طويلة وقذفتها نحو صندوق الطباشير؛ كى تتكسر إلى قطعتين وعندئذ أمسكت بواحدة منهما كانت هى الأطول وكتبت وأنا أضغط بقوة كبيرة على الطباشير متعمداً: دع الطفل يخرج من المرحاض.

استدرت وألقيت بما تبقى فى يدى من الطباشير فوق الحائط الخلفى ثم أمسكت مزيداً من الطباشير وألقيت به فى كل مكان بالفصل بكل ما استطعت من قوة، انتشر الطباشير فوق كل الجدران فكتبت: حرروا الحيوان واطلقوا عنانه.

وكتبت أيضًا: منْ أنتم؟ فلتستمتعوا بوقتكم.. دعونا نمضى..

ثم رميت بعيداً كل ما تبقى من الطباشير.

خفتت حدة الموسيقى وتساقطت قطرات من العرق من جدائل الشعر حتى استقرت فوق وجهى، وضعت الاسطوانة فى النهاية وطلبت من أحدهم أن يطفئ النور فأظلمت الحجرة وأصبح مؤشر الضوء الأحمر واضحًا، كانت الأغنية بعنوان (الزمن) بصوت "بينك فلويد":

فلتهجر اللحظات التى تجعل اليوم غائمًا ومملاً

أنت تبدد الساعات فيما لا طائل منه

تنطلق وتركض فى مدينتك فوق قطعة من الأرض

تنتظر شخصاً ما أو شيئاً ما ليدلك على الطريق

لقد سئمت الكذب فى وضح النهار

وها أنت ترقد فى بيتك وتراقب المطر

أنت شاب والحياة لا تتوقف ولا تنتهى ودائما يوجد الوقت لقضاء اليوم

عندئذ، وذات يوم ستكتشف أن عشر سنوات من عمرك قد أصبحت خلفك

لم يخبرك أحد بموعد الركض وأنت تفتقد إشارة البدء

أنت تركض وتركض حتى تدرك الشمس لكنها تبدأ فى الغروب

والدوران حول العالم حتى تعاود الظهور من خلفك مرة أخرى

الشمس هى الشمس بطريقة أو بأخرى لكنك لست الشخص نفسه

الشمس لا تتغير لكنك تتغير وتصبح أكبر سناً مما كنت

تتضاءل أنفاسك وفى يوم ما تقترب من الموت

وكل عام يصير أقصر من سابقه ويتعذر عليك امتلاك الوقت

الخطط التى إما تنتهى إلى العدم

أو إلى مجرد نصف صفحة من السطور التى لا معنى لها

التمسك بقليل من اليأس هو الأسلوب الإنجليزى فى العيش

ورحيل الوقت هو نهاية الأغنية لكننى أظن أن لدى المزيد مما يقال.

جلسنا فى الظلام بضع لحظات ولم يتفوه أى شخص بأى شيء وفى النهاية أضاء أحدهم الأنوار فجأة فقلت: أعتقد أن ذلك كاف ليوم واحد فلتستمتعوا بأمسية جميلة.

فى الفصل الثانى بدأت قائلاً: أود أن أبدأ معكم بعمل أهم تدريب للكتابة، إنه تدريب الإصبع فالكتابة عمل شاق وتشبه الجرى فى حلقة السباق أو ممارسة أى رياضة أخرى، عليكم بالاسترخاء قبل القيام بفعل الكتابة ولكن قبل ذلك لا بد من عمل الحمية اللازمة.

راحوا يحدقون بنظرات ملؤها الدهشة ورفعوا أياديهم إلى الأمام وظلوا يهزونها يمينًا ويسارًا فقلت: والآن ارفعوا أياديكم إلى أعلى على أن تكون راحة اليد فى مواجهتكم.

قاموا بتنفيذ ما قلته لهم فأضفت قائلاً: يجب أولاً الوصول بإصبع الإبهام إلى أسفل الإصبع الأصغر ومحاولة الوصول مرات عديدة ثم اطوى الإصبع الأصغر فوق ظفر الإبهام لإخفائه، هل تفهمون؟

قلت مستطردًا: ثم عليكم بالوصول بالإصبع الأول حتى يغطى مفصل الإبهام، إنه شيء صعب ولكن يجب فى النهاية تغطية مفصل الإبهام.

لم يستغرقوا وقتًا طويلاً حتى فهموا كل شيء فقلت: ذلك هو أهم تدريب للكتابة يمكنكم القيام به وعليكم القيام به كثيراً عند كتابة أى من النصوص وبخاصة فى النقد الذاتى.

كانوا حتى آخر لحظة لا يعرفون بأننى جاد فيما أقول فراحوا يضحكون.

(إن مـهمـة المدرسـة الثـانوية عندئذ لا تتـبدى كثـيرًا فى توصيل المعرفة بقدر ما تجبر التلميذ فى النهاية على قـبول النظام المرحلى أى التنقل من مـرحلة إلى أخـرى باعتباره نظامًـا دالاً على امـتيـاز التلمـيذ الداخلى أمـا مهمة عملية التدمير الذاتى عند أطفال أمريكا تتمثل فى عدم قبولهم لذواتهم وإنما القبول باختلافات المستويات الأخرى والقدرة على قـبول أنفسـهم مـثلمـا يحـدث فى النـــــظـــــام المـــــرحـــــلـــــى.

وهكذا فـإنه من الواضح أن طريقـة الثـقافـة الأمـريكيـة المتـبـعة الآن قـد تتـهاوى إذا لم ينتج عنهـا إحسـاس بـالـدونيـــــة وعـــــدم الجـــــدوى.

«جولز هنري»

الدرجـــــات

كما كتبت فى مكان ما بأن المراحل تمثل مشكلة ما، ففى المستوى الأكثر عمومية فإنها اعتراف صريح بأن ما تفعله ليس مهما بما فيه الكفاية أو أنه مكافأة من أجلك القيام به على مسئوليتك، إن أحداً لا يمنحك درجة من أجل تعلم كيفية اللعب أو كيفية ركوب الدراجة أو تعلم مهارة التقبيل، إن واحدة من أفضل الطرق لتدمير الحب لأى من تلك الأنشطة يحدث من خلال استخدام المراحل والدرجات ومن خلال الإجبار والأحكام التى تمثلها تلك المراحل، إن عملية المراحل والدرجات هى بمثابة الهراوة التى تستخدم فى ضرب المعارضة لعمل الأشياء التى لا يرغبون فى فعلها، أداة مهمة لغرس نموذج الحياة الأبدية فى نفوس الأطفال وبث روح الخنوع والخضوع والتبعية لديهم بصرف النظر عما تفرضه عليهم السلطة.

وفيما يتصل بالكتابة ونحو مزيد من الدقة فإننى أطلب من الناس أن يكتبوا من القلب وبكل صدق وألا يخافوا من اللامعقول ومن الفسق والخلاعة وكل الأشياء اللاأخلاقية ثم تأتى بعد ذلك مرحلة إعطاء الدرجات، هذه هى إعادة القول الشجاعة والعظيمة لتأثيرات طفولتك الجنسية بعيدة المدى التى تعرضت لها عن طريق والدك، يجب القول بأى حال بأن هذا الكلام ليس متأخراً وإنما أنت تنتمى إلى منظمة تفتقر إلى الشجاعة.

أدركت أيضًا رغم ذلك بأن شخصًا ما حين يحاول القيام بعمليات التحريض العقلى أو محاولة تفسير الأشياء وإخضاعها للمناقشة فإن ثمة أوقات تتسع لذلك ويكون الأمر مفيداً، عندما كنت أعلم نفسى كيفية الكتابة فى البداية فى منتصف

وأواخر العشرينيات من عمرى لم تكن الكتابة وقتها ممتعة أو مسلية وفى ذلك الوقت أخبرنى أحد الكتاب ما بأننى لن أكون كاتبًا حقيقيًا قبل أن أكتب مليونًا من الكلمات، بدأت أحسب عدد الكلمات التى أكتبها، ومنذ أن عرفت أيضًا -كما قال لى كاتب آخر- إن الكتابة هى إعادة الكتابة فقد بدأت أعتبر كل كلمة أسجلها فى المسودة الأولى من القصة أو المقالة هى رقم واحد فى الكلمات وكل كلمة فى الفقرة الثانية هى نصف كلمة وفى الفقرة الثالثة هى ثلث الكلمة وهكذا، قررت بينى وبين نفسى أن أكتب ألف كلمة فى اليوم وبذلك المعدل أستطيع أن أكون كاتبًا وهكذا مضيت فى تنفيذ الخطة خلال أقل من ثلاث سنوات لكننى لم أكن قادرًا على تنفيذ هدفى كل يوم مما جعلنى أعاود كتابة ما لم أكتبه فى يوم ما فى اليوم التالى غير أن كتابة خمسمائة كلمة فى اليوم كان أمرًا بمقدورى إنجازه ولطالما مارست ضغطًا على نفسى لإنجاز تلك المهمة وهكذا كان العمل شاقًا وغير مبهج على الإطلاق، كانت المشكلة تتمثل فى أننى كنت أكتب برأسى ولم أكن قد اكتشفت قلبى بعد فلم أكن قادراً على اكتشاف ذلك الباب الذى يؤدى إلى حيث تعيش التأملات، الباب المؤدى إلى عوالم أخرى ولذلك لم أستطع اكتشاف الباب المفتوح على العالم الذى أعيش فيه وهكذا كانت تمضى كل الأشياء.

قرأت ذات يوم حديثًا صحفيًا مع أحد الكتاب حيث سألوه: هل شعرت مرة واحدة بأن الكتابة قد صارت أسهل مما كانت عليه؟

أجاب الكاتب: لا، ولكنها تمضى نحو الأفضل.

أما بالنسبة لى فلقد أصبحت الكتابة أكثر سهولة ولو أنها ما زالت تشكل صعوبة لى كما كانت منذ خمسة عشر عامًا لكنت توقفت عنها، إن الحياة قصيرة بما يكفى وليس من الصواب أن تفعل شيئًا صعبًا ولا يشعرك بالراحة والابتهاج، لم تكن الكتابة بالنسبة لى هى جزء من الإحساس المبكر بالصعوبة وعدم الارتياح وإنما هو الإحباط الذى أصابنى لعدم توافق مهاراتى مع ما أتوق إليه ويمكن القول بعبارة أخرى إن

الشعور بصعوبة الكتابة الذى ينتابنى كثيراً هو نتاج لعدم امتلاكى مهارة الكتابة والمعلومات الكافية ورؤية موضوع الكتابة من زواياه المختلفة وافتقادى لرؤية الأشياء وفقًا لعلاقاتها الصحيحة والمتنوعة وعدم اكتمال المشهد برمته فى مخيلتى مما يمكننى من القدرة على التوصيف الدقيق على النحو الكافى والملائم والذى يفى بالغرض فى النهاية، يحدث ذلك حتى الآن لكننى فى هذه الأيام لا أضغط على نفسى فلقد توقفت بالأمس مثلاً بعد الجملة الرابعة من هذه الفقرة وبدلاً من الاستسلام لحالة الإحباط رحت أحدق فى شاشة الكمبيوتر وشغلت نفسى بعمل أشياء أخرى حتى وقت متأخر من الليل حيث قفزت الفقرة التالية إلى ذهنى دون أن أضغط على نفسى.

لم أعد أفكر فى أن التوقف عن العمل شيء سيئ ولم يعد ذلك يصيبنى بالإحباط أما الآن فإنه يزودنى بالمعلومات، تلك المعلومات التى لم أكن قد عرفتها من قبل عن الموضوع الذى أكتب عنه وكنت حينها فى حاجة لعمل مزيد من الأبحاث عن الموضوع نفسه، لا شيء أصعب من وصف شاطئ من شواطئ البحر إذا لم تكن قد ذهبت بنفسك إلى أحد تلك الشواطىء واستمتعت بقضاء يوم كامل متنقلاً بين رماله وأمواجه، ولا ينطبق الشىء نفسه على وصف الأشياء فقط وإنما على المناقشات والمناظرات والاختلاف فى وجهات النظر، إن أحد أعظم أسباب الفرح والابتهاج فى حياتى هى أن أصطدم بأسئلة لا أفهمها ثم أجاهد لأجد طريقى فى الوصول إليها، الكتابة تظل شاقة عندما تصطدم بتلك الأسئلة أول مرة إذا لم تكن مستحيلة فى وقتها ولكنك تستطيع مع الوقت أن تقف عندها وتستوعبها بعد أن تجتهد فى تفسيرها حتى تتكشف أمامك فتصبح الكتابة حينئذ سهلة نسبيًا ففى مقدمة كتابى "ثقافة الاعتقاد" مثلاً أمضيت أسبوعين ممتعين فى بحث وتأمل العلاقة الدقيقة بين الكراهية والازدراء والألقاب وما قد يتبعها من تهديدات قبل أن تتضح لى الإجابة بشكل واضح من خلال قراءتى نص لنيتشه يقول فيه: (إن المرء لا يكره عندما يستطيع أن يكره)، وطالما أنه يمكن المحافظة على ذلك اللقب بمساعدة التقاليد والفلسفة والاقتصاد ومن خلال أنظمة التعليم وهكذا

فإن أصحاب الألقاب يشعرون بالازدراء والكراهية نحو أولئك الذين يستغلونهم فيبدأ فى الوقت نفسه تهديد تلك الألقاب ويبدأ معها انتظار لحظة الإعدام، ربما نستطيع رؤية الشئ نفسه فى كثير من الأمور الأخرى الأقل شأناً فى الفصل الدراسى كاختلاف التلاميذ طوال الوقت مع المدرس لكنهم إذا ما قاموا بسؤال المدرس أو ممثلى الإدارة بشكل كامل الجدية فإن الابتسامة فوق الوجه الناتجة عن السيطرة الاجتماعية سرعان ما تزول.

إن التوقف أحياناً لا يعنى بأننى أفتقد معرفة الموضوع وإنما يعنى بأننى أتوجه بالسؤال الخاطئ، ظللت متوقفاً لمدة عام ونصف بالكامل دون أن أكتب كلمة واحدة أثناء تأليف كتابي "اللغة أقدم من الكلمات "The Language Older Than Words حيث كنت مثقلاً بالتساؤلات مثل كيفية التحدث بشكل مقنع عن الوعى الأولي وقابلية الإحساس والقدرات غير الإنسانية فى التواصل، كان السؤال فى البداية عن قدرة بعض البشر وترحيبهم بالاستماع إلى كائنات غير آدمية وعن عدم قدرة البعض الآخر ثم جاء بعد ذلك السؤال عن أهمية العلاقة بين الهدوء والاستغلال وبعد ذلك أصبحت قادراً على الكتابة وقد كان من الممكن أن أتوقف عن الكتابة أثناء محاولاتى معرفة كيفية قدرتنا على جعل الحضارة الصناعية قابلة للاحتمال أو إذا شئنا أن نعكس السؤال فإنه يمكننا القول: لماذا وكيف تكون الحضارة غير قابلة للاحتمال بشكل فطرى وماذا نحن فاعلون بها؟ سوف أخضع للكتابة ولن تحتاج الأسئلة بالطبع لأن تتسم بطابع فلسفى أما الأسئلة فى الرواية فإنها تخضع للحبكة بالإضافة إلى وجود خطة مسبقة، وكما أعرف فإن "مارجريت ميتشل" عندما كانت تكتب (Gone With The Wind ذهب مع الريح) فلا بد أنها قد اصطدمت بسؤال عن كيفية خروج كل من " Scarlett سكارليت و Ashley آشلى" من ورطة الغرام الذى جمع بينهما ولم تستطع الإجابة عن السؤال إلا عندما طرحته بشكل مختلف قائلة: أى نوع من العلاقة ينبغى أن يربط بين "سكارليت" و"آشلى"؟ ثم طرحت السؤال بشكل آخر نحو مزيد من الدقة

وقالت: (أى نوع من العلاقة تلك التى تربط "سكارليت" بنفسها بما أننى لست متيقنة بأن "سكارليت" لم تقم بعلاقة حقيقية مع أى شخص آخر؟).

ومن خلال الموضوع نفسه فإن التوقف عن الكتابة أحيانًا يعنى بأننى مضيت فى الطريق الخطأ، إننى غالبًا ما أجد تشابهًا بين الكتابة وبين الكلب الذى يقتفي أثر شيء ما وأننى أفقد فى بعض الأحيان ذلك الأثر مما يجعلنى أسترجع الجملة الأخيرة وأتساءل عما إذا كانت هى الجملة نفسها التى أوقفتنى أم لا ثم أعود فأسترجع جملة أخرى وأخرى حتى أجدني فى الوضع الذى لا أشعر فيه بالفقد وأننى نجحت فى العثور على الأثر مرة ثانية فأستطيع عندئذ مواصلة الكتابة.

فى أوقات أخرى فإن الأمر لا يعنى كثيراً أننى مضيت فى الاتجاه الخاطئ بقدر ما يعنى أننى أكتب شيئًا لا أريد أو أرغب فى كتابته، من الصعب جداً أن أضغط على نفسى لكتابة شيء أو فعل شيء لا أريده ويصبح الأمر أكثر صعوبة كلما تقدمت فى السن فكلما اقتربت من الموت تقل فرص الوقت الذى يمكنك تبديده وكذلك تتضاعف الصعوبة كلما أصبحت متصالحًا مع نفسى وكلما شعرت بالارتياح النفسى، إننى لست أول من أشار إلى أن الإحساس غير السار والمبهج بالعمل غالبًا ما ينشأ من الاحتكاك بين أجزاء مختلفة من النفس، إن تلك الأجزاء المختلفة من النفس حين تعمل معًا وفى اتجاه واحد يصبح العمل أكثر أو أقل تصادمًا، إن دخول أى شخص إلى ساحة ممارسة الرياضة يمكنه معرفة ذلك والشيء نفسه ينطبق على الكتابة وعلى العلاقات بين البشر وعلى كل مناحى الحياة حتى إننى أجد نفسى ملزمًا على القول بأن كثيراً من قراراتى خاطئة لأننى عادة لا أكون قد عقدت العزم على عمل شيء ما عندما أتوجه إلى الاتجاه الصحيح، ومن المؤكد أن هناك بعض الاستثناءات الحيوية لذلك مثلما أكون مضطراً مثلاً لترك وظيفة سيئة بالنسبة لى ولا تناسبنى أو الانتهاء من علاقة غير مريحة لكننى لا أملك القدرة على اتخاذ القرار، عندئذ يحتاج الأمر لخطوة حاسمة وباترة لترك العمل أو الانتهاء من تلك العلاقة ولكن يجب ملاحظة أن تلك المواقف لم تكن تصطدم بتفكيرك فى البداية.

إن التوقف عن الكتابة أو التعثر في مواصلتها يعنى فى أحيان أخرى أننى لست مستعداً لكتابة ذلك الموضوع أو تلك القطعة الأدبية بعينها، لقد كتبت أول عشر صفحات من هذا الكتاب منذ عامين ثم اكتشفت بأننى فقدت خطة العمل والأثر الذى يجب أن أقتفيه وعندما حاولت معرفة تلك الخطة وذلك الأثر لم أستطع فقررت التوقف عن الاستمرار فى كتابة هذا الكتاب ورحت أكتب كتاباً آخر بدلاً منه ثم عدت إليه بعد أسابيع قليلة وما أن استرجعت جملة واحدة حتى أصبح المشهد واضحاً وقفزت إلى ذهنى مرة أخرى خطة العمل والأثر الذى يجب أن أقتفيه وأصبحت بدورى جاهزاً لمواصلة الكتابة التى لو لم أكن قد توقفت عن مواصلتها آنذاك لخرج الكتاب في ثوب آخر مختلف خال من التشويق وربما لكان كتاباً رديئاً.

كل ما أستطيع قوله إن أحد الأشياء القليلة التى تعلمتها طوال الخمسة عشر عاماً الماضية هى كيفية الحفاظ على ألا تفقد الفكرة أثناء الكتابة وإلا يصبح الأمر محبطاً ومخيباً وعديم الجدوى فأنا أكتب بعقلى وليس بجسدى.

إذا كان مسموحاً لى بتغيير التشبيه فإننى أحياناً أميل إلى تشبيه الكتابة بالصيد، أنا لا أستطيع أن أحمل سنارة الصيد وأضرب بها فوق الماء وأتوقع اصطياد سمك كثير وهكذا أكون قاسياً وعدوانياً مع نفسى إذا مارست الكتابة رغماً عنى دون أن تتدفق الكلمات وحدها من غير إجبار، إننى دائماً فى حاجة لأكون فى خدمة العمل وأن أكون لصيقاً به فعندما فقدت قدرتى على الكتابة بالأمس ورحت أفعل أشياء أخرى ظللت أستعيد ذاكرتى للوقوف عند المكان الذى توقفت عنده لمعرفة إذا ما كانت أى تحركات أو نزعات أو أى علامة ومؤشر إلى ما يجب علي فعله فى الخطوة التالية.

أعتقد أن ذلك كله يحدث بشكل حقيقى مع أشياء أخرى كثيرة وليس فقط مع الكتابة.

إن الأمر ينطوى على تناقض كبير فمن جهة يبدو أن كل ما كتبته فى الصفحات

القليلة الماضية يعمل ضد أجندات أو مؤثرات خارجية كما أنها تتصل بعملية النقاش حول تعليم الكتابة أو تعليم أى شيء، ويمكن القول بطريقة أخرى إننى حريص جداً على عدم الوقوع تحت تأثير الالتزام الزائف بضرورة كتابة ألف كلمة كل يوم وألا يكون ذلك هدفًا من أهدافى، حدث الشيء نفسه أثناء كتابة مؤلفى (The language Older Than Words اللغة أقدم من الكلمات) حين أصابنى الملل والتعب أثناء بحث ودراسة الكتاب قبل كتابته وقلت لنفسى: إذا لم أبدأ فى خلال الأشهر الثلاثة القادمة فإننى سوف أتجاهل الموضوع برمته وأذهب للتفكير فى شيء آخر وقبل نهاية المدة المحددة بأسبوعين لاح لى السؤال المؤثر ثم لاح لى مرة أخرى بعد أسبوع آخر لكن الكتابة الفعلية للكتاب حدثت فى السنة التالية.

لقد عشت أيضًا لحظات مرهقة طوال مدة كافية لتعلم مختلف منحنيات الكتابة ومعرفة متطلباتها وشروطها ووسائلها المتفردة قبل أن تصبح الأمور أكثر يسراً، ولقد جربت الشيء نفسه وعشت اللحظات المرهقة نفسها مع العلم وفى ممارسة لعبة كرة السلة والقفز العالى وفى التواصل مع الأشخاص ومحاولة اكتشاف ما أريد أن أفعله فى حياتى.

لا يزال الفرق موجوداً بين ما كنت أكتبه فى الصفحات القليلة الماضية وبين المراحل، لا تدعنى أتسلل إلى ذلك الفرق بواسطتك، إن الأهداف وموعد الانتهاء من العمل التى فكرت فى تنفيذها هى أشياء ليست واجبة التنفيذ وغالبًا لا يتم تحقيقها رغم أننى أنا الذى فكرت فيها وحددت موعد انتهائها ولم يفرضها أحد من الخارج أو أى شكل من أشكال السلطة التى تعتقد بأنها تعرف خططى أكثر منى، ولا حتى من أى جهة خارجية من تلك التى أختلف معها بود؛ لأنها تملك الخبرة والمعرفة وعلى سبيل المثال فإننى حيثما ذهبت للصيد أجدنى مختلفًا مع كل من شريكاى فى الصيد؛ لأنهما أفضل منى بكثير ويملكان الخبرة الكافية اللازمة لعملية الصيد وأتذكر ذات مرة بينما كنت أركب السيارة مع "جونى" عبر طريق شاق وقذر حين رفع إحدى يديه فجأة من فوق عجل القيادة وأشار قائلاً: إننى أكرهها حين يفعلون ذلك.

تابعت نظراته المحدقة ورأيت غرابًا واضعًا رأسه فوق الحشائش ورافعًا قدميه إلى أعلى ثم أوقف "جونى" السيارة فخرجنا ومضينا نحو المكان الذى أشار إليه، شاهدنا مجموعة من الظباء مع أولادهم وكانوا يغوصون فى الوحل ويتعثرون فى السير ورغم تركيزه فى القيادة فإن "جونى" استطاع أن يرى أذنًا واحدة ملتصقة بالعشب وعلى بعد أقدام قليلة كان الغراب واقفًا فبدا أطول كثيراً من ولد الظبى، ولم أستطع أنا أن أرى سوى رأس طائر أسود عند جانب الطريق ولم توح لى رؤيته بأى شيء.

قمت بعمل مزيد من وتمارين الكتابة وتجاربها أكثر مما قام به تلاميذى فلقد كتبت ملايين الكلمات رغم كل شيء غير أن اختلاف الكلمات لم يكن اختيارياً على الإطلاق فبينما كنت أشارك أساتذتى الذين يستحقون احترامى داخل الفصول أو خارجها وأولئك الذين كان مسموحًا لهم بتشجيعى وتحديد الأهداف والخطوط العريضة لى كنت أيضًا أمتلك حصتى التى لا تستحق ذلك الاحترام وفيما بعد وداخل الفصول كنت أتوقع الاختلاف معهم وأن أفعل بعض المهام والفروض التى طلبوا منى القيام بها وكان علي قبول الفرضيات التى يطلبون تطبيقها على تلك المهام والفروض بصرف النظر عن ما يتمتعون به من تعصب أعمى وعجرفة وأنانية، كان الوضع مستحيلاً، ماذا عليك أن تفعل؟

تلقيت هذا المساء رسالة بالبريد الإليكترونى من أحد معارفى خاصة بهذا الموضوع، قالت لى: أقوم الآن بالتدريس لكننى أريد العمل بطريقة مختلفة تتبنى الأمثلة وطرح النماذج ولا تتبنى فرض الآراء بالإكراه لكننى بمجرد أن دخلت فى أتون العمل اليومى وكان الناس يحيطوننى ويتهموننى بتأييد المدير والوقوف إلى جانب بقية المدرسين وأولياء الأمور وبعض الطلبة حتى بدأت فى الانسحاب ورحت أنسى السبب وراء وجودى هناك وما كان ينبغى فعله، وبدلاً من أن يصبح هدفى هو المضى قدماً فقد صوبوا نحوى سهام النقد وأصابنى الإرهاق وبدأت عندئذ أكره وظيفتى لأننى كنت

دائمًا أحاول استخدام القوة التى لا أعتقد فى جدواها لتنفيذ سياسات لا أعتقد فيها وكنت أشعر بالضغط الشديد والإجهاد حتى إننى لم أدرك أن ما يجرى وما يتبعه من أشياء سيئة هو ما يجبرنى على التوقف لإعادة تقييم الموقف ثم حين عدت للعمل طلبًا للتغيير وفى ذلك المناخ نفسه أصابنى التآكل مرة ثانية وذكرنى ذلك بقصيدة لشاعرة محلية أنصح بالتصدى لقراءتها واسمها "كلوديو مورو" التى قالت:

(أنت لا تعتقد

قد يكون الأمر سهلاً

أن ننسى

منْ نكون حقيقة

وأننا نحمل ذلك الموت دائمًا فوق أكتافنا

وأن كل شيء على قيد الحياة

وأن ذلك الإله يغنى فى كل مكان).

إذا لم تستطع التفكير فى جعل الكتابة أفضل وأجمل من ممارسة الجنس فثمة طريقة أخرى للتفكير.

قال الكاتب "تشارلز جونسون" فى حوار معه بإحدى المجلات: أعتقد أن الكاتب الحقيقى ينبغى أن يفكر ببساطة فى مصطلحات وعبارات أخرى وعليه أن يواصل عمله حتى لو صوبوا البندقية فى اتجاه رأسه وراح شخص ما يقدح زناد البندقية بينما هو يكتب آخر كلمة فى آخر فقرة وفى آخر صفحة، والآن إذا استطعت الكتابة عن إحساسك بأنك ستموت أثناء مواصلة الكتابة وقبل الانتهاء منها فإنك ستكتب بسرعة وتعجل وبأمانة وشجاعة وبدون إحجام أو خوف كما لو أن ذلك آخر عهد بالكتابة وآخر

كلام تستطيع النطق به أو البوح به لأى شخص وإذا حدث ذلك فإننى ولا شك أرغب فى قراءة ما قمت بكتابته وإذا كتب أى شخص بذلك الإحساس فسوف أشهد بأنها كتابة جادة وأن ذلك الشخص لا يبدد وقته هباءً وأن العمل لا يؤدى إلى نهاية غير التى يعنيها ولا يعنى الإشارة إلى أى أهداف سطحية وسخيفة، ذلك العمل هو الذى قال فيه الكاتب شيئًا شعر به ولم يكن ممكنًا قوله لو أنه لم يشعر به، ذلك النوع من الكتاب هم الذين أرغب فى القراءة لهم وأزعم أن القرن العشرين لا يحفل بالكثير من نوعية أولئك الكتاب.

التزم الطلبة الصمت بضع لحظات ثم قال أحدهم: إن شخصًا ما يضع البندقية فى مواجهة رأسى ويخبرنى بأنهم سيقتلوننى عندما أكتب الكلمة الأخيرة وأنا أقول لك الآن بأننى فى طريقى لكتابة موضوع طويل.

حاولت أن يشرف كل طالب من طلبتى على ما يكتبه الآخرون لكننى تخليت عن محاولتى عندما حدثت أول كارثة، لم يكن لديهم أية فكرة للقيام بتلك المحاولة ولم يكن ذلك بالأمر المدهش لأن قليلين جداً هم الذين يفعلون ذلك، حاولت أن أعلمهم بسرعة أن تعلم الإشراف على الكتابة هو مهارة تعادل الكتابة نفسها فى الصعوبة وأنها عملية شاقة مثل الاحتفاظ بالهواجس التى تسيطر على الإنسان أو الكاتب وهى أيضًا كميكانيكا السيارات المعقدة أو الاعتناء بالحديقة ولكنها موقف من مواقف المشاركة وعدم الأنانية وتتسم بقدر من العاطفة يظهر واضحًا فى الموضوع نفسه ولا يخص المؤلف وحده وذلك ما اعتبره شيئًا نادراً فى ثقافتنا.

عندما ذهبت إلى مدرسة عليا تلقيت عدداً وافراً من وجهات النظر عن الكتابة وحضرت سلسلة من الحلقات الدراسية حول الموضوع نفسه وكانت فى غالبها مؤسفة، إن الكاتب بمقدوره أن يكتب نسخًا عديدة من قصة واحدة ويقدمها إلى كل الطلبة فى الفصل فيزعم الطلبة أنهم قرءوا كل النسخ ثم يعودون بعد أسبوع ليقولوا ملاحظاتهم

الانتقادية، وفى بعض الأحيان يزأرون بالشكوى أيضًا لأن تلك القصص لم تساعدهم فى شيء ولم تكن عونًا لهم لأنهم لم يتعلموا أبدًا كيفية التعلم، إن الصورة التى تقفز إلى ذهنى أو ذهن أى شخص آخر عند كتابة القصة هى الدخول فى عالم القصة وإذا كان الجسد ميتًا أو متألمًا بشدة ما بين الضلع الثالث والرابع أو يعانى شدًا خفيفًا فى باطن الركبة، وقد يكون الجسد يعانى من السرطان أو فى أحسن حال وفى أحسن صحة وفى الفترة ما بين المرض والصحة فإن كلتا التجربتين تقومان بالتشخيص والتحليل، إن الدراسات الخاصة بالأورام الخبيثة ترى السرطان فى كل مكان بينما يتعقب طبيب الأقدام البشرية المرض فى كل أجزاء الجسم ويرى المعالج بالإبر الصينية أن الطاقة تتفجر فى وقت الظهيرة كما يرى طبيب العظام أن العمود الفقرى قد انحرف عن مساره أما المتخصص فى أعمال السحر والشعوذة فإنه يرى الأمر على أنه أحد ممارسات السحر، ولسوء الحظ فإن كل ذلك لا يرى الجسد الحقيقى وذلك لأن المدرسين لم يعلمونا كيفية الرؤية والأهم من ذلك أنهم لم يعلمونا الاهتمام بالكتاب الآخرين وفى ذلك ضرر كبير.

لقد مررت بتجربتين عظيمتين فى ورش العمل، كانت التجربة الأولى حين كتبت بالمشاركة مع شخص آخر بعض النماذج الأدبية وكان ذلك الشخص هو الوحيد الذى تحدث فى ذلك اليوم وأتذكر أنه استهل كل كلامه واقتراحاته بتعليقات مثل: (إن كل مواهبك وقدراتك تبدو فى هذه الكتابة الأدبية التى يبدو فيها الناس وكأنهم يتكلمون والمشكلة هى أننا على الرغم من القول لأنفسنا بأننا نريد لما نكتبه أن يكون واقعيًا فإننا لا نفعل ودعونا نرى كيف يبدو ذلك الأثر الأدبى إذا حاولنا له أن يكون واقعيًا).

لقد تعلمت المزيد فى ذلك اليوم عن كيفية الكتابة أكثر مما تعلمته من دراستى ومن الندوات الأدبية والحلقات الدراسية رغم أنها كانت مفيدة فى أوقات أخرى وكان ذلك بسبب أنها غير منظمة بشكل كاف أو لأن المدرس كان مريضًا فى الأسابيع الستة الأولى من الدراسة وهكذا كنا نحن الطلبة ندير الفصل ومواضيع الدراسة بأنفسنا، لا أعرف إذا كانت الحقيقة المتمثلة فى أن قبولنا بالإكراه على تقبل تلك الظروف قد جعلنا نهتم ببعضنا البعض أم أنه فى حالة وجود تفسير آخر للنجاح، كانت جراحنا تلتئم

بطريقة ما أثناء العمل المشترك مع مجموعة من الأصدقاء وكنا بذلك نستطيع أن نجد حلولاً للمشاكل الخاصة التى يأتى بها كل منا إلى الفصل.

أما التجربة الإيجابية التى تعلمتها من الكتابة مع الآخرين هى أن شريكى كان يستطيع قراءة ما بذهنى فى كثير من الأحيان وكان بالتالى يستجيب لما أحاول أن أقوله وكان ذلك أكثر أهمية وفائدة من استخدام قدراته الفنية دون الوصول إلى ما يدور فى رأسى، كانت لى صديقة منذ سنوات مضت لم تحصل على شهادتها العليا وكان من النادر أن تقرأ لكنها كانت تمتلك القدرة على تحديد مكونات كتابة القصص بدقة متناهية وبدون أن تخطئ وكانت تساعدنى فى تصحيح بعض الأخطاء، تمثلت تلك القدرة لديها لأنها كانت تتعرف على درجات صوتى وأنا أقرأ بصوت عال فيمكنها عندئذ الإحساس بأدنى تردد فى الصوت أو ملاحظة أننى تسرعت فى بعض المقاطع التى أعلم أنها مملة أو مثيرة للقرف، كما أن صديقًا آخر يلعب الآن دور المرآة بالنسبة لى مما يجعلنى أعاود النظر أحيانًا فيما كتبت، إنه يعمل على توحيد ذلك الإحساس الجميل بتاريخ القراءة الطويل وتاريخ الكتابة والنشر، لقد علمنى كل أولئك الأصدقاء كيفية الكتابة.

إن خدعة الكتابة التى لم يتعلمها طلبتى حتى الآن وأنصح بها بصدق كما أنها تسرى على كل نواحى الحياة هى أن تكتشف المكان الذى يختبئ فيه قلب الشخص الآخر ثم العمل على مساعدته للوصول إلى ذلك المكان.

إن تحليلى لمنهج الإجبار والقسر فى العملية التعليمية لهو فى مجمله شيء جميل لكن التركيز على إعطاء درجات للطلبة وعدم أحقيتى فى القيام بعملية التدريس إذا لم أفعل لهو أمر غريب، كانت إحدى مزايا التدريس فى السجن أننى لم أكن مضطراً لوضع درجات ولم أكن أعرف ما يجب أن أفعله بخصوص ذلك الشأن فى الجامعة وكذلك لم أكن أعرف بأننى لن أصدر رأيًا عن كتابات طلبتى وعرفت أيضًا بحاجتى لأن يندمج الطلبة فى عملية تحديد الدرجات، إننى أصف هذه العملية بطريقة مختصرة

فى كتابى (اللغة أقدم من الكلمات (The Language Older Than Words)، لقد اقترح أحد الطلبة أن أعطى كل طالب درجة معينه قام بتحديدها فتوجهت إلى مشرفى وعرضت عليه الفكرة لكنه اعتبرها أمراً ليس من اختصاصه فاقترحت على الطلبة أن نقوم نحن بتحديد الدرجات جزافًا ولقد انتابتنى الدهشة لأن بعضًا من الطلبة الأقل اهتمامًا بالدراسة وليس كلهم قد راقتهم الفكرة وبدا أنهم مع تقدير الدرجات طبقًا للمجهود ثم اقترحت عندئذ أن أعطى كل طالب درجة معينة قمت أيضًا بتحديدها فلاقت الفكرة قبولاً من الغالبية غير أن المديرين والبقية القليلة من الطلبة لم تفطن لكونها مزحة.

توصلنا بسرعة كافية إلى فكرة أن تعتمد الدرجات على أهمية الموضوع ومستوى كفاءته؛ لأنك تتعلم الكتابة بالممارسة وهكذا تكون الدرجات طبقًا لعدد مرات الكتابة ويمكن للطالب أن يأخذ درجة مقابل كل صفحة يكتبها ويتلقى عنها ملاحظة ولأن إعادة الكتابة هى كتابة فإنه يأخذ درجة ثم تتحول كل الدرجات مباشرة إلى مجموعة من النقاط، وإذا كتب شخص ما ورقة واحدة فى كل الاثنتى عشر أسبوعًا التى يتكون منهم الفصل الدراسى وأعاد كتابة ثلثى الورق فإنه يحصل على اثنى عشر بالإضافة إلى ثمان درجات وذلك بعد أن أتفحص ما كتبه ذلك الشخص على أن ينال إعجابى.

لقد تعجبت عن كيفية مساعدتى للطلبة بمفردى على تعزيز قدراتهم والتغلب أو تجنب ضعفهم من خلال المسابقات داخل الفصل، ربما كان أحد الطلبة يمتلك إحساساً مرهفًا بالأحداث وتسلسلها لكنه يفتقر إلى فهم القواعد النحوية مما يجعل القراء يتساءلون عما يريد أن يقوله بالضبط وربما لم يستفد من الدروس عن الموضوع والأفعال والطريقة السليمة لاستخدام الفواصل، إن تلك الدروس غالبًا ما تكون مثيرة لضجر الطلبة إذا لم تتوافق مع عقولهم وفى الغالب فإنك لا تجد طريقة لجعل محاضرة القواعد مثيرة للانتباه سوى ربطها بالحديث عن الجنس.

قلت لهم: هناك حل فى الورقة التى أحببتموها بشكل خاص، تستطيعون وأنا معكم أن نعالجها سطراً سطراً ثم نعمل على تجويدها والعمل على أن تصبح قطعة

جميلة وبراقة، سوف نتداول بشأنها أكثر من مرة ونعاود كتابتها إلى أن تعجبنا فى النهاية حتى لو كان التشديد على بعض الكلمات أو المقاطع من أجل محاولة الانتهاء من الورقة، قمت بحثهم على تعقب ذلك وقلت لهم: إنه من خلال تلك العملية يستطيعون فعلاً تعلم الكتابة وكان الأكثر أهمية أننى قلت لهم أيضاً إن الأمر سيكون مجرد لهو.

كنت أعنى أننى سأنفق كثيراً من الوقت فى التداول ولكن لا بأس، إن التشجيع وإلقاء دروس عن الكتابة بشكل خاص يساعد الطلبة فى الحديث عن أشياء أخرى مهمة كالحب مثلاً.

إن المدارس الحديثة والجامعات تدفع الطلبة إلى تعلم العادات التى تسلب الشخصية وتدفعهم للشعور بالاغتراب عن الطبيعة والحياة الجنسية وتساهم فى تعلمهم طاعة التسلسل الهرمى والخوف من السلطة كما تدفعهم أيضًا إلى التشيء الذاتى وفقدان التنافسية، تلك الصفات الشخصية هى روح وجوهر العالم الصناعى الحديث وهى بالتحديد الصفات الشخصية اللازمة للحفاظ على النظام الاجتماعى الذى هو بدوره خارج تمامًا عن الاتصال بالطبيعة ولا يبالى بالحياة الجنسية والاحتياجات البشرية الحقيقية، إنها مميزات الشخصية التى يحاولون طمسها؛ خوفًا من المطالبة بإصلاح النظام الاجتماعى الذى لا يتماشى مع الطبيعة ولا مع الاحتياج الجنسى وعموم الاحتياجات الإنسانية.

«"آرثر إيفانز"»

الحب

قلت لهم: فلتغلقوا أعينكم، إنها تحدق في.

اغلقوها، إنها فعلاً تحدق فى.

تخيل أنك ذاهب إلى مؤتمر فى الربيع القادم بالقرب من أتلانتا حيث ستكون أزهار الخوخ قد تفتحت للتو وتستطيع أن تشمها فى كل مكان وأن موضوعات المؤتمر ستكون أقرب إلى قلبك فإذا كنت تحب العلاج الطبيعى مثلاً فسيناقش المؤتمر العلاج الطبيعى وإذا كنت من محبى لعبة البيسبول فسيكون هو الموضوع المطروح للمناقشة وإذا كنت مسيحيًا فإن مجموع الحاضرين سيكون من المسيحيين، أما بالنسبة لى فإننى أرى أن الموضوع برمته سيكون مجرد تجمع لحفنة من الناس يريدون إسقاط الحضارة الصناعية.

تصل إلى هناك يوم الجمعة حيث تقام المحاضرة الأولى مساء وتجلس بالقرب من الجهة الخلفية فوق مقعد يتيح لك رؤية جيدة، أنت شخص تعشق المناقشات وتهتم لتبادل الأحاديث ويوجد مقعد شاغر إلى جوارك وحين تنظر بزاوية عينك تلمح امرأة تقترب منك وتتساءل عن المقعد الشاغر إلى جوارك قائلة: هل يجلس أحد هنا؟

تبدأ فى محاولة الوقوف لإتاحة الفرصة لها للمرور لكن نظرة واحدة لذلك الوجه وإلى ركبتيك الملتويتين فوق بعضهما تجعلك تتردد لكنك تحاول مرة أخرى حتى تستطيع أخيراً أن تقف فتسأل السيدة مرة ثانية: هل يجلس أحد هنا؟

تقول متلعثماً: آمل أن يكون المقعد خاليًا.

لا تستطيع أن تصدق ما قلته لها لكن ذلك ما حدث.

جلست ورحت تتبادل معها حديثًا وديًا ولطيفًا قبل بدء المحاضرة ولقد تأثرت بمعرفتها وحسن دعابتها وروحها المرحة وذكائها المدهش كما أنها لفتت انتباهك بمفردات كلماتها البسيطة غير المتحذلقة رغم كونها مفردات قوية وحاسمة.

بدأت المحاضرة لكنك - لسبب ما - لم تستطع المتابعة أو التركيز وبدلاً من التركيز على تحركات جارتك وانتقال جسدها كنت تعاني قلقًا وتوترًا بدا في فرك كف يدك اليسرى بكف يدك اليمنى كما بدا أن قلبك قد توقف.

توقفت وأخذت نفساً عميقًا وكانت عيون الطلبة ما تزال مغلقة لكن معظمهم كانوا يضحكون.

تجد نفسك مضطرًا للتفكير في أشياء بعينها بعد تبادل بعض الأحاديث وفجأة تجد لزامًا عليك أن تسألها قائلاً: ماذا ستفعلين في خلال الساعة القادمة؟

تجيب قائلة: سأكون في انتظار مكالمتك التليفونية.

تتصلان تليفونيًا، تسيران معًا في الشوارع، تتحدثان حتى الثالثة صباحًا ثم يذهب كل منكما لينام في حجرته وحيداً وفي اليوم التالي تذهبان للمحاضرات معًا دون أن يهتم أحدكما بما يقال، تتحدثان مرة أخرى وتواصلان تبادل الأحاديث للمرة الثانية حتى الثالثة صباحًا ثم يتوجه كل منكما للنوم في حجرته بعيداً عن الآخر، وفي يوم الأحد لا تزعج نفسك بالذهاب إلى المحاضرة وتخرج بدلاً من ذلك إلى ميدان القتال عند جبل " كينيسو" وتمشي عبر الميدان الذي تقاتل فيه الرجال وماتوا منذ مائة وأربعين عامًا بينما أنت تتحدث عن الجمال، وفي وقت متأخر من اليوم وعندما تكبر الشمس قريبًا من الأفق تقول لك: أعرف أنك يجب أن تعود إلى "سبوكن" غداً لكنني أرغب في قضاء الليلة معك لأننا مارسنا الحب معًا بالكلام طوال اليومين الماضيين وأتمنى أن نشارك بجسدينا في الحديث.

أتوقف مرة أخرى ثم أواصل الحديث الموجه إلى طلبتى مستطرداً: والآن ماذا تفعلون وكيف ستكون ردة فعلكم؟ هذا هو السؤال الذى أريد أن أطرحه عليكم.

فتحوا عيونهم الناعسة وبدءوا فى الكلام وامتلأت عيونهم بالحياة ثم انقسموا إلى نصفين، نصف يؤيد الذهاب للبيت لممارسة الحب والنصف الآخر يعترض على الفكرة والنسبة نفسها كانت للإناث لكن واحدة منهن قالت: لو كنت أنا مكانها لما انتظرت حتى الليلة الثالثة، لماذا أتسبب فى ضياع الليلة الأولى والثانية.

قال آخر: ولماذا يفسد العلاقة بعرض فكرة الجنس؟

أجاب ثالث: كيف يكون الجنس سبباً فى إفساد العلاقة؟

قال رجل: أنا من اليابان وبالطبع سأقول نعم.

ضحكنا جميعاً دون أن نعرف ما يعنيه وحين حاول أن يفسر كلامه لم تسعفه لغته الإنجليزية كما أن عدم معرفتنا باللغة اليابانية لم يساعدنا فى الفهم.

قالت امرأة من الحاضرات: ليس بدون تقديم خاتم.

اختلف بعض الرجال والنساء معها بينما اتفق معها آخرون، شعرت بالابتهاج من قلة الازدواجية ولم يكن مطروحاً على الإطلاق اتهام الرجال بالضعف إذا هم قالوا لا أو اتهام النساء بالبغاء إذا قلن نعم.

لكن ثلاثة من الحاضرين بدا أنهم غير مرتاحين للمناقشة وكانت أحدهم امرأة مسيحية متعصبة سارعت بكتابة ملاحظة لاذعة تخبرنى فيها بأن أشياء بعينها لا يجب الحديث عنها فى الفصل فكتبت لها أيضاً مؤكداً لها عن موافقتى لما قالت وأكدت لها على عدم الحديث عن القواعد النحوية أو أى شيء قد يجلب الملل، أما الاثنان الآخران وهما رجل فى العشرينيات من عمره وامرأة فقد كانا أكثر إثارة بالنسبة لى، كانا قد تعرفا على بعضهما البعض منذ حوالى شهر وكان بقية المتواجدين بالحجرة يتحدثون بحرية كاملة غير أن أيا منهم كان قبل أن يتحدث يتحسس كلماته من أجل تأثيرها

المحتمل على الآخرين، وأستطيع القول: إنه على وجه الخصوص يريد أن يعرب عن رغبته فى ممارسة الحب معها فى الخيال لكنه يخاف أن ينتهى به الأمر إلى النوم بمفرده فى الواقع، نهضوا جميعًا معبرين عن عدم ارتياحهم واقترح شخص ما بأنه سيخرج من الفصل حتى لو كان أحدهم يتحدث عن ما يشعر به وفى النهاية أشرقت عيناه وهو يهم بالخروج.

قال بصوت مزعوم ولكن بشكل مباشر موجهًا كلامه للفصل غير أننا جميعًا كنا نعرف أنه يقصدها هى بالكلام: أعرف الوقت الذى بدأنا فيه هذه العلاقة ولقد مضينا فى العلاقة ببطء وذلك لأننا لم نشأ أن نقضى على الأشياء الجميلة، أعتقد رغم ذلك بأننا لو لم نلتق فى مؤتمر كهذا لكنت نلت منك منذ الليلة الأولى.

نظر إليها لكن وجهها لم يوح بأى شيء فراح يستطرد قائلاً: ذلك لا يعنى القول بأننى كنت سأسعى للنيل من أى واحدة أخرى بطريقة أسرع لكن الأمر مختلف معك.

ابتسمتْ واستطاع هو عندئذ أن يتنفس من جديد.

سألنى شخص ما: ماذا كنت أنت ستفعل؟

أجبت: فى العشرينيات من عمرى كان الخوف سيتملكنى وربما كنت سأقول لا بسبب ذلك الخوف أما الآن فإننى أتمنى أن أقول نعم وفى الحقيقة كنت سأتمنى أن أعبر عن مشاعر اللحظة الحقيقية.

ومهما كانت الإجابة بالرفض أو القبول فإننى دائمًا أسأل عن السبب، إننى أسألهم عن ماهية العلاقة وإذا كانت أي من تلك العلاقات تجمع بين الفكر والتقارب العاطفى وبين الفكر والألفة الجسدية؛ كان من الواضح أننى لم أكن أهتم بما سوف تكون عليه إجاباتهم وإنما بالطريقة والكيفية التى توصلوا بها إلى تلك الإجابات فقلت لهم أخيرًا: دعونا الآن نبدأ فى تغيير شروط السؤال، كيف ستتصرفون إذا كانت العلاقة على وشك الانتهاء ولم يحافها النجاح عند اللقاء الأول، هل كان ذلك سيغير من تصرفاتكم؟

قالت امرأة: كنت سأقول للشخص الذى معى أننى أحب فعلاً قضاء الليلة معه لكننى مضطرة لعمل مكالمة تليفونية أولاً.

من الواضح أن أولئك الذين قالوا لا لم يغيروا رأيهم وكذلك أولئك الذين قالوا نعم ظلوا عند رأيهم.

قلت: حسنًا، ماذا لو أن العلاقة فى البيت كانت جيدة وممتعة؟ كيف ستفكرون عندئذ وكيف ستسير الأشياء؟

قال شخص ما: أنت لا يمكن لأجازة نهاية الأسبوع أن تكون علاقة، لا شيء يحدث بمثل هذه السرعة.

أخبرته عن ابن عم والدتى الذى كان فى مستشفى الجيش أثناء الحرب العالمية الثانية بعد إصابته بطلق نارى فى ركبته أثناء محاولته الهرب من بين مجموعة من الجند كانت فى طريقها للهجوم على إحدى الجزر بالمحيط الهادى، كان داخل حجرة الطعام ذات يوم ودخلت عليه إحدى الممرضات ثم ألقت عليه نظرة خاطفة ووقفت إلى جواره وقالت: ذلك هو الرجل الذى سأتزوجه.

إنهما يعيشان معًا الآن ومنذ حوالى ستين عاماً.

سأل طالب آخر: لماذا لا نستطيع أن نسمح بنهاية هذا الأسبوع الجميل أن يكون جميلاً؟ من الذى يقول إن تلك ليست علاقة وإنما مجرد شيء صالح ومهم مثلما يحدث منذ سنوات؟ لماذا لا يسعد الناس باللحظة؟

أخبرتهم عن مسلسل كوميدى كنت قد شاهدته ذات يوم وكان المسلسل يتحدث عن امرأتين متشابهتين وجالستين فوق السرير بوجهين متجهمين، قالت المرأة الجالسة إلى اليسار بأنها كانت تفكر ذات ليلة بأنها تنعم بعلاقة ممتدة بينما قالت المرأة الأخرى أنها تفكر فى علاقة ممتدة لليلة واحدة فقط.

قالت امرأة: إن الخدعة تتمثل فى اكتشاف أيهما قبل حدوث الندم.

كان الطلبة يستمعون بشغف وبدا أنهم سعداء وراحوا جميعًا يتحدثون فبادرت بتغيير الشروط أكثر من مرة وقلت: ماذا لو شاركتم فى أحاديث شيقة ولكن مع شخص ليس جذابًا وليس فيه ما يثير؟ هل سيؤثر ذلك فى الأمر؟ أو ماذا لو كان الشخص جميلاً وفاتنًا فى الشكل لكنك سرعان ما تكتشف بأنك لا تجد شيئًا تقوله؟

أضفت قائلاً: لو أنك اكتشفت مثلاً بأن ذلك الشخص شبيه بالثلاثى المرح؟

أجاب أحدهم: هاى، أنا أحب الثلاثى المرح.

قلت بحسم: حسنًا، لا تسألنى عندئذ أن أقوم بمضاجعتك وهل ستتصرفون بطريقة مختلفة لو أنكم تعلمون بأنكم ستعيشون لفترة محدودة؟

انتهى الدرس وجاء وقت الرحيل غير أن أحداً لم يشأ أن يغادر فيما عدا تلك المتعصبة التى كانت تنظر فى ذهول، لملمت أشياءها ثم خرجت لكننا جميعًا بقينا لمدة أطول قبل أن نخرج.

طوال الأيام القليلة التالية تلقيت العديد من المكالمات التليفونية التى تسأل عن إمكانية الانضمام للفصل.

عاد طلبتى إلى مساكنهم وراحوا يتحدثون مع زملائهم فى الحجرة عن تلك الأسئلة وراح زملاؤهم يتحدثون بدورهم مع آخرين من أصدقائهم فى السكن نفسه وظلوا جميعًا يتبادلون الحديث حتى وقت متأخر من الليل فى جو مليء بالإثارة.

فى الحصة التالية سألنى الشخص نفسه الذى تناقش معى عن فكرة الإصابة بمرض خطير عن الرد وفى هذه المرة هززت كتفى وابتسمت، لم أخبرهم لكن ثمرة النقاش لم تكن أبداً عن الجنس ولا حتى من بعيد، كانت أهمية النقاش تتمحور حول تعلم كيفية التفكير وكيفية الاختلاف وأهمية أن يتخذ المرء موقفًا بعينه ولكن حتى كل ذلك لم يكن هو الهدف، كان الهدف هو مساعدتهم على أن يتذكروا بعد سنوات كثيرة من التجارب الصغيرة فى المدرسة أن عملية التفكير ممكنة إلى جانب أنها ممتعة.

فى يوم آخر كنا نقيم احتفالاً فى السجن وكان واحداً من الأيام الممتعة التى لم أعش مثلها منذ وقت طويل، كان احتفالاً بالكتابة وسبل نشرها، وكان من بين الحضور طالبان جديدان، أما بقية الطلبة فكان بعضهم مشاركًا فى الفصل منذ ستة أشهر والبعض الآخر قد شارف على الانتهاء من عامه الثالث، وكانت مراقبتهم وهم يتعلمون كيفية نشر أعمالهم مثيرة للفرح، كنا نعمل ونناقش قصتين قديمتين وكانت كلتا القصتين تتسمان بالبراعة والحبكة والإتقان ومكتوبتان بقدرة فائقة، كانت القصة الأولى تتحدث عن رجل مهووس بالنزوات مما كلفه ذلك فقدان زوجته التى قتلت نفسها وابنته التى تم قتلها كما فقد حريته وانتهى به المطاف إلى دخول السجن، أما القصة الأخرى فكانت عن فتاة صغيرة غير سعيدة؛ بسبب شجار والديها الدائم والتى تذهب إلى مكانها المفضل عند شاطئ مهجور فيغلبها النعاس فى كل مرة ثم ترى بعد استيقاظها فتى كالضفدع أو فتى قد تحول إلى ضفدع فيصبحان صديقين لكن العلماء الذين حولوه إلى ضفدع عن طريق إعطائه جرعة من الدواء قاموا أيضًا بتحويلها هى إلى يعسوب، ولا أستطيع أن أخبرك بما حدث بعد ذلك لأن صاحب القصة لم ينته منها بعد لكننى أعرف عن يقين بأن تلك الأحداث هى التى أعادت الوفاق إلى والديها.

صورنا عدداً من النسخ لتلك الصفحات استعداداً لنشرها وقدمنا نسخة لكل الحاضرين ثم استمعنا لها لمدة دقائق قليلة وقام كل منا بالتعليق موجهًا كلامه إلى الكاتبين وبعد ذلك جاء وقت التعمق فى دراسة القصتين فرحت أقرأ بصوت عال وببطء وكنت حريصًا على التوقف بعد الانتهاء من كل جملة لمعرفة مدى اهتمامهم حتى وصلنا إلى مشهد الرجل وهو يمارس نزواته فقلت لمؤلف القصة: أنت بارع فى الوصف لكننى لم أشعر بالقصة بعد، لقد أحببت إظهارك المبكر للحب بينه وبين زوجته فهل تستطيع مساعدتى فى إدراك كيفية فقدانه لعائلته بسبب تلك النزوات؟

قال لى: ينبغى أن أخبرك أننى عندما شرعت فى الكتابة تراجعت قليلاً لأننى لم أشأ أن أصيب القارئ بانتكاسة ما.

قلت: ذلك هو الموت، أنت لا تستطيع أن تفكر بشأن القراء أو المشاهدين بهذه الطريقة وتتوقع أن تكون الكتابة طيبة ومبهجة فقط.

إن السؤال الأهم الذى لا يفارقنى مع كل جملة أكتبها هو: هل هذه الجملة حقيقية وهل تتسم بالواقعية وهل يمكن تصديقها؟ ذلك هو الشيء الوحيد الذى يهم وهذا السؤال هو الذى يعنينى وهو الشيء الوحيد أيضًا الذى يجب أن يستولى على تفكيرى.

قال طالب آخر: كنت أريد مزيداً من التفاصيل فقد رغبت مثلاً فى معرفة شكل الحجرة التى كان سينطلق منها.

وقال آخر: هل تتذكر ذلك المشهد فى قصة "المرض" (هى واحدة من القصص التى كتبها طلبتى) التى تحكى عن مدمن سابق حين شاهد ابنه وهو يشرع فى تناول الحبوب بملعقة متقوسة فاضطر الأب لبعثرة محتويات الملعقة لأنه لم يشأ لولده أن يكون مدمنًا؟ هل تستطيع تناول بعض التفاصيل كما حدث فى تلك القصة؟

قلت: أنت تصف إحساسه بالنشوة الجنسية لحظة الجماع فهل ذلك حقًا هو الشعور الذى ينتاب المرء فى حينها؟ وهل تشعر بكل ذلك فى أعضائك التناسلية؟

قال الكاتب: يا إلهى، يحدث دائمًا ذلك الإحساس فى لحظة القذف.

سألت قائلاً: حقًا؟

استطرد: أحيانًا أجدنى مضطراً للتوجه إلى الحمام لإفراغ ما فى معدتى وينتابنى شعور بالقرف.

وهل ذلك شيء جيد؟

قال أحد الطلبة: لقد سمعت عن البعض ممن يحدث لهم الشيء نفسه.

قلت: مهلاً، أخبرنا عن الذى يحدث.

أخبرنا بقليل من التفاصيل كيف أن العملية برمتها بكل تفاصيلها قد كلفته نقود العائلة التى كان ينبغى أن يشترى بها البقالة كما أن شخصًا ما قد أخبره بأنه أنفق النقود الخاصة بشراء حذاء جديد لطفله.

قلت وكررت القول: تلك تفاصيل عظيمة ومهمة التى أخبرتنا بها للتو لكنها ليست موجودة بالقصة فأرجوك أن تكتبها.

قرأنا القصة من جديد بعد إضافة التفاصيل فضم أحد الطلبة ذراعيه وهو الشخص السابق المدمن نفسه على المخدرات وقال: لقد شعرت بالقشعريرة تسرى فى جسدى.

قلت: ذلك ما تريده، إذا أردت الكتابة عن المخدرات فعليك أن تجعل القارئ مدمناً لذلك المشهد وأن تجعلنا نفهم السبب الذى من أجله هجر عائلته وأن تجعلنا نفكر فى التخلى عن عائلاتنا، إنه الشيء نفسه مع أى شيء آخر فإذا كنت تصف فتاة صغيرة تتحول إلى يعسوب فينبغى أن يرغب القراء فى التحول إلى يعسوب، يجب أن يتوحد القارئ مع ما يقرأ.

تبادلنا مزيداً من الأسئلة: هل يدعو راكبو الدراجات دراجاتهم بالجياد؟ هل يدوى جوادك كصوت الرعد عندما تبدأ فى الانطلاق؟ أم أنه يبدو كالزورق؟ أم أنه يكون شيئًا آخر؟ وإذا كانت الشخصية المحورية يحب زوجته ويشعر فى الوقت نفسه باستلطاف وقبول نحو صديقته فماذا تشبه صديقته تلك وماذا ترتدى؟

انتقلنا بعد ذلك إلى القصة الثانية فقرأتها ببطء وسمعت سؤالاً يتردد عبر أرجاء الفصل: بماذا تشعر عندما تبدأ الأجنحة فى النمو؟

اقترح أحدهم قائلاً: أعتقد أنه قام بتقسيم السؤال إلى جملتين.

أجاب آخر بإصرار: لا.

كان اثنان من الطلبة فى تلك الأثناء يحاولان اكتشاف ومعرفة ما فعلته سارة بأجنحتها الجديدة بينما كان شخص آخر يتساءل عن الذى شاهدته أثناء التحول من شخص فرد إلى عيون مركبة.

قال أحد الحاضرين متسائلاً: هل ستصبح قادرة على الكلام؟

وتساءل آخر: ماذا سوف تأكل؟

راحوا يتحدثون فى وقت واحد ورحت بدورى أحدق فى الطلبة الجدد فاستطعت أن أبصر نظرات من الاضطراب فوق وجوههم مع اهتمام شديد لما يسمعون، أدركت فجأة ما يشعرون به تجاه الفصل فانفجرت ضاحكًا وعرفت أننا فى حضور احتفال بالكتابة الإبداعية ولم أكن متأكدًا من أى شيء يمكن أن يكون أكثر متعة وإثارة من ذلك.

قلت للطلبة فى جامعة واشنطن الشرقية: إن أول قاعدة للنشر هى ألا يكون مسموحًا للناشر أن يتدخل فى العمل ويستطيع الكاتب عندئذ أن يعبر عن استيائه كما يشاء ولكن إذا قدم الناشر اقتراحًا ما لم يعجب الكاتب فتلك ليست مشكلة كبيرة، أتذكر ذات مرة منذ زمن بعيد أننى كنت على علاقة بامرأة وقد اشتركنا فى كتابة عمل ما وحين قدمت يومها اقتراحين لم أجد أهمية لهما قلت لها: لماذا؟

تنهدت بقوة وقالت: لماذا سألتنى إبداء النصيحة والإفصاح عن رأيى ما دمت لم توافق؟

كنت أعرف حينها أننا نمضى ليلة فاتنة.

يمكننى القول بطريقة أخرى: إن الكاتب دائمًا هو الرئيس الأوحد لأى عمل ولا ينبغى لأحد أى كان أن يتدخل وعلى الناشر طوال الوقت أن يكون يقظًا تمامًا لأفضل اهتمامات الكاتب أما إذا لم يستطع الالتزام بذلك حتى لو كان صديقًا فعليه أن يصمت.

إن مهمة الناشر الوحيدة هى مساعدة الكاتب على كتابة ما يريد كتابته بشكل جيد وبأفضل طريقة ممكنة، ليس من وظيفة الناشر أن يملى على الكاتب ما يريد هو كتابته وذلك ما جعلنى أرفض عقدين مع ناشرين مختلفين لأنهما أرادا فرض أفكارهما.

عنما أعمل مع شخص ما فى أى عمل يكون لدي إحساس قوى بأن ذلك الشخص يريد مساعدتى وأن ما يقوله هو الشيء نفسه الذى أحتاج لقوله وإذا ما حدث ذلك فإننى أصبح قابلاً لسماع أى نصيحة رغم أننى دائمًا لا أعمل بها لكننى لا أغضب من سماعها، إن كل شيء قلته عن الناشرين ينطبق تمامًا على المدرسين وهذا يعنى -وقد تكون غير معتاد على سماع ذلك وبخاصة فى المدرسة- أنك أنت الرئيس الأوحد.

نحن نعرف أن التسلسل الهرمى برمته فى المدرسة هو عكس ما يجب أن يكون عليه فأنت لست موجوداً هنا من أجلى كما أننى لست موجوداً بالفصل للإشراف والمراقبة والمشرف موجود لمساعدتى والقائمين بالأعمال الإدارية لمساعدة المشرف، كل شيء مرسوم وأنت السبب فى وجودنا كلنا هنا وإذن فماذا تريد أن تفعل؟

أخبرنى رئيسى فى جامعة واشنطن الشرقية أن سياسة الحضور الرسمية فى فصلى الدراسى يجب أن تنطوى على طرد أى طالب يتغيب أكثر من مرتين دون التنبيه عليه من أستاذه، بدا ذلك الأمر جنونيًا بالنسبة لى وفيما بعد كما ذكرت سابقًا بدا أن هناك حاجة لعقاب أولئك الذين يتغيبون بدون أسباب قوية ولكن لمجرد أنهم مستهترون ولا يقدرون المسئولية.

جاء الحل من إحدى الطالبات حين أحضرت معها بعد غيابها ليوم واحد مذكرة طويلة موثقة ويصعب قراءتها من الطبيب الذى يعالجها وصادف أن اسمه "فرانكشتين" وكان يصف فيها كيف أنها كانت فى احتياج لعمل بعض التحاليل وقال لى بأننى إذا حدث وذهبت إلى قسم البيولوجى وحدث أن نظرت إلى مجموعة من العقول الإنسانية التى تصادف وجودها فى ذلك الوقت وحدث أن لاحظت أن أحد تلك العقول غير موجود فلا ينبغى أن يصيبنى القلق لعدم وجوده، إن العقل موضوع فى مكانه للقيام بوظيفة مهمة وجيدة.

كانت واحدة من الطرق الوحيدة التى ألزمت نفسى بها فى المدرسة هى ألا أقرأ أبداً أيا من النصوص المقررة وكنت أفضل ولا أزال أسلوب الحوار والمناقشات بين الطلبة وعكس ذلك كان يصيبنى بالملل والضجر وكان إنجازى الذى أفتخر به أن مدرس اللغة الإنجليزية فى المدارس العليا قد عمل بأسلوبي نفسه وقام بتطبيقه على ثلاثين من التراجيديات التى لم أقرأ سوى ثلاث منها فقط ويجب القول إن سنوات عديدة قد مضت على العمل بتلك الطريقة، كان لى صديق أيضًا كتب تقارير كتابية بطريقة روتينية عن كتب لم تكن موجودة وكان صديق آخر كثير الاطلاع مثلى ومثل بقية أصدقائى ممن كانت أوراقهم التاريخية تتكون فى الغالب من أوصاف كاملة التفاصيل عن معارك مغمورة لم تأخذ نصيبها من التأريخ.

إننى أريد بالطبع تشجيع ذلك النوع.

توصلت مع طلبتى إلى أن أى وقت يتغيب فيه أى طالب يتم خصم درجة من درجاته.

كان الأسبوع الرابع من الفصل الدراسى وفى الأسبوع الماضى عندما كتبت إحدى الطالبات قصة فرانكشتين أضافت إليها ورقة عبرت فيها عن اشمئزازها وشعورها بالقرف عندما شاهدت امرأتين تتبادلان القبل، تأثرت أنا من سرعة يأسها من الاشمئزاز فكتبت لها فى الورقة الخاصة بها متسائلاً عن السبب وراء ما استبد بها من شعور بالضيق والقرف، ثم سألتنى بدورها ولكن داخل الفصل قائلة: ألا تعتقد أن ممارسة الجنس بين امرأتين شيء مثير للاشمئزاز والقرف؟

قلت بمنتهى الأمانة: إننى فى الغالب لم أفكر يومًا فيما يخص حياة الناس الجنسية، أنا لست متأكداً من أننى أريد على وجه الخصوص أن أعرف شيئًا عن تفاصيل تلك الأنواع من الشذوذ الجنسى والتعلق بالجنس الآخر وأولئك الذين

يمارسون الحب سوياً وهم من الجنس نفسه ولكننى عندما أفكر جدياً فى الحياة الجنسية لشخص ما فإن استجابتى تتأثر فى العموم بحقيقة أن الكثير مما أسمعه عن تلك الحياة وإدراكى لتعقيدات مختلف الناس فى محاولاتهم البحث عن المتعة والتواصل من خلال مجتمع متصدع وخوف متصاعد فإننى أكتشف ضرورة أن أحتكم للمحاولات غير الضارة وغير العنيفة نحو الآخر دون النظر لرغبتى فى المشاركة بنفسى فى ذلك التصرف أم لا.

قالت: ولكن ماذا لو أخبرت والديك بأنك شاذ؟ ما الذى سيفكران فيه عندئذ؟

قلت وقد أدركت فجأة أهمية السؤال بالنسبة لها: أنا لست على اتصال بوالديْ ولا أعرف شيئًا عنهما ولكن بعيداً عن حب الاستطلاع فقد سألت أمى ذات مرة السؤال نفسه فأعربت فى البداية عن عدم اهتمامها بالموضوع وقالت بأنه لا ينبغى لها أن تهتم بمثل تلك الأمور التى -من وجهة نظرها- هى أمور عادية لا يجب أن نحملها أكثر مما تحتمل وأضافت بأنها لو كانت كذلك فإن الأمر برمته لا يؤثر فيها ولا يعنيها وإذا ما حدث وترك أثراً ما فإننى سأظل الشخص نفسه الذى كنته قبل أن أخبرها بخمس دقائق ثم استطردت وقالت بأنها أحبتنى من قبل فكيف لمثل تلك الأمور أن تقلل من حبها لى.

قالت بفم مفتوح عن آخره: هل قالت أمك ذلك؟

أجبت قائلاً: نعم.

وأضفت بينى وبين نفسى دون أن أقول لها: أعتقد بأنك تأملين ذات يوم أن يقول لك والديك الكلام نفسه.

بعد سته أشهر جاءت الطالبة نفسها إلى مكتبى ورحنا نتحدث عن الدفعات الدراسية الجديدة ثم قالت: أنا الآن فى علاقة غرامية مع شخص ما.

تسلحت بالشجاعة الكافية وقلت متسائلاً وأنا أبتسم: ما اسمها؟

أجابت قائلة: إنها امرأة.

قلت: هل تشعران بالسعادة معًا؟

قالت: نعم، أوه، نعم.

قلت: وأنا كذلك.

(إن التفكير بعمق فى ثقافتنا يؤدى بك إلى أن تصبح شخصًا غاضبًا كما تتسبب فى غضب الآخرين وإذا لم تستطع أن تحتمل ذلك الغضب فإنك تبدد الوقت الذى تفكر فيه بعمق، إن أحد مكافآت التفكير العميق هو ذلك الاحتدام الشديد للغضب عند اكتشاف الخطأ، أما إذا كان الغضب ممنوعًا فإن الأفكار ستتضور جوعًا حتى تموت).

«جولز هنري»

التفكير

كان الوقت متأخرا ذات يوم من أيام الأسبوع الرابع حيث كنا نقوم بعمل تدريب آخر في الفصل أطلقت عليه اسم الطفل المزعج، اتسم ذلك التدريب بآراء كثيرة وثرية وبتكرار الأسئلة مرات ومرات كما تناول كل الآراء المكبوتة، لماذا تشعر بما تشعر؟ لماذا يكون ذلك الأمر مهمًا؟ وهكذا حتى إما أن يصيبك الذهول أو تصل إلى مقدمات منطقية لما بنيت عليه أفكارك.

كانت قواعد لاعب البيسبول المحددة هي أحد الأمثلة التي تضمنت آراءً مكبوتة.

وكان سؤال الطفل المزعج: لماذا؟

أجاب أحد الشباب الأذكياء قائلاً: إن القاعدة تجعل المديرين يتجنبون القرارات الصعبة.

تساءل الطفل: لماذا في هذه الحالة يكون تجنب الأسئلة الصعبة شيئًا سيئًا؟

أجابه الشاب: القرارات الصعبة، الأخلاقيات، الروحانيات، الإجراءات العملية هي جوهر الدراما، إنهم يكتبون بشكل يثير التشوق وفي مجال الترفيه والتسلية تكون الدراما والتشويق شيئًا جيداً تمامًا مثلما يحدث في رواية جيدة أو مسرحية تجد نفسك راغبًا في أن يواجه البطل الروائي أو الممثل الأول في المسرحية تلك القرارات الصعبة، ذلك البطل في الرواية أو بطل المسرحية هو المدير في حالتنا هذه، كان على البطل في مسرحية هاملت أن يقرر قتل زوج أمه أم لا، إذا لعب الكرادلة دور المراوغين فإن على "توني لاروسا" أن يقرر إما أن يسدد ضربة لـ"مات موريس" أم لا.

لماذا تكون الدراما والتشويق شيئًا جيدًا بالنسبة للأعمال الترفيهية؟

إن القواعد الخمس الأولى للكتابة هى ألا تصيب القارىء بالملل، فهل يستطيع الناس متابعة العمل أو قراءته بدون تشويق؟

لماذا تكون القرارات الإدارية أكثر دراماتيكية من الأعمال التى تدار فى المنزل؟

لسبب ما أيًا كان فإننى أفضل التحديات العقلية عن التحديات الجسدية ربما لأنها أكثر متعة بالنسبة لى أن أضع نفسى فى موضع المدير وأستطيع أن أضع القرارات (ولا تفكر حتى فى سؤالى عن المتعة التى أشعر بها وأنا أضع القرارات)، ذلك أفضل لى من أن أكون فى وضع اللاعب الذى يكون مدفوعًا لضرب الكرة من المكان المناسب للمضرب ويظل فى متابعتها بعد ذلك إلى حيث تذهب.

وإذا ما كانت تلك هى الحالة فلماذا تحلم بنجاح عملك المنزلى بدلاً من إدارة فريق لكرة البيسبول؟

حتى حينما كنت طفلاً كنت أفضل لاعبى البيسبول عن تلك الأعمال المنزلية ولذلك فإننى لا أعتقد أنه كان من السهل أن أكون رياضيًا حينها وأن خيالاتى تطابقت مع ميولى، أعتقد أن الفرق هب بين العمل والملاحظة؛ لأننى إذا ما ذهبت لملاحظة أو مراقبة شيء كفيلم سينمائى مثلاً أو مشاهدة مباراة فى البيسبول وإذا كان لا بد لى من الاختيار بينهما فإننى بالأحرى سأكون منحازًا للدراما الذهنية التى تحث العقل على التفكير ولن يثيرنى كثيرًا أداء اللاعبين.

إن الكتب والأفلام السينمائية بالنسبة لى كذلك تمثل حقيقة قاطعة؛ لأنها أعمال ذهنية ويزداد حبى وإعجابى بالكتب والأفلام السينمائية أكثر من أى شيء آخر كلما تضمنت القصة الفن الخاص بكليهما.

إن الهدف من هذا التمرين - الذى من المفيد أن تمارسه لمدة طويلة - هو أنه يساعدك على التخلى عن التحيز أو التعصب لفكرة ما ويمكنك من التفكير من جديد فى أفكارك، أنت تريد بالطبع أن تجعل القراء يمضون معك فى متابعة الأحداث دون

ملل والمضى قدمًا فى متابعة الشخصية الرئيسية بكل أفعالها وانحرافاتها أو الدخول فى حجرة قد تكون مظلمة أو مضاءة بقليل من الضوء وبداخلها آلة موسيقية، إن الطريقة الأولية لعمل ذلك هى أن تصف بدقة ما تراه الشخصية الرئيسية وما الأشياء التى يسمعها ويتذوقها وماذا يمكنه أن يلمس ويشم من خلال مناقشات وجدل لا ينتهى تجعل القارئ من خلاله لا يتوقف عن المتابعة، وكذلك وأنت تصف أوضاعك بدقة وبشكل جوهرى بقدر ما تستطيع، لكن الهدف الأساسى والأولى هو ألا تساعد القارئ، إن ذلك التدريب يساعد الكاتب ويعلمه كيفية التفكير بوضوح ويساعده فى ألا يكون عبدًا لافتراضاته.

إننى أقوم بعمل ذلك التدريب طوال الوقت مع كتاباتى الخاصة ومع كثير من آرائى على قدر ما أستطيع ومثالاً على ذلك هو الرأى القوى الذى كتبته عن عدم القدرة على احتمال الحضارة الصناعية.

لماذا قلت ذلك؟

ليس ثمة طريقة للعيش تعتمد على استخدام المصادر غير القابلة للتجديد فالإفراط فى استخدام تلك المصادر لا يمكن احتماله.

لماذا؟

إذا كانت طريقتك فى الحياة تعتمد على شيء ما قليل الوجود أو موجود بكميات محدودة (كالبترول مثلاً) فإنك أخيرًا ستستهلكه، متى تفعل ذلك وأين ستكون؟ وبالمثل إذا كانت طريقتك فى الحياة تعتمد على استخدام شيء ما قابل لتجديد نفسه حتى لو لم يكن بالسرعة نفسها التى تستخدمه بها فإنك أخيرًا سوف تستهلكه أيضًا.

لماذا تهتم؟

لأننى أهتم بأولئك الذين سيأتون فيما بعد، أولئك الذين سيرثون هذا العالم المنهار.

لماذا تشغل بالك بهم؟

لأنني انسان.

ولماذا يجب أن تهتم بالشأن الإنساني؟

لأن الإنسانية ليست ببساطة كيانًا أنانيًا فى كيس من الجلد، الإنسانية بالنسبة لكل إنسان فى الحقيقة هى العلاقة التى يتشاركون فيها، صحتى وعواطفى وحالتى الجسدية والأخلاقيات كلها أشياء متشابكة ومتصلة بنوعية تلك العلاقة، وإذا كانت العلاقات فقيرة أو أننى قمت بالتخلص من العلاقات التى أتظاهر بأنها ليست علاقات فإننى سأكون أكثر صغرًا وأكثر ضعفًا، مثل تلك الحالات ليست مجرد حالات جسدية وإنما هى أيضًا عاطفية وروحية.

طلبت من الطالبة أن تقول رأيها فقالت: نحن فى حاجة لسمك السالمون المتوحش.

لماذا؟

أجابت بسرعة وثبات: إن التنوع هو القوة.

وما أهمية ذلك؟

إن المجتمعات المتوحشة بتنوعاتها المختلفة هى الأكثر استقرارًا فإذا ما حدثت كارثة ما فإنهم فى تلك المجتمعات قادرون على الشفاء منها.

ولماذا تهتمين بذلك؟

فكرتْ ثم قالت: القوة الناتجة عن التنوع ليست هى القوة المادية وإنما أيضًا هى قوة عقلية ووجدانية، كل شيء فى المجتمعات الإنسانية هو درس من الدروس بالطريقة التى نتعلم بها دائمًا كيفية العيش فى مكان خاص، إن الملاحظة والتعاون مع كل شيء حولنا هما من القواعد الأساسية لتطور جنسنا البشرى وتطور الشخصية الإنسانية، إن الاختلاف يعنى مزيدا من الدروس مما يعنى مزيدا من الفرص التى نختبرها فى حياتنا.

لماذا نحن فى حاجة لذلك السمك المتوحش؟ ولماذا لا نستطيع زراعته؟

نستطيع زراعة كل أسماك السالمون المتوحشة لكى نأكلها ولكننا سنكون فى حاجة لاستخدام كل مهاراتنا التقنية فنحن ما نزال نجهل الطريقة التى تعيش بها، تلك الأسماك تعلمنا الكثير عن نفسها وإذا ما لاحظنا السالمون المتوحش وردود أفعاله بالنسبة لردود أفعالنا فسوف نتعلم شيئًا عن مياه الشرب النظيفة وعن الأشجار التى تمدنا بالطعام وعن كيفية التعامل مع إخوتنا فى الإنسانية بمختلف مشاربهم، وإذا عزلنا السالمون وتجاهلنا الدروس المستفادة منها فإننا نستطيع الاستمرار فى ردود أفعالنا وندمر بذلك كل شيء ثم نموت وكذلك الأمر مع كل أنوا ع التنوع من حولنا، إذا تجاهلنا كل الدروس الكبيرة والصغيرة من حولنا وفرضنا على إخوتنا فى الإنسانية الشروط التى ابتدعناها للعيش سندمر كل ما نحلم به ونموت بسرعة.

كان تحليلها رائعًا فأصيب الفصل بالذهول وكذلك أنا.

قسمت الطلبة إلى زوجين وطلبت منهم أن يتدربوا على ذلك وكانت النقطة التى ركزت عليها هى أن يكتشفوا ببساطة كل متناقضاتهم ونقاط الضعف التى يعانون منها ثم حاولت مساعدتهم فى تطوير أفكارهم من أجل الالتفاف حول متناقضاتهم وطلبت منهم أن يشحذوا أفكارهم للتغلب على ضعفهم.

كان الهدف الأساسى -كما يحدث دائمًا- هو إثارة جو من المرح.

انتهينا من التدريب وحان وقت الرحيل وكنت حتى هذه اللحظة أحرص على النقاش لمدة ساعة على الأقل قبل وبعد كل درس وفى هذه الليلة كان النقاش مع المرأة التى لم يعجبها حديثنا فى الفصل عن الجنس، كنت أجتاز أحد الطلبة متوجهًا نحو باب مكتبى وكانت المرأة فى طريقها للدخول فأفسحت لها الطريق، تحركتْ مباشرة وبدون تردد نحو مقعدى ثم جلستْ فوقه ولم يحدث أن قام أى طالب من قبل بفعل

الشيء نفسه، توقفت لحظة ثم جلست فوق مقعد آخر دون اعتراض ولم يكن الأمر مقنعًا لكننى لم أفكر بنية الذهاب أو التوجه لأى مكان بأى طريقة.

أسرعت بالقول: أنت فى خطر، وأنت تشكل خطرًا على الطلبة فى الفصول التى تقوم فيها بالتدريس.

ترددت كثيرًا فى الرد فلم أكن متأكدًا من الرد المناسب ومما يجب أن أقول لها.

أضافتْ: ستذهب للجحيم حتمًا وإذا لم تتوقف عن أفكارك الغريبة فسوف يذهب معك للجحيم كثير من الناس.

قلت: أنا لا أفهم.

قالت: ألا تدرك ما تقوم به؟

هززت رأسى وبدأت أتساءل عما إذا كانت تحمل مسدسًا!!

سألتنى قائلة: كيف للإيمان أن يسود العالم بينما الناس تفكر فى نزواتها؟

توجهت إليها بسؤال أيضًا وقلت: لماذا تعتقدين أن الأفكار الناقدة والمختلفة تقضى على الإيمان؟

سحبت مقعدها حتى أصبحت ركبتها فى مواجهتى ووضعت يدها فوق قلبها واليد الأخرى فوق ركبتى.

قلت: هل أنت متأكدة.........

لكنها قاطعتنى وبدأت تصلى.

توجهت إلى الله فى صلاتها أن يغفر لى وأن يمكننى من الإحساس بالخطر الذى يحيق بى.

كانت حقيبة الظهر الخاصة بها موجودة خلفها على الأرض فنظرت إلى ظهرها لمعرفة إذا ما كانت سوستة الحقيبة مفتوحة أم مغلقة، كانت السوستة مفتوحة وكنت

سعيداً لأنها كانت تلمس ركبتى بيدها، تلك الطريقة ساعدتنى فى الشعور بتحولات مفاجئة قبل حدوثها بالفعل وانتابتنى رغبة لو أن طالبًا آخر -أى طالب- كان ينتظر بالخارج.

شيء آخر بداخلى كان يتساءل فى اللحظة نفسها عن تلك المرأة ورحت أتساءل بينى وبين نفسى: من هى هذه المرأة وفى أى شيء تفكر وماذا تريد منى ليس بشكل سطحى وإنما كما يبدو فيما وراء مخاوفها وكيف يمكننى مساعدتها للوصول إلى حيثما تريد؟

واصلت المرأة صلواتها وهى تتوسل إلى الله أن يساعدنى على الفهم.

أود القول بأننى لو كنت قادراً على إدراك ما كانت تبتغيه لقمت بتغيير طريقتى، وإذا كان ذلك هو الهدف أو على الأقل ما كنت قادراً على إدراكه من خلال ما قالته ومن خلال ما كانت تعنيه بالفعل وما كانت تتمناه، كنت قادرا على الإحساس بشعور المرأة بالاشمئزاز والقرف لرؤيتها امرأتين وهما يتبادلتان القبل، تمنيت لو أننى كنت قادراً على مساعدتها أو مساعدة نفسى لكننى لم أستطع، كانت تصلى أمامى بهدوء ثم عادت للجلوس فوق مقعدها ورحنا نتبادل الأحاديث لمدة ليست بالقصيرة وبعد ذلك همت بالرحيل.

تحدثت مع رئيسى عنها فأعرب عن سعادته لو تم نقلها إلى قسم آخر إذا ما كان ذلك سيساعدنى فتقدمت له بالشكر وقلت له بأننى سأنتظر يومًا آخر أو يومين حتى أرى ما سوف يحدث.

جاءت إلى الفصل فى المرة التالية قبل موعد البدء بساعة كاملة وقامت بالاعتذار وقالت بأن تصرفها لم يكن مقبولاً بأى حال وأنها ستترك الفصل إذا رغبت أنا فى ذلك فقلت لها بألا تقلق وأن كل شيء سيكون على ما يرام.

كان اعتذارها بسبب عيد الغطاس وهل هناك شيء يجب علي فعله فى ذلك العيد أم لا وقالت بأنها ستشارك وتستمتع مع بقية الفصل فشعرت بالسعادة.

لم أستطع الإمساك بما يريده ويتمناه طلبتى ولم أعد قادراً على تعليمهم كما فقدت رغبتى فى معرفة ما يرغبون فيه والتأكد من أنهم فى المكان الصحيح الذى أستطيع من خلاله أن أعلمهم شيئًا وكانت محاولاتى للتخلص من ذلك هو تطبيق النموذج البيروقراطى والروتينى القاتل الذى يساعد فى القضاء على العالم، ذلك النموذج الذى يغلب القيم التقليدية على الفردية ويرسخ للأفكار المسبقة ولا ينظر لأفكار الحاضر.

من اليسير جداً القبول بالطلبة الذين يختلفون دائمًا مع مدرسيهم والعمل على تنشئتهم وحتى الاختلاف مع خططى وبرامجى يجعلهم يفكرون فى أنفسهم أو على الأقل ما أتصور مثلهم أنهم يفكرون لأنفسهم، ولكن إذا كان قبولى وطريقة تنشئتى لهم مجرد أى شيء أكثر من قفاز ناعم فوق قبضة المدرس الحديدية فيجب أيضًا أن أرحب كما أننى سأكون شغوفًا لقبولهم، ليس ثمة فرق أو اختلاف أن أتصور نفسى فى محاولة تشجيعهم على التنازل عن الطريق الذى يمضون فيه، إن ما أتصوره كاتجاه يرغبون فيه ويحتاجونه للقيام بمواجهته ليست له علاقة بالاتجاه الذى يريدونه فعلاً، إننى فى حاجة طوال الوقت أن أختلف مع تلك اليقينية وذلك الغموض وتلك الألغاز.

لكن ذلك لا يعنى بأننى فى حاجة لتركهم يجلسون فى مقعدى.

إنه لشيء يدعو للسخرية، حلم المتطرفين بغارات الشرطة فى منتصف الليل أو الجلوس لاحتساء القهوة والتحدث بعيون متلألئة عن القمع وعن معسكرات الاعتقال التى تنتظر الفراغ، وطوال الوقت لا تتمالك الآنسة جونز نفسها مع أطفال الفرقة الثالثة، يحب الناس أن يتبادلوا الأحاديث عن التهديد الفاشى أو التهديد الشيوعى غير أن رؤيتهم للقمع نابعة من الجزء الرومانسى ومن التسامح الذي ينعمون به: المذابح، الأسلحة الغارقة فى الأناشيد الوطنية، وفى الوقت نفسه يعمل شخص ما على إيقاف شخص آخر ليقول له: إن قميصه بدون جيب كما أن بنك أمريكا فى الوقت نفسه يقدم الجوائز للمدارس، الله يعلم باستمرار المذابح لكن البندقية فى عالمنا الغربى المتحضر لا تعرف، حين يترك الأطفال فصل الآنسة جونز الدراسى سيلتحقون

بالمراحل المدرسية المتقدمة ثم الجامعة ولن يكون معظمهم فى حاجة للذهاب إلى معسكر الاعتقال؛ لأنهم بالفعل موجودون فيه أتعتقد أننى أبالغ فى حالة التوتر؟ ذلك ما يثير مزيداً من الخوف، لدينا وهم بأننا أحرار، نتعلم فى المدرسة أن نكون طيبين.

تسيطر الدولة فى المدرسة على عقول الطلبة حتى يفقدوا الإحساس بأجسادهم.

القمع؟ هل تريد رؤية ضحايا القمع؟ تعال وانظر إلى معظم طلبة كلية "سان ديوجو" حيث أعمل، إنهم فى انتظار أن تخبرهم بما يجب أن يفعلوه، إنهم لا يعرفون معنى الحرية وكيفية أن يكونوا أحراراً.

«جيري فاربر»

الاختيارات

يحب الطلبة نظام الدرجات لأنهم دائمًا يعرفون المكان الذى يقفون عنده، شيء ما لم أستطع أن أحبه أبدًا خاصة فى الجامعة وهو أننى غالبًا لم أكن أملك أدنى فكرة عن الدرجات التى كنت أحصل عليها قبل أن يرسلوها لى بالبريد، وفى أكثر من مرة كنت أقضى نهايات أسبوع قلقة قبل ملء الدماغ بالاختبارات النهائية التى تمكنك من تحديد أى من تلك الاختبارات التى يمكنك الاهتمام بها ووضعها فى الاعتبار ثم الانتظار لمدة أسبوعين لمعرفة مصيرى.

(يجب أن أعترف أن تلك الحلقات الدراسية كانت بمثابة ألعاب الماراثون)، جربنا جميعًا الاختبارات حيث كانت غالبية الأسئلة تأتى من المنهج فما الداعى للدهشة إذن طالما نعتمد نظام الدرجات؟

ذلك لا يعنى أننا لا نضطرب من النظام لأننا غالبًا ما نشعر بالاضطراب، إن أحد التغيرات الأولية هو أننى قمت بتحديد عدد الأوراق التى يستطيع الطلبة تقديمها كل أسبوع، كانت نسبة الدرجة فى منتصف الربع الأول ٧ تقريبًا وفى الأسبوع التاسع من الأسابيع الاثنى عشر كانت ١,٧ ثم ساد الهلع وراحوا يسلموننى كومة ضخمة من الأوراق كل أسبوع كى يرفعوا درجاتهم بسرعة، لم تروقنى تلك الأوراق بالطبع ليس فقط لأن الطلبة لم يستفيدوا من الكتابة ولكن لأنهم لعدم قدرتهم على تقديم أكثر من فكرتين أو ثلاث فى الأسبوع وما هو أكثر أهمية من كل شيء هو أن الكتابة كانت فى معزل عن الحياة، كنت راغبًا فى قراءة كتابات عن الحياة وعن عملية الاكتشاف، لكنهم كانوا يفعلون أى شيء للحصول فقط على الدرجات فأخبرتهم بعدم تقديم أكثر من ثلاث ورقات فى الأسبوع وقوبل اقتراحى هذا بالرضا.

قررنا بعد ذلك أن يستقبل الطلبة درجاتهم عن أشكال التعبير المختلفة حتى لو كانت الحصة عن الكتابة، صنع لنا الطباخ الكويتى بعض الوجبات التقليدية وقدم لنا عرضًا مرئيًا لمنزله بينما أحضر شخص آخر جهاز الفيديو لنراه وهو يتسلق الصخور فى حين بادرت أخرى بالرقص أمامنا (كانت توجد فتاة نصف عارية بأحد الفصول التى أقوم فيها بالتدريس لكنها لم تكن هى التى ترقص) وعلاوة على ذلك أحضر شخص آخر شريطًا صوتيًا مسجلاً وهو يعزف لحنًا منفردًا على البيانو، وكانت امرأة ما تعزف على الكمان وقد أحضرت امرأة أخرى - بعد موافقة الفصل - طفليها البالغان عشرة واثنتى عشر عامًا وجاء أحد الرجال بالفاكهة معه بعد أن قطفها من بستانه الخاص وكذلك الخضروات من حديقته، جاء كثير من الطلبة بالرسومات التى كنت أشجعهم على تقديمها بتعبيرات مختلفة.

أدركنا بسرعة أن الأمر يعد ضربًا من الجنون لو أننا فكرنا بأن التعليم برمته يأتى فقط من وضع القلم فوق الورقة أو حتى من وضع العجينة فى الفرن لعمل كعكة لذيذة كى تقدمها لزملائك، ماذا إذن عن الحياة نفسها؟ كيف تتعلم من الحياة؟ إن الطريقة الأمثل التى أعرفها هى عمل الأشياء التى لم أفعلها من قبل، وهكذا قررنا أن يقوم الطلبة فى كل مرة بعمل شيء جديد ثم كتابة فقرة عن ذلك الشيء، ذلك هو النجاح الساحق والسريع، اتجه خبراء موسيقى الروك إلى الموسيقى الكلاسيكية واتجه الفرسان إلى مشاهدة الأفلام الأجنبية، شارك رجل الشرطة المحافظ فى التصدى لمظاهرات الغضب وأمسكوا برجال العصيان المدنى، أصابتنى الدهشة من عدد أولئك البالغين سن العشرين والذين لم يتذوقوا الطعام الهندى، حاول أحد الطلبة أن يستدين لطلب شيء مختلف بينما ظل أحد الزملاء أربعة أيام فى انتظار ما سوف يحدث حتى تورمت عيناه قبل نهاية الأيام الأربعة وبدأ يضحك على أشياء لم يستطع أن يدركها أحد سواه وربما لم يسمع بها أحد من قبل، قليل من الناس من تواعدوا للمرة الأولى فى حياتهم، كان لزامًا علي وضع حد لخمس عشرة درجة لكل شخص بعد أن كتب

شخص ما ورقة واحدة وتعرض لتسعة وثلاثون تجربة جديدة خلال اثنتى عشر أسبوعًا أثارت إعجابى بإبداعاتها الرائعة.

كنت ما أزال أعانى من مشكلة فنية بسيطة، فى التقليد قوة وشيوع وأداة من أدوات التعلم، حين كنت طفلاً وأثناء مشاركتى فى الدورى كنت أضع قدمى بعد قدم "جوان ماريشال" وكان زملائى - لسوء الحظ - يضعون أقدامهم بعد قدم "بوب جيبسون" وفيما بعد كنت أقفز قفزات عالية وأراقب قفزات الآخرين فى الواقع وفى السينما وذلك فى محاولة منى لاكتساب المزيد من خبراتهم ووسائلهم الفنية، كنت أفعل الشيء نفسه فى الحياة وعندما كنت أرى شخصًا ما يتمتع بشخصية تشدنى إليها من حيث كرمها أو ضراوتها أو رقتها كنت أحاول التحلى بتلك الصفات، ذلك شيء حقيقى فى الفن بالطبع فالرسامون يعرفون ذلك للأبد وكذلك الموسيقيون، ألم يكن هو "ت.س. إليوت" الذى كتب: (الشعراء قليلى الخبرة والنضج هم الذين يقلدون أما الناضجون منهم فهم الذين يسرقون).

عندما كنت أعلم نفسى كيفية الكتابة كنت أكتب صفحات كاملة من بعض الكتب التى أحبها وكنت أضغط على نفسى كى لا أتسرع وأحاول تمرير الكلمات من خلال جسدى ومن عينى إلى عقلى مرورًا بالدم المتدفق داخلى ومن خلال أحشائى وقلبى ورئتى قبل أن يقع اختيارى على الفقرة التى يجب أن أكتبها ثم أنتقل مرة أخرى من خلال عينى وعقلى حتى تصل الفكرة من بصمات أصابعى وتنتقل إلى ذراعى وهكذا تتجاوز الكلمات الورق وأشعر بها فى كل جزء من أجزاء جسدى، تعلمت من ذلك كيف تكون البداية الجيدة والنهاية الجيدة ووصف الشخصيات وتصويرها بشكل جيد، تعلمت أيضًا كيف يحرك الكتاب الكبار شخصا ما داخل الحجرة وكيف يظهرون الألم ويعبرون عن الحب، وحتى الآن وقبل أن أبدأ فى كتابة قصة أو مقالة فإننى غالبًا ما أجلس فوق الأرض وأحيط نفسى بخمسة عشر أو عشرين كتابًا وأواصل قراءة الخطوط العريضة لكل كتاب على حدة.

قليلة هي الكتب التي يمكن تجاهلها اليوم، عندما كان أخي "جيم" في الثالثة عشر من عمره تعرض لكسر كبير في ذراعه عند الكوع وكان الرد الطبيعي لتجنب الألم هو إبعاده من الوعي ، إنني أتذكر الأسماء التي كنت أطلقها في طفولتي على الحشائش والزهور الغامضة وأتذكر الأماكن التي يمكن للضفادع الطينية أن تعيش فيها وتلك الأوقات التي تستيقظ فيها الطيور في فصل الصيف كما أنني لا أنسى رائحة الأشجار والمواسم وأتذكر جيداً ما كان يبدو عليه الناس وكيف كانوا يسيرون وحتى الطريقة التي كانوا يشمون بها.

كنت في الثانية عشر وعلى وشك بلوغ الثالثة عشر عندما رأيت للمرة الأولى جثة رجل ميت، حدث في العام ١٩٦٠ منذ زمن بعيد - رغم أنني أحياناً لا أرى أنه زمن بعيد - خاصة في الليالي التي أصحو فيها من أحلامي.

إن التطور الإنساني قد يتبعه أحد طريقين: طريق الحب أو طريق القوة، إن الحضارة تبدأ بالخضوع للعالم والقمع في المنزل، إنني أسمح لجوهر وبنية هذه السطور أن تنفذ إلى أعماقي وتتخلل كل أجزاء جسدي كي تنتقل مني إلى كتاباتي.

تمنيت أن يحدث الشيء نفسه لطلبتي وبذلك تنحصر المشكلة في كيفية حثهم على القراءة فحاولت في البداية أن أطلب منهم قراءة أربعين صفحة فقط في الأسبوع عن أي شيء يريدون قراءته وأخبرتهم أنه من الأفضل أن يغيروا من نوعية ما يقرءون كما يفعلون مع طعامهم ووسائل الترفيه التي يحبونها لكنه لم يمض وقت طويل حتى بدا واضحاً أن غالبيتهم لم يقرأ شيئاً على الإطلاق وبدوري لم أتوجه باللوم لهم.

نملك جميعًا القدرة على الاختيار، في كل لحظة من كل يوم وحتى الآن فإنني أستطيع كتابة هذه الجملة أو أنني أستطيع كتابة جملة مختلفة، إنني أستطيع إطفاء النور والتوجه للنوم، كما يمكنني ممارسة أحد الألعاب على الكمبيوتر أو تدليل ومعانقة الكلاب والقطط وأستطيع الاتصال بأحد الأصدقاء أو ركوب سيارتي والتوجه إلى

أقرب سد أو خزان ويمكننى أن أهاجم أسماك السالمون بالمجرفة والمعول، كما يمكننى محاولة السباحة إلى سيبيريا رغم أن تلك المحاولة ستنتهى غالبًا بموتى.

إن كل مدرس يصنع اختياراته، كل لحظة من كل يوم، إنها تختار ما تقوم بتدريسه كما تختار الطريقة التى تقوم فيها بالتدريس واختيار مادة التدريس نفسها وذلك لأنها ببساطة تتبع نوع وظيفتها وتتبع التقاليد وما يمكن أن يطلبه منها رئيسها لكى تقوم بتنفيذه، غير أن ذلك لا يعنى أنها لا تصنع اختياراتها، إن الاختيارات التى لا تأتى منك مباشرة يمكن اعتبارها -مع ذلك- اختيارات.

كل طالب يصنع اختياراته أيضًا فى كل لحظة من كل يوم، إنه يختار ما يتعلمه وكيف يتعلمه وما إذا كان يريد التعلم أم لا وذلك ببساطة لأنه يتبع نوعية المطلوب منه ويتبع التقاليد وما يمكن أن يطلبه منه أو يتوقعه والداه أو أستاذه أو أصدقاؤه وذلك كله لا يعنى بأنه لا يصنع اختياراته.

إن كل موظف بيروقراطى يساهم فى جعل القطارات تتوجه برفق نحو معسكرات الموت إنما هو يصنع اختياراته، وكل جندى أمريكى أو غير أمريكى يعمل على إسقاط القنابل فوق أهداف مدنية فإنما أيضًا يصنع اختياراته، وكل رجل يعمل بالسياسة أو الشئون العامة ويخبرهم بإلقاء تلك القنابل فإنه كذلك يصنع اختياراته كما أن كل شخص يعمل فى صناعة تلك القنابل ويصنع الألومنيوم أو الوقود للطائرات التى تحمل تلك القنابل يصنع أيضًا اختياراته كل ثانية.

اليوم فقط بعد كتابة هذه الفقرة تلقيت رسالة عبر البريد تخبرنى بضرورة أن أراجع الضرائب عن العام السابق، ربما كنت مدينًا للضرائب وأنا لا أعرف وهكذا فإننى الآن أملك الاختيار، أستطيع أن أدفع الضرائب وبذلك أسهم فى دعم الجريمة وفى الاستغلال الاقتصادى للبشر ولغير البشر، وأستطيع ألا أدفع وأرى ما يمكن أن يحدث، وذلك ببساطة أيضًا لأن معاقبتنا على قيامنا باختيارات معينة لا يعنى أننا لم نقم بتلك الاختيارات، فى الحقيقة أن الطريقة المركزية التى تتوجه إليها ثقافتنا قدمًا هى صناعة الاختيارات التدميرية والتى تبدو أنها أفضل اختيار فى حينها.

كل شخص يافع وكل طفل يصنع اختياراته وكل فرد يسبب الأذى لرفيقه إنما يصنع اختياراته، وتلك الطريقة التى يفهم بها الناس العالم والتى قد تكون متأثرة بتعرضهم لعنف سابق لا تغير من حقيقة أنهم يصنعون اختياراتهم، إن الوجود الكلى المنتشر لذلك الرعب المتمثل فى نسبة الـ ٢٥ ٪ من النساء المغتصبات فى ثقافتنا و١٩ ٪ من اللواتى نجون من محاولات الاغتصاب و٥٦٥,٠٠٠ طفل أمريكى تم قتلهم أو إصابتهم بجروح وعاهات من قبل والديهم أو من قبل الرهبان أو الأوصياء عليهم، كل ذلك يشير إلى أن كثيراً من الناس يصنعون اختياراتهم مما يعنى أن شروط الإطار الاجتماعى تتسبب فى إدراك كثير من الناس لاختياراتهم التى يرونها قابلة للتطبيق والعمل بها كأسلوب حياة كما يرونها الأفضل وربما الأمثل.

الكل يصنع اختياراته، كل مهندس يقوم بتصميم السدود أو يساعد فى حفر آبار البترول إنما هو يصنع اختياره، كل مهندس يعمل فى مجال الوراثة هو أيضًا يصنع اختياره وحين يقوم نظامنا الاقتصادى بتقديم الجوائز لتلك الاختيارات فإنه لا يقلل من قيمة تلك الاختيارات ولا يتبرأ من أولئك الذين قاموا بتلك الاختيارات.

إن كل شخص يبيع حياته بالعمل فى وظيفة لا يحبها فإنه يفعل ذلك باختياره ومهما كان النظام الاقتصادى هو الذى يجبره أحيانًا على القبول بتلك الوظيفة فذلك لا يعنى عدم اختياره.

نحن نصنع اختياراتنا حسب رؤيتنا للعالم فإذا ما رأيت العالم بطريقة خاصة فإن بمقدورك عندئذ أن ترى مبرراً لقبولك بالعمل فى وظيفة لا تحبها وإلا فلن تجد من يقوم بتلك الوظيفة، وبالمنطق نفسه تستطيع أن تنظر من خلال عدسات تساعدك فى رؤية الأشياء بشكل معقول، كذلك توجد طرق عديدة لتقبل مساوئ الأطفال ومفاسد المغتصبين، وهناك كثير من الأسباب التى تجعل الناس يقبلون على اختياراتهم، من الممكن رؤية العالم الذى قبلت العيش فيه وهو يقذف بالقنابل فوق الناس من ارتفاع ٣٠,٠٠٠ قدم كما أنه بمقدورك إدراك القيمة التى يدفعها العالم ثمنًا لتلك القنابل ومن السهل إدراك وسائل الخنق بالغاز وغيرها من الوسائل الإجرامية داخل معسكرات

الاعتقال، من الممكن أن تدرك أنت والآخرون الكيفية التى يبررون بها لأنفسهم تدمير الكوكب من أجل جمع المال والحصول على مزيد من النفوذ والقوة ومن أجل تقوية النظام الاقتصادى، لا شيء من ذلك كله يمكننا اعتباره اختياراً حكيمًا وإنما يمكن القول بأنه مجرد اختيار، إن ادعاءتنا غير المبررة هى التى تحدد الإطارات التى نبنى عليها اختياراتنا وإذا رغبنا فى صنع اختيارات مختلفة يجب علينا تحطيم تلك الإطارات التى تقيدنا والتى يفرضونها علينا، إذا كان لدينا اهتمام بحياتنا وحياة الكوكب الذى نعيش فيه فإنه يجب علينا أن نبدأ بضرورة وأهية التفكير النقدى ولنتعلم كيفية التفكير فى أنفسنا.

لحظات "فورتينو سامانو" قبل إعدامه عام ١٩١٦، "فورتينو سامانو" ذلك القائد المتمرد أثناء الثورة المكسيكية والذى قتلته القوات الفيدرالية عام ١٩١٦ أصبح شخصاً شهيراً لأنه وقف أمام قاتليه وتصدى لهم ثم أمرهم بإطلاق النار، كان يتمتع بهدوء شديد حتى إنه كان يدخن السيجار بثقة وثبات، كان الرجل يقف فى مواجهة الحائط واضعًا كلتا يديه فى جيوبه ويضع قدمه اليمنى فوق حجر بينما كانت ركبته اليمنى تنحنى قليلاً أما وجهه فلم يكن يدل على أى نوع من الخوف وإنما بعض التحدى، كانت شفتاه مشققة وتكشف عن أسنان مشدودة فوق السيجار.

عرضت صورة "فورتينو سامانو" على طلبتى وقرأت لهم العنوان، كان الأسبوع الرابع حين أصبحوا يكتبون قصصهم الخاصة بشكل أفضل وكان الوقت مناسباً لهم للبدء فى محاولة رؤية العالم من منظور آخر وبطريقة مختلفة.

قلت لهم: أريدكم أن تكتبوا عن هذه الصورة من وجهة نظر شخص آخر ولا يهمنى من يكون ذلك الشخص، تستطيعون أن تتقمصوا شخصية "فورتينو سامانو" ويمكنكم أن تصيروا طائراً يحط فوق الحائط الواقع خلفه ويمكنكم أن تكونوا أعضاءً فى الفرقة المكلفة بإطلاق النيران وتستطيعون أن تكونوا المصور الذى التقط تلك الصورة أو الكاميرا نفسها أو أى شخص قروى يشاهد عملية تنفيذ الإعدام، قد

تكونون كلبًا فى الطريق وذلك أيضًا لا يعنينى أما ما يهمنى فعلاً فهو كيفية أن تتحلوا بالأمانة والدقة فى نقل ما تشاهدون وعليكم أن تتقمصوا الشخصية التى تكتبون عنها ولا تكتبوا عن شخص ما وإنما كأنكم شخص ما، هل من أسئلة؟

عرضت عليهم الصورة مرة أخرى وأنا أتجول حاملاً إياها فى أرجاء الفصل وقرأت عليهم مراراً عنوان الصورة فراحوا يفكرون ثم بدءوا يحدقون وأغلق البعض أعينه ثم وقف بعضهم بعد تشجيعى لهم ومضوا نحو الحائط ووضع أحدهم قلمًا من الرصاص فى فمه بينما قام آخر بوضع قلم من الحبر ووضع ثالث سيجارة فى فمه وحاولوا جميعًا أن يضعوا أنفسهم مكان "فورتينو سامانو" فى محاولة منهم لمعرفة ما سوف تخبرهم به أجسادهم لينقلوه كتابة على الورق، وراح آخرون يقفون وكأنهم أعضاء فى الفرقة المكلفة بإطلاق النار فى الوقت نفسه الذى كان البعض الآخر ما يزال جالساً ومواصلاً التحديق وعندئذ بدءوا فى الكتابة.

واجه البعض وقتًا عصيبًا أثناء الكتابة فراحوا يعبرون وكأنهم يلقون خطبًا مستخدمين لغة لا تتناسب بما يكفى مع ظروف الحدث ولم يتركوا لأنفسهم فرصة الإحساس بما تشعر به الشخصية المحورية وراحوا بدلاً من ذلك يصفون المشاعر والأحاسيس من مسافة بعيدة دون الدخول فى أعماق الشخصية ولم ينجحوا فى الغوص فى العالم المحيط بالحدث.

كتب البعض الآخر نوعًا من الكتابة جعلنى أبكى على الملأ داخل الفصل أما الشلب الإسبانى فقد كتب بشكل جميل (دعنا لا نبدد مزيداً من الوقت فلدي قطار يجب أن ألحق به، إذا أخذنى إلى الجنة فسوف أنعم برؤية عائلتى وأصدقائى أما إذا وصل بى إلى المكان الآخر فسوف أجد كثيراً من الأصدقاء أيضًا).

كتبت امرأة ما أيضًا عن "فورتينو سامانو" ووصفته وهو يركز على يده الموضوعة فى جيبه ويدعك إبهامه فى سبابته، لم يستطع إصدار الأمر بإطلاق النار حتى تذكر أذن كلبه حين كان طفلاً، وذلك الطالب المكسيكى.

عرضت عليهم صورة أخرى لبعض المواطنين الروس وهم يفحصون حوالى ١٧٦٫٠٠٠ من جثث المواطنين الذين ذبحهم النازيون فى مدينة "كيرش" فكتبوا قصصاً جيدة أيضاً وتقمص الكثير منهم شخصية امرأة وهى تتعرف على وجه ابنها بينما عبر البعض الآخر بطريقة توحي وكأن الابن الميت يعيد الطمأنينة إلى أمه وكتب آخر عن شعاع ضوء الشمس الرمادى وهو ينعكس فوق الطين بينما يملأ الدم البركة الصغيرة.

سأل أحد الطلبة قائلاً: هل لديك ما تقوله عن الموت؟

لا أعتقد أن لدي ما أقوله عن الموت ولكن لماذا تسأل؟

توقفت لحظة ثم استطردت: لا، إننى أمزح.

فكرت برهة قليلة ثم قلت: إن الكتابة فى الحقيقة تعبر عن لحظات التحول، الانتقال من الحياة إلى الموت، التغيرات التى تطرأ على العلاقات بين الناس والتغيرات التى تحدث فى طريقة الفهم، إن التحولات والتغيرات الكبيرة هى المادة التى تصنع كتابات عظيمة.

وإذن فلماذا لم تعرض علينا شخصا ما وهو يتخرج؟

أولاً لأننى لا أعتقد أن ذلك يعد تحولاً كبيراً كما أتصور أن التحولات الكبيرة تجعل الكتابة أكثر يسراً من التحولات الأقل دراماتيكية ولكن هناك شيء آخر أيضاً وهو أننى أعتقد أن ثقافتنا مرتبطة بالموت الذى نتصرف وكأنه ليس جزءاً من حياتنا اليومية، إننا نخاف من الموت ونتنكر له ونتصور بأنه لن يحدث لنا ثم نعيش حياتنا وكأن الموت يحدث فقط للآخرين ولأشخاص لا نعرفهم ونحيا وكأن الغد قادم دائماً ونهيئ أنفسنا للتأقلم مع أشياء تافهة ومقززة لم نعتد عليها أبداً من قبل ونتجاهل حقيقة الموت الذى يمكن حدوثه فى أى لحظة، فى الوقت نفسه فإننا لا نقف كثيراً أمام الموت ولا نقدم له الاحترام الذى يستحقه فحين نفكر بما يحدث فى الأفلام السينمائية نجد أن الناس يموتون ويقتلون طوال الوقت ونادراً ما يضعون القيمة الشخصية فى

الاعتبار وهنا أتذكر مشهداً فى أحد الأفلام التى يموت أو يستسلم فيها البطل بعد نضال مرير عندما كان " ميل جيبسون " مع امرأة وطفل وتوقفوا أمام طريق القطار حين كان بعض الأولاد السيئين يوبخونهم وهم واقفون وراءهم وانتهى الأمر بأن حطم القطار الأولاد ومن خلال المشهد كله ظللت أفكر قائلاً لنفسى: ذلك الطفل سيعانى من الكوابيس طيلة حياته وسيتعرض للعلاج النفسى لمدة سنوات غير قليلة، لا يهم المرأة ولا يهم عائلات الأطفال ومن المؤكد أنه لا يهم شخصية "ميل جيبسون" الذى هو فى الحقيقة يلعب دور البطل فى كل أفلامه السينمائية.

قال الطالب: أتريد لنا أن نفكر فى الموت بطرق مختلفة؟

قلت: أنا لا يهمنى الطريقة التى تفكر فيها بالموت وإنما أريد القول بأن الموت يحوم فى كل مكان ويتجول فى كل الأركان وأعتقد أنه شيء يستحق التفكير.

(إن الإنسان الذى لا يستطيع أن يفكر لنفسه ويخضع لأفكارالآخرين يظل عبداً لأفكارهم، من الواضح أن الهدف من تعلم التفكير يعد أكثر صعوبة من هدف تعليم كيفية التعلم، لكن الصعوبة التى نضيفها دائما إلى أعبائنا ليست ببساطة كافية لتجعلنا قادرين على ابتكار موضوع هو ملك لشخص آخر، ستتشعر أى كلية جامعية بالفخر والزهو إذا استطاع طلبتها القيام بعمل موسوعى، أن تكون إنساناً كاملاً فإن ذلك يعنى من ناحية أن تفكر فى أفكار شخص آخر وأن تصل إلى النقطة التى تعرف فيها الاختلاف بين الأفكار).

«واين بووت»

المعنى والدلالة

أحضرت معى اليوم إلى الفصل كيسًا من الورق وبداخله صورة وكرة صغيرة وبعض مسامير وواحدة من فاكهة الموز، وضعتهم فى مواجهتى تمامًا فوق المكتب ورحت أعرض على الطلبة فى الفصل كل واحدة على حدة ثم أعطيت الكرة الصغيرة إلى الطالب الجالس على يمينى فراح يتطلع إليها وقام بتدويرها على شكل دائرة وبعد ذلك فعلت الشيء نفسه مع المسامير لكننى تركت الموزة فوق المكتب ثم وقفت وأمسكت بالصورة ورحت أمشى داخل الدائرة وأنا أعرض عليهم الصورة وسألتهم: ما هذا؟

حاولوا خنق ضحكاتهم فقلت: يمكنكم معرفة هذا الشيء.

إنه عنقود يرتدى بدلة من قماش البوليستير.

وقال آخر: انظر إلى شعرهم، إنه يتسم بالوحشية، أنهم يبدون مثل المهرجين.

قلت: إنهم أصدقائى.

قال آخر بسرعة: هل أصدقاؤك من عائلة الحجلة؟

قال آخر: كان أصدقاؤك فى السيرك.

قلت لهم: إن بمقدورهم الضحك كما يشاءون؛ لأننى أتحكم فى درجاتهم وأننى مصمم على استقبال آخر الضحكات.

سال أحدهم: لكنك لا تفعل.

أوه، اللعنة، إذن توقفوا عن الضحك فى هذه الحالة.

لكنهم لم يفعلوا فقلت: لا، إنهم ليسوا من أبناء المدن فى القرن السابع عشر، إنه صيفى السابع عشر، صيف عام ١٩٧٨، إنه نوع من أنواع السحر والسباحة أو الكرة الناعمة أو أول قبلة.........

قاطعنى أحد الطلبة وقال متسائلاً: من المحظوظ من أولئك الأولاد؟

تساءلت أيضًا: ما هذا؟

ثم أشرت إلى الكرة الصغيرة وهى تتدحرج فى كل أرجاء الفصل.

إن رجل الشرطة الذى لا ينفذ الأوامر المدنية ينزلق بدون تفكير إلى ما يقوله "جاك ويب": إن القطر الصغير للمسدس يحتوى بداخله على نوع من الحياة كما يحدث مع أى تشويه يمكنكم القيام به أو كما يحدث بتلطيخ الأوانى الخزفية الجميلة.

قلت لهم: قوموا بالتصحيح لكننى فى النهاية توقفت وطلبت منهم ألا يفعلوا.

تدلت حواجب أعينهم عبر حجرة الفصل وساد كثير من الوجوم فلم يكونوا يدركون ما أتحدث عنه.

كانت عطلة نهاية الأسبوع عندما كنت فى السادسة أو السابعة من عمرى وذات يوم حار كان أخى الأكبر مستلقيًا فوق السرير بعد الظهر وهو يطالع كتابًا بينما كنت أنا جالسًا إلى جواره فى السرير المقابل ولا أعرف لماذا كان يمتلك بعض الكرات الصغيرة لكننى كنت أعى قليلاً لماذا وضعت واحدة منها فى فمى وأتذكر أننى قمت بابتلاعها.

ارتفعت حواجبهم واتسعت عيونهم ثم سأل أحدهم: وماذا فعلت؟

قلت: قضيت أجازة نهاية الأسبوع كلها فى السرير، كنت طفلاً ناضجًا وكنت شقيًا وأمتلك كثيرًا من الطاقة ودائمًا ما كنت أوقع الأذى بإخوتى وأقربائى وحيثما كان أخى الذى كان يكبرنى بعشرة أعوام تقريبًا يأتى إلى المنزل بصحبة إحدى الفتيات لمقابلة العائلة كنت أتدخل بكثير من الأسئلة وبأعلى صوت قائلاً مثلاً: هل ستقوم بتقبيلها يا "ريك"؟ هل ستقبلها الآن؟

كان يستغرق وقتًا حتى يتمكن من الإجابة على أسئلتى فقال لها: "ساندى" ، هذا أخى الأصغر، إنه كذلك منذ ولادته.

اعتاد بعد ذلك أن يأتى مع الفتاة حين يكون والدى وأقربائى بالخارج وأكون أنا فى منزل الجيران وحين كنت أعود للمنزل لإحضار شيء ما كنت أسمعهم فأسارع بالزحف خلف السرير وذات مرة قفزت من رقدتى وقلت: هاى "ريك" هل أنت سعيد برؤيتى؟

قال أحد الطلبة متسائلاً: وماذا فعلت عندئذ؟

أجبت: ماذا تعتقد بأننى فعلت؟ لقد هربت طبعًا إنقاذًا لحياتى.

سأل طالب آخر: لو أننى أنا لكنت قتلتك.

قلت: حسنًا، هذا يعيدنا مرة أخرى إلى الرصاصة وإلى السبب الذى قضيت من أجله إجازة نهاية الأسبوع فى السرير وبطريقة ما خطرت ببالى فكرة لو أننى تحركت بسرعة لأصابنى الانفجار، أن أحدًا من أقربائى ولا حتى إخوتى قد أخبرنى بتلك الفكرة وعلى أية حال فإن كل أفراد الأسرة كانوا سعداء لقضاء إجازة هادئة.

ابتسموا وضحكوا ثم ساد وقت قليل من الهدوء استطعت خلاله رؤية عقولهم وهى تتساءل وتقلب الأفكار، ثمة أشياء لم يفهموها وفى النهاية سأل أحدهم: كيف، كيف انتهى بك الأمر مع الرصاصة؟

أوه الطريقة العادية.

نظروا إلى أياديهم فقلت: كنت أشعر بقلق شديد تحسبًا من توبيخ أمى الذى تفعله معى فى كل مرة، وأخيرًا وجدته ثم أخرجته من أجلى.

توقفت ثم قلت: والآن، ما تلك الأشياء؟

بدءوا يفهمون وعرفوا بأننى كنت فى سباق وقال أحدهم: هذه أفضل قفزة لك طوال حياتك.

وقال آخر: كان يومًا حارًا وكنت تتحرك بصعوبة لأنها كانت مقابلة الموسم الأخيرة.

إنها الفراشات داخل معدتك.

وأضاف آخر: لا عليك بالفراشات، انس أمر الفراشات هل رأيت طوال حياتك امرأة فى القفز العالى؟ إنهن الأفضل.

قلت له بأننى كنت فى كلية يشكل الذكور فيها نسبة ٨٣ ٪.

ضحك وقال: لذلك خرجت من أجل السباق.........

قلت مقاطعًا إياه: شيء رائع، ذلك كل شيء من تلك الأشياء فيما عدا النساء، أنا لم أتواعد أبدًا مع لاعبات القفز رغم علمى بأنهن يظهرن فى شكل بديع بى كل الفرق فى السباق، وطبعًا يمكننا قول الشيء نفسه على الذكور على الأقل فى مثل حالتى.

ضحكوا وتألمت أنا.

أضفت: شيء آخر أيضًا، إنه الأفضل، حين كنت طفلاً ومراهقًا كنت غالبًا ما أقلل من إنجازاتى وكنت أشعر بأننى محظوظ أو أن نجاحى نتيجة لأسباب خارجية، كان خصومى فى كرة السلة فى إجازة وهكذا كنت دائمًا أبحث عن باعث خفى عندما يقوم الناس بالثناء على، والآن نستطيع أن نتحدث فى كل ما نرغب إذا لم تكن الفعالية العاطفية والصحية الخارجية لشخص ما غير ضرورية، إن قيامك بأفضل ما تستطيع يفترض أن يكون كافيًا لكننى أعرف ما أشعر بحاجتى إليه وأعرف تأثير تلك الفعالية عندما أحصل عليها، ذلك هو معنى حلقة السباق بالنسبة لى، كنت الأفضل ولم أستطع التقليل من انجازاتى، كان الحاجز منتصبًا فلم أستطع التصرف حياله لذلك يمكننى إخباركم بقصة عنة عن مكان التنافس فإذا ذهبتم معى يمكنكم عندئذ أن تشعروا بالحرارة القادمة منه وستتنسمون حفرة القفز العالية وتسمعون بداية إطلاق النيران وصوت العاملين وهم يصيحون بكلمة البداية وقعقعة العمود عندما يصطدم به أحد

المتنافسين غير أن كل ذلك هو الخطوة الأولى فقط، يتوجب علي أن أضيف للقصة ميزة خاصة وهدفًا ما، يجب أن تكون القصة ذات دلالة ومعنى.

لقد قمتم بعمل رائع حقًا حين جعلتم القارئ يبحر معكم فى مقالاتكم وقصصكم وأنا أتفق معكم فى كل خطوة وأنتم الآن مستعدون للخطوة التالية والتى من خلالها تقدمون للقراء سببًا يجعلهم ينتبهون إننى متأكد بأنكم على اتصال بالناس الذين يقدمون لكم كل تفاصيل حياتهم اليومية أو تلك التى حدثت منذ عشر سنوات وأنتم لا تعرفون لماذا هم يواصلون ويستمرون فى الحياة وتريدون أن تصرخوا قائلين: أين المعنى والدلالة؟

أنتم تريدون منهم أن يزودوكم بالمحتوى العاطفى وبالثراء المثير للعاطفة، الشيء نفسه يجب أن يحدث عندما تكتبون قصة ما فأنتم لا تريدون المضي بالقارئ قدمًا وفقط كما أفعل أنا معكم حين أعرض عليكم حذاء السباق لكنكم تريدون لهم أن يعرفوا الدلالة والمعنى الذى تريده أنت وعليك أيضًا أن تصل بهم إلى أن ذلك يعنى شيئًا بالنسبة لهم.

التزموا الصمت فاعتقدت بأنهم فهموا ما أعنيه ثم قال شخص ما بعد لحظة وإلى أى شيء ترمز قطعة الموز؟

قلت: إنها وجبة غذائى.

ثمة شيء آخر أرغب فى قوله عن الإطراء والثناء فى الفصل وهو ليس بالشيء المهم بالنسبة لى أن الإطراء والثناء الذى أقدمه دائمًا يجب أن يكون حقيقيًا ولكنه أيضًا مهم؛ لأنه غير مشروط وليس من الجدير القول بأنه إطراء نوعى، يجب أن يكون كذلك لكنه لن يساعد الطلبة أبدًا فى القيام بالثناء على الكتابات التى أحببتها، إن كل الأبحاث والكتابات التى قرأتها توحى بأن الثناء المشروط يقف حائلاً ضد الإبداع، إنه

يجعل القارئ غير قادر على التفاعل مع الكاتب الذى ينشغل فى تلك الحالة بالإطراء والثناء بدلاً من استغراقه فى التأمل.

وجدت فى كل ورقة شيئًا ما يمكن الإشادة به، نعم فأنا ما زلت أدفع بأفكارى المثالية عن الكتابة الجيدة وأركز عليها بين ثنايا الأوراق والكتابات التى أحبها أكثر من غيرها.

غالبًا ما يكتب الطلبة أبداعات عن السياسة أو كتابات تحمل فى طياتها بعض القضايا السياسية لكننى لا أهتم بذلك كثيراً، إننى أقوم بالثناء على تلك الأعمال إذا راقت لى فقط، لقد أمضى أحد طلبتى فصلاً كاملاً من فصول السنة الأربعة وهو يكتب مديحًا فى "رونالد ريجان" وقد قدمت له يد العون وطلبت منه أن يقوم بتحسين منطقه وخطابه الذى كان يتحدث عن حالة القبول فى الفصل الجديرة بالاحترام والمليئة بالحياة وعن تلك المناقشات السياسية مع امرأة فى الفصل كانت قد أقامت حفلاً لكى تحتفل بإطلاق النار على "ريجان".

وبالمثل، وعلى الرغم من أننى لا أحب تناول المشروبات الكحولية فإن طالبًا يعمل بتجارة النبيذ حين انتهى من الكتابة لم أستطع أن أجد شيئًا يحمل قيمة إبداعية ولم تتجاوز كتاباته بعض الإعلانات عن النبيذ وشعرت بالسرور عندما نحيت قناعاتى جانبًا وتخليت عن رؤيتى قليلاً وقمت بمساعدته بالطريقة التى يجب مساعدته بها وكانت سعادتى أكبر حين تمكن تحسن مستواه وكتب بشكل أفضل.

لم أتظاهر أبدًا بأننى لم أكن أملك أقوم بالتمييز والتفضيل وحق الاختيار أو أننى لم أكن أملك رؤية سياسية وكنت أشير إلى طلبتى بأننى لا أتأثر باتفاقهم معى فى الرأى أو قبولهم كل ما أقول.

ما زلت أتذكر أحد الأوراق التى كانت أكثر صعوبة من الأوراق الأخرى، كانت الورقة لرجل التحق حديثًا بحفلة البكالوريوس، لقد قام بوصف اثنتين شبه عاريتين وهما يرقصان وسط حلقة دائرية تضم جماعة من الأصدقاء، كانت واحدة منهما ترقص بجوار العريس الجالس فوق المقعد فقام بعضها فى فخذها بقوة حتى تألمت

وتوقفت عن الرقص ثم غادرت الحجرة وعندما عادت راحت ترقص مع المرأة الأخرى بمفردهما وراحتا تتظاهران بحركات تثير الرغبات الجنسية، كتب الطالب بأن الراقصتين قد نجحا فى اثارته وفتنته وأن ذلك المشهد كان من أكثر المشاهد انحرافًا التى شاهدها فى حياته وقال: أنا لا أفهم لماذا يقومان بالرقص معًا ويعملان على إثارة الأحاسيس الجنسية بينما يمكنهما القيام بذلك مع أى واحد منا؟ لا بد أنهما شاذتان!!

عندما انتهيت من القراءة كنت غاضبًا بشدة من ذلك الرجل وتلك الثقافة التى تخلد هذه المواقف والممارسات التى كنت أهتز لها، أردت أن أوقظه، كانت ثمة ظروف فى مثل تلك الاستجابة قد تكون مناسبة لكن إدراكى لاختلاف القوة بين المدرس والطالب جعلنى أتوقف فأنا لا أنسى أبدًا ذلك الأستاذ فى الكلية الذي قال لى فى الفصل بأننى شخص ماكر ومراوغ وغبى ولا يهمه أى شيء وكذلك لا أستطيع أن أنسى شعورى الناتج عن تلك الكلمات، إن المدرسين يملكون سطوة لا يجدون عائقًا فى فرضها على الطلبة وغالبًا ما يعقب تلك السطوة الإحساس بالمسئولية فى استخدامها بشكل مناسب ولائق، شعرت بسعادة بالغة حين قرأت تلك الورقة فى البيت لأنها استغرقت منى طوال اليوم أو معظمه فى التفكير فى كيفية الاستجابة المناسبة وفى البحث عن الشكل اللائق لرد الفعل، فجرت الورقة كثيرًا من الموضوعات المثيرة ورحت أتساءل بشكل خاص عن الانحراف وقلت لنفسى بأن المرأتين ارتضيتا القيام بتلك الرقصات وكذلك قبل الرجال فى الحجرة مشاهدة المرأتين ومن الواضح أن شخصًا ما كان يعتقد بأن له الحق فى عضهما، لماذا إذن تتسم المرأتان بالانحراف؟ إننى أتساءل أيضًا عن موضع كلمة الاحترام فى مثل ذلك المشهد وما العلاقة بين الاحترام والجنس؟ وأين يكمن الاحترام فى العلاقة الجسدية بين رجل وامرأة؟

أريد القول بأننى استطعت تغيير مواقف ذلك الرجل تجاه النساء ونجحت فى تغيير علاقاته المستقبلية وحياته لكننى لم أكن أملك أى فكرة عن كيفية قدرتى على الاستجابة لما فعلت، إنه لم ولن يعيد كتابة مثل تلك الورقة مرة أخرى كما أننا معًا لن نناقشها.

كنت أيضًا أفكر بعناية فى كيفية الإطراء والمديح التى يتوجب علي تقديمهما للطلبة ولأننى أعرف كيف يكون شعور الطالب وكيف يكون إحساسه بآدميته كانت عملية الإطراء وبخاصة أمام الجمع محل تساؤل وأتذكر فى الوقت نفسه كيف يكون الإحساس سيئًا عندما لا يشعر الآخرون بنوع من المديح والإطراء، أتذكر تلك الإثارة التى شعرت بها عندما كانت المدرسة تقرأ شيئًا كنت قد كتبته فى مواجهة الفصل وذلك الارتباك الذى أصابنى وهى تقرأ من خلال كومة كبيرة من الأوراق حتى قاربت على الانتهاء دون أن تقرأ ورقتى، فى بداية الربع الأول من كل عام كنت أقول لطلبتى بأننى فى الوقت المناسب سأقرأ مقتطفات من كتابات كل شخص.

كان ذلك لخلق جو يستطيع فيه الطلبة أن يشعروا بما يكفى من الراحة مما يساعدهم فى البدء باكتشاف محتويات جلودهم ونوع بشرتهم وبينما كان طلبتى يواصلون تطورهم ككتاب ومفكرين وآدميين ظللت أفكر بأن ذلك العمل سهل فعلاً وكيف أن طلبتى قد قبلوا ذلك طواعية وكانوا يحبون ما هم عليه ويقبلون سنوات عمرهم التى تنحصر فى عمر المراهقة ويشعرون بقرب المسافة بينهم وبين آبائهم وأساتذتهم وبين العاملين فى المدرسة وزملائهم فى الكنيسة، لقد شعرت بأننى قمت بعمل جيد.

إننى مدرك تمام الإدراك بأن جنسى الذكورى يمنحنى ميزة كبيرة للقيام بعملية التدريس وبالطريقة التى أعمل بها وكذلك أنا أعى تمامًا بأن كونى من الذكور يمنحنى أيضًا ميزات تقريبًا فى مناحى الحياة، ساعدنى لون بشرتى الأبيض أيضًا فى الشعور بالتميز بالإضافة إلى كونى طويل القامة، كل تلك الصفات المتميزة مكتسبة من الثقافة.

ذلك التسليم بالسلطة قد يراه البعض ضعفًا، شيء سيئ حقًا لأن بعض الناس أو الكثير من الناس يفهمون العالم ويتعاملون معه وكأنه صراع القوة الذى لا ينتهى والذى هو عالم مخيف جداً ولكنه محتمل سواء من الطالب أو المدرس أو القائم

بالأعمال الإدارية أو أى شخص آخر أن يحاول استغلال ذلك الضعف المدرك وفى العموم فإنه يشكل ألمًا فى المؤخرة.

وبالمناسبة عليك أن تلاحظ بأننى لم أقل بأن التمرد على السلطة شيء ضرورى ليتكون الألم فى المؤخرة على الرغم من وجود أوقات يكون فيها بالتأكيد شيء غير مريح لكل المشاركين، إننى أقول بأن هناك بعض الناس وأكرر مرة أخرى بأن الكثير منهم من الذين لا يشعرون بالراحة سواء بموافقتهم أم بدون موافقتهم وبصراحة أولئك الذين لا يوافقون يكونون فى وضع أصعب من حيث التعامل معهم.

ليس حقيقيًا أننى استسلمت للسلطة على أية حال، وقد يكون أكثر دقة القول بأننى نحيت بعض السلطة جانبًا لكننى بالتأكيد احتفظت بها قريبًا من متناول اليد، المعادل النفسى لجهاز الإنذار الذى كنت أرتديه فى حزامى أثناء فترة السجن، كان نظام الدرجات فى الاتجاه الصحيح لكننى ما زلت أفرضه من الخارج وما زلت مترددًا وما زلت مصرًا على أجندة الفصل رغم أننى لم أستخدمها قط، وما زلت أملك القوة لطرد أى شخص أقوم باختياره لأى سبب أراه.

دعنا نكون صادقين عن الدور الذى أقوم به فى الفصل، أستطيع قول كل شيء أريده عن محاولة إدارة الفصل لكن الحقيقة تتمثل فى أن ما أقوله وغالبًا فى أى موضوع يحمل أبعد من مغزاه فى فصلى أكثر مما يمكن أن يقوله أى شخص منفرد، إن المدرس يتحدث وينتبه الطلبة له أكثر من انتباههم لأحد الطلبة من زملائهم إذا قام بدور المتحدث وقال الكلام نفسه الذى يقوله المدرس أو شيئًا يدحض كلامه وأتذكر حين حاولت أن أضرب مثالاً تافهًا أن مدرس العلوم فى المرحلة السابعة أخبرنا بأنه من الممكن أن تشرب ما يكفى من الماء لتملأ المعدة والمريء ثم تستطيع بعد ذلك السير إلى المغطس وتميل بوجهك للأمام ثم تصب الماء من معدتك إلى الخارج، إذا قال ذلك أحد أصدقائى لما صدقته ولكن بما أن المدرس هو الذى قال ذلك فقد صدقته فى وقتها وما زلت أتذكر كل ما قاله، يمكن قول الشيء نفسه فى كثير من الأشياء العبثية المشابهة

التى قـالهـا المدرسـون بما فى ذلك كل مـا قـامـوا بتـدريسـه فى الريـاضـيـات والعلوم والتاريخ والاقتصاد وهكذا.

وهل لم أفرض أنا أجندتى الخاصة أيضًا لاختيار الموضوعات التى يمكن التحدث بشأنها فى الفصل؟ وهل لم أحدد لهم فرضيات سياسية عندما طلبت منهم الكتابة عن إعدام الثوار؟ وهل لم أحدد حالات مختلفة بعرض صور الباعة فى شارع وول ستريت أو قـتل المدنيين فى الفلبين وكـوريا وفـيـتنام وبنمـا وجـرينادا والصـومـال والعـراق وأفغانستان؟ لا شك أن الصور التى قمت بعرضها هى صور سياسية بامتياز.

(إن السـلام أو الطمـأنينة والأمن هى أشـيـاء خـرافـيـة وليس لها وجود فى الطبيعة ولا يتمتع بها الأطفال.. إن تجنب الخطر ليس بالشيء الباعث على الأمان على المدى البعيد وليست الحياة ســوى مغامــرة جريئـــة أو لا شـــــــيء عـــــــلـــــــــى الإطـــــــــلاق!!).

«هيلين كيلر»

التخلى عن السيطرة

أعتقد بأننى حين سأكون فى الثالثة والثمانين بينما أقف وأنظر للوراء لرؤية الحياة التى انقضت وعملت بنجاح على تعرية بنية الحضارة النفسية والمادية والروابط الإنسانية غير المتأصلة ومثلها الروابط غير الإنسانية الناتجة عن العبودية، سأقول فى ذلك العمر وأكرر القول للأطفال الصغار بأنهم سيعيشون فى عالم مليء بأسماك السالمون المتوحشة وكثير من الطيور المغردة المهاجرة والفراشات الكبيرة وحيث تنمو أسراب الثيران بسرعة كما تنمو كلاب المدن الجرداء وكما تتضاعف مجتمعات الأراضى المليئة بالأعشاب والتى تتسم بالتعقيد بالإضافة إلى المستنقعات والغابات حيث تنهار الطرق وناطحات السحاب وتنجرف السيارات بعيداً، ربما سوف نجلس ونتحدث فوق رصيف عائم يحيطه المد والجزر من كل اتجاه وبطريقة لم أشاهدها من قبل.

سأبدأ بالقول: إننى أتذكر كل شيء وكأنه حدث بالأمس، كنت أقوم بالتدريس لأحد الفصول المسائية فى ذلك الوقت وذات مساء بينما كنت أسير داخل الفصل رأيت ما كتبه شخص ما بحروف كبيرة فوق السبورة فى جانب الحجرة: (ضع المقاعد فى صفوف منتظمة كما كانت).

سيقول أحد الأطفال: يا له من شيء سخيف!!

تركت الكلمات فوق السبورة وكتبت تحتها بحروف أصغر: (من الذى تقدم بهذا الطلب؟ إذا كنت حارساً وأمينا على المكان فإننى سأسعد بعمل ذلك أما إذا لم تكن كذلك فسأعقد معك اتفاقًا يتمثل فى أن تضع لنا المقاعد فى دائرة ونضعها نحن لك فى صفوف.

سيقول طفل آخر: يبدو ذلك اتفاقًا عادلاً بالنسبة لى.

سأضيف أنا عندئذ: منذ سنتين كتب الشخص نفسه ملاحظة فوق السبورة يقول فيها بأن وضع المقاعد على شكل دائرة يجعل مساحة الفراغ أصعب، عدنا بعد ذلك بالطبع فوضعنا المقاعد فى صفوف وتم تسريح طاقم البوابين وأصبح العمل من الباطن، لاحظت بعد أشهر قليلة بعدم وجود مساحة من الفراغ بعد أن تلاشت تمامًا وانتشرت لفافات من الحلوى وأعقاب الأقلام الرصاص وقطع من الورق ورقائق من الطين فى أرجاء المكان وكان ذلك بمثابة النهاية لعودة المقاعد فى صفوف. فى المساء التالى تم إضافة رسالة أخرى فوق السبورة مكتوبة بحروف كبيرة وواضحة: (لا تكن فجًا قليل الخبرة وإنما عليك أن تنضج وتسارع بوضع المقاعد فى الأماكن المخصصة لها.

كتبت بدورى وقلت: (أيها الطلبة، لا يجب أن تصيروا عبيداً للصفوف والسلطة والتقاليد ولكن يجب الانتباه للمشاعر والسعادة النفسية، إذا لم نتعلم شيئًا من فظائع الهولوكوست ومما حدث فى فيتنام والتدمير المتواصل للكرة الأرضية علينا أن نخضع لتلك الطاعة العمياء للسلطة أو للتقاليد وبذلك تكون المشكلة أكبر بكثير من أى تساؤلات قد يطرحها أى شخص، ألا تعتقدون ذلك؟).

وصل الكثير من طلبتى مبكرين فى الليلة التالية وكانوا شغوفين ومتلهفين لقراءة الحلقة القادمة لكن الأستاذ الغامض لم يصب بالإخفاق وقال: دعكم من ذلك الهراء، نحن هنا فى مدرسة وأنا هنا أحاول أن أقوم بتعليم شيء ما.

كتبت بعد ذلك: وأنا أيضاً، ولهذا السبب أنا أفعل ذلك.

ويصبح السؤال عندئذ: ما الشيء الذى تقوم بتدريسه؟

تصورت أن يأتى الطلبة طوال اليوم إلى فصولهم لمشاهدة هذا النقاش المتواصل وتمنيت أن أبث فيهم ولو قليلاً من التمرد وإلا فسوف يعتقدون بأننى لا أفعل شيئًا لكننى أعلم بأن كثيراً من طلبتى يحبون طريقتى وقد استفادوا كثيراً من تلك الطريقة.

ربما يسأل أحد الأطفال قائلاً: لماذا تعتقد بأنهم استفادوا كثيراً؟

سأجيب عندئذ: لقد أخبرونى.

وسيسأل الطفل: لماذا تهتم بإثارة روح التمرد داخل الطلبة إذا لم تكن ستقابلهم بعد ذلك أبداً؟

لسببين أولهما: أن الثقافة قضت على الكوكب وسببت الأذى لكثير من البشر ولا أستطيع إخبارك كم هو جميل أن تشعر باستخدام الزمن الماضى فى مثل تلك الحالة، أما السبب الثانى: فهو سبب شخصى أكثر من سابقه وهو أن معظم الناس ليسوا سعداء ولا يتبعون قلوبهم ومشاعرهم وذلك من ناحية لأن مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا كلها إلى جانب نوعية الثقافة المنتشرة تؤدى بالناس فى النهاية إلى البعد عن ذواتهم وتكرس للطاعة والامتثال وتعلمهم الخوف من التساؤل، أعلم بأننى حين كنت فى المدرسة كنت تلميذاً بائساً وكنت أتطلع لوسيلة إنقاذ أو أى علامة إرشادية ولم أكن مجنوناً حين رغبت فى اتباع قلبى وأحاسيسى بل أننى أستطيع القول بأن الثقافة السائدة هى التى كانت ثقافة مجنونة لأنها منعتنى من تحقيق رغبتى، إن رؤية التغير ومعرفته كذلك الذى كان مكتوباً فوق السبورة قد ساعدنى حين التحقت بالكلية وإذا ما استطعت مساعدة أولئك الطلبة فى تعليمهم القدرة على التساؤل عن أشياء بسيطة كترتيب المقاعد فى صفوف وتمكنت من مساعدتهم على رؤية شخص يستطيع مواجهة الأفكار بجرأة والوقوف ضد ذلك النوع من العبث وضد السلطة التى لا تستخدم العقل فقد يتبع بعضهم ذلك السلوك حيثما وجد وسيكون ذلك شيئاً جميلاً لأن السؤال حين يبدأ فإنه لا ينتهى.

سوف يتوجه أحد الأطفال بالسؤال قائلاً: لماذا يحاول الوالدين والأساتذة أو أى شخص آخر أن يجبروا الأطفال على فعل أشياء لا يشعرون معها بالسعادة؟

سأقول عندئذ: آه، أنت تلعب لعبة الطفل المزعج، أليس كذلك؟

سيضحك الأطفال بعد ذلك ثم سأقول مستطرداً: فى الليلة التالية كانت توجد رسالة أخرى (لن أبدد مزيداً من الوقت فى النقاش مع الحمقى، وإذا لم تعد المقاعد كما كانت فى صفوف حتى الغد صباحاً فسوف أتوجه مباشرة إلى رئيسك.

قال أحد طلبتي: تلك أعمال قتالية يا ديريك، هل ستقوم باستدعائه؟

طلب منى قليلون منهم ألا أستجيب للأمر برمته لأنهم لا يريدوننى أن أدخل فى دائرة المتاعب فأخبرتهم بأنه من المبكر التحدث إلى رئيسى عن شيء آخر ولمزيد من الدقة عن الصيد مثلاً، قد أذكر حرب السبورة وسألنى رئيسى إذا كنت أرغب فى مراجعة جدول الفصل للتأكد من أننى لم أكن أتصرف بطريقة خاطئة فقلت له حينئذ بأن الأمر لا يهم.

لم أكن متأكداً بما يجب أن أفعله وبدا أن الجدل الذى حدث فوق السبورة كان يتحرك من مجرد مناقشات للأفكار إلى مناقشات عقيمة وذلك لم يجذب انتباهى على الإطلاق وكنت أعتقد بأننى أصل بطريقتى إلى هدفى غير أن الأمر لم يكن يسيراً وإنما كان عصيباً وعلى أية حال لم أكن قد توقفت عن محاضراتى حتى تلك اللحظة لأننى لم أشأ أن يفكر طلبتى- وبخاصة أولئك الذين يتابعون دروسهم فى الخارج بمزيد من الاطلاع- أن تهديده بامتلاك القوة قد يؤثر بشكل من الأشكال أو يكون على وجه التحديد ملحوظة خاطئة لإنهاء الدرس، فكرت لمدة دقيقتين ثم أدركت وجود طريقة أخرى أو هدف آخر كنت أريد تحقيقه مع طلبتى أثناء المحاضرات.

كتبت قائلاً: إذا غيرت للحظة النقاش من الحديث حول القضايا والمسائل المتداولة إلى تلك المناقشات التقليدية المنظمة فذلك يعنى ضعفاً فى قدرتى على المناقشة ويعد فى الوقت نفسه ترسيخاً للتقاليد والأفكار التقليدية.

فى الكتابة حين تصف شخصاً ما بالحمق أو الجنون فإنك عندئذ لا تعد كاتباً جيداً ولكن دع القارئ يقرأ ما كتبته سواء كانت كتابة أحد المقالات أو كتابة كتاب أو حتى كتابة فوق السبورة وحين يقول القارئ بأن الشخص الذى وصفه الكاتب شخص مجنون تكون عندئذ كاتباً جيداً.

فى اليوم التالى مسحوا كل الكتابات من فوق السبورة وحتى بقية ربع العام الدراسى كنا نضع المقاعد فى صفوف.

لم أقترح ولم أشأ أن يمارس أى شخص طريقتى نفسها فى إدارة الفصل أو القيام بطريقتى نفسها فى التدريس لأن ذلك يعنى عدم تقدير للطلبة الذين يقبلون بنظام دون آخر ولا شك أنهم يريدون أن يكونوا ما هم عليه، فى النموذج الصناعى نحاول أن نقولب كل شخص ونجبره على المضى قدماً فى الطريق نفسه والأخذ بالشكل نفسه وقد يكون ذلك جيداً بالنسبة للمنتج الصناعى لكنه يمثل جحيماً نفسياً للأشخاص وأيضاً للكرة الأرضية فعلى سبيل المثال أنا لا أستطيع كتابة نشرات إخبارية، لمدة سنوات فى "سبوكن" أنجزت كثيراً من الكتابات وقمت بنشر العديد من الموضوعات عن منظمة البيئة لكنهم عندما طلبوا منى كتابة نشرات اخبارية ظللت لساعات فى حالة من العجز ولن تسعفنى اللغة كما وجدت صعوبة فى صياغة الكلمات المناسبة ورغم ذلك كانت تجربتى فى كتابة النشرات الإخبارية جيدة بالمقارنة بما حدث فى تلك الليلة التى طلبوا منى فيها المساعدة فى عامود التليفون، انتابنى إحساس عميق بأننى لست أنا الذى يجب تكليفه بمثل تلك المهمة وبالتالى لم أستطع وجلست هناك حوالى ساعتين وأنا أضغط على الأرقام الستة الأولى من رقم تليفون شخص ما ثم توقفت ووجدت نفسى غير قادر على إنهاء المكالمة.

إذا قررت وكالة الاستخبارات الأمريكية أن تعتقلنى لعملى ضد النظام وإذا أرادوا تعذيبى فإنهم لن يكونوا فى حاجة لتوصيل الكهرباء إلى أعضائى التناسلية وإنما يكفيهم إجبارى على مهاتفة الغرباء.

إن المهمة التى نواجهها جميعاً كأكاديميين (وأنا متأكد بأن الأشجار تواجهها أيضاً وكذلك الضفادع والصخور والنجوم والحرائق وهبوب الرياح العاتية وأيضاً القبلات والملاطفات والعناق وأنواع مختلفة من الفن) هى كيفية اكتشاف ذواتنا ثم القدرة على أن نصبح الشيء الذى اكتشفناه، إن المهمة التى يواجهها المدرسون هى أهمية اكتشافهم لطريقتهم الخاصة فى القيام بعملية التدريس والقدرة على تعريف الطلبة بمكنون شخصياتهم وهذا يعنى بالطبع بأنهم أولاً يجب أن يتفهموا ذلك الشخص الذى يسكن داخل بشرتهم.

عند حوالى منتصف الربع الأول من العام الدراسى بالمنطقة الشرقية قال لى رئيسى فى العمل: فى البداية أنا قلق منك وأتساءل عن الطريقة التى ستعمل بها فى الفصل، لقد أحببت ما قلته لكننى لست متأكداً من أنك تقول الحقيقة، وكنت أعرف بأنك إذا لم تفعل ما تتحدث عنه فإن الطلبة سيرفضون كل ما تتحدث عنه بسرعة وستصبح أنت والطلبة فى موقف صعب، نحن لا نستطيع الضحك عليهم وربما نفكر أحياناً بأننا نستطيع لكنهم أكثر ذكاءً مما نعتقد.

ها هو اقتراحى إذن ويتمثل فى أهمية أن يفكر المدرسون فيما يقومون به وفى المعانى الشخصية والسياسية للمواد التى يقومون بتدريسها كما يجب عليهم أن يحاولوا فهم أنفسهم وماهية الشخصية التى هم عليها ولا بد أن يحاولوا اتباع أحاسيسهم وما يدور فى داخل أرواحهم حين يدخلون إلى فصولهم ويبدءون الدرس، كما أقترح أيضًا عدم الاهتمام بالمواضيع الظاهرية أو المزعومة أو غير الحقيقية الموجودة فى المناهج المختلفة فالموضوع الأهم هو مساعدة الطلبة على اكتشاف ذواتهم ومعرفة انفعالاتهم وأهوائهم وأى شيء آخر إنما يقودهم إلى الضلال ويعرضهم للأذى.

كنت ما أزال أملك الكثير من القدرة على التحكم والسيطرة فى الفصل وكنت أكتب بشكل أفضل وبطريقة جيدة حين كنت أتخلى عن تلك السيطرة تاركًا الموضوع يقودنى حيث يريد، لا.. إن كلمة يقود هى كلمة جامدة، وكأن التأمل يسير بتؤدة ورزانة ويخطو أمامى خطوات ثابتة وهو ممسك بيدى ثم يشدها برفق.

إن فعل الكتابة ورغبتى فى القيام بها على أفضل شكل ممكن يذكرنى بأن لا شيء أحب منها إلى قلبى وأننى حتى فى مراحل طفولتى ومراهقتى لم أقع فى مثل ذلك العشق الذى يمكننى من تحريك الجبال الصخرية بأسرع مما أستطيع وكأننى أبدأ بقمة الجبل ثم أسارع بالهرولة متأثراً بالجاذبية الأرضية حتى أجد جسدى يتحرك بسرعة أكثر كثيراً من قدمى التي تتسم تحركاتها بالاضطراب وبالتأكيد أسرع من قدرتى على التقاط مكان أهبط عليه فوق الأرض، لكننى تعلمت الهبوط بدون أن ألحق

بنفسى الكثير من الأذى، كنت أتدحرج وأعاود الإحساس بقدمى وأبدأ بحركة سريعة وبالعودة قليلاً أستطيع أن أتذكر حين كنت طفلاً فى الخامسة والسادسة والسابعة من عمرى تلال من الرمال فى الجزء الجنوبى من كلورادو وقد ارتفعت لمئات من الأقدام حين صعدت إلى القمة ورحت أجرى بسرعة ثم بسرعة أكثر حتى لم تعد قدمى قادرة على الحيلولة بينى وبين السقوط فرحت أتشقلب فوق تلال الرمال وأهوى بسرعة نحو الهاوية (أستطيع القول بصراحة تامة إن مجرد التفكير فى تلك الواقعة يصيبنى بالغثيان، لا بد أن معدتى كانت أكثر قوة فى طفولتى عما هى عليه الآن)، عندما صرت بعيداً عن قمة التل كانت عيناى أكثر يقظة وانتباهاً من كل أعضاء جسدى الأخرى وكانتا مفتوحتان عن آخرهما من كثرة الرعب والبهجة فى وقت واحد، ذلك الإحساس بعيداً عن حالة الغثيان هو ما أحلم به وأتمناه فى كتاباتى وهو أيضًا ما أريده فى حياتى وما أرغب فى حدوثه فى فصلى.

كيف أفعل ذلك؟

قمت مؤخراً بتقسيم الطلبة إلى مجموعات وطلبت من كل مجموعة أن تقوم بإدارة الفصل لمدة ساعة أو ساعتين وقد استطاعوا فى كثير من الوقت أن يفعلوا كل ما أرادوا أن يفعلوه، رغبت إحدى المجموعات فى ممارسة لعبة الفوز بالعلم ففكرت قائلاً: وما الفائدة التى تعود على الكتابة من تلك اللعبة؟

قمنا بممارسة اللعبة ثم كتبنا عنها وشعرت بحميمية تجاه ذلك الفصل بعد ذلك النشاط البدنى أكثر مما كنت أشعر بعد المناقشات المثيرة للعواطف، وأثناء فترة الفصل التالى تحدثنا عن العلاقة بين المشاركة فى الأنشطة البدنية والإحساس بالألفة والمودة.

راحت جماعة أخرى تأكل الذرة المشوى وتشاهد أفلام الكرتون ثم بدءوا فى رسم صور خاصة بأيام طفولتهم ولقد تأثرت كثيراً عندما قام أحدهم بمشاركة الفصل فيما قام به حين قال: هذا هو أبى حين اصطحبنى معه إلى الغابات؛ كى أحتسى من قنينة النبيذ وفى المجموعة نفسها لعبنا معًا لعبة الاستغماية فوق رصيف المبنى الشاغر

وبالنظر إلى الوراء أجد نفسى غير قادر على معرفة الكيفية التى نجح بها كل شخص فى إدارة درس الكتابة فى الفصل بدون أن يلعب الاستغمابة.

اقترحت مجموعة أخرى كثيراً من الاقتراحات وقاموا بعرض كثير من الأسئلة والقضايا وسارعوا بطرحها علينا وكان كل شخص يجيب على السؤال المعروض عليه ثم رحنا نتجول فى أرجاء الحجرة ونحن نتقدم بأجوبتنا إليهم واحداً بعد الآخر، كانت الأسئلة رائعة ومهمة وكان سؤالى أنا: كيف تريد أن تموت؟

كان الطبيب البيطرى الفيتنامي واحداً من مجموعة أخرى فكتب مع طالب آخر فوق السبورة تلك الكلمات: (حب الوطن، البطولة، الحرب، القنبلة، الدفاع القومى، المصلحة القومية، القذائف، الدبابات، البنادق، الطائرات المروحية، الجنود، الجنرالات).

وكتبت مجموعتان أخريان على سبورة أخرى مجاورة للسبورة الأولى بعض الكلمات الخليعة والموحية بالإشارات الجنسية، مشينا حول الحجرة وقد بدت على وجوهنا ردود أفعال مختلفة من المكتوب فوق السبورتين وأصبح الأمر واضحًا: لماذا يعتبرون الكلمات فوق السبورة الثانية كلمات فاحشة وقذرة بينما الكلمات الأولى ليست كذلك؟

شكلنا مجموعة أخرى وجلسنا على شكل دائرة ثم رحنا نتبادل القول والحكايات عن الأشياء الأكثر خجلاً التى حدثت فى حياتنا، وكان من اليسير أن يشارك الناس بعضهم البعض الأفعال الظاهرية فقط فقال أحدهم بأن طفله الذى كان يتسم بالمزاح وكثرة الهزل ربط حبلاً حول رقبة قطة صغيرة ذات يوم ثم انشغل بأمور أخرى ولم يعد يتذكر ما فعله مع القطة الصغيرة وحين عاد بعد نصف ساعة اكتشف أن الحبل مثبت عند حافة الأريكة وعندما حاولت القطة أن تقفز اختنقت وماتت على الفور، وحدثنا أحد الرجال عن خيانته لزوجته وبعد ذلك صمت الجميع وظللنا وسط الدائرة نقاوم دموعنا.

قامت مجموعة منا بتعليمنا كيفية القيام برقصة الريف والرقصات الغربية وكان ذلك صعبًا بالنسبة لى لأن الحجرة كانت صغيرة جداً فذهبنا إلى فناء المبنى المركزى

للقيام بتلك الرقصات وأثناء منتصف محاولاتنا على الرقص مضى بجانبنا اثنان من العاملين بالإدارة فابتسمت ولوحت لهما بذراعى وأستطيع القول بأننى تعلمت كثيراً من هذا الفصل وظللت لسنوات وأنا أحاول الزج بتلك الأحداث فى كتاباتى وكان الإحباط يصيبنى أحيانًا، كنا نقوم فى فصل آخر بعمل أشكال مختلفة من الحلوى تعبر عن أمنياتنا وأحلامنا فقام أحد الزملاء بعمل شكل كبير لكلب ذى ظهر أحدب ويخرج من صدره سهم كبير من عود الأسنان المصنوع من قرن الوعل أما أنا فقد رسمت سداً عند النهر حيث تسبح أسماك السالمون، كذلك لعبنا فى الفصل لعبة كرة القدم بعد أن ربطنا أعيننا حتى لا نرى وكان الآخرون يشيرون لنا بالاتجاه الصحيح يقولون لنا: (شمال، يمين، لا، الاتجاه الآخر).

انقسمنا إلى مجموعات وكان على مجموعتنا أن تهبط من فوق قمة الجبل؛ لتكتشف أن كل الناس قد اختفت وقمنا بتمثيل بعض الأدوار التى مثلت فى أحدها دور الممثلة "شارون ستون" ورحنا نقص الحكايات عن الأشباح والعفاريت أما عن يوم عيد الحب فقد كتبنا قصصًا عن الحب الأول وعن ذكريات القلب المنكسرة أو الذكريات الجياشة، لقد استمتعنا إلى حد كبير.

طلبوا منى فى القسم أن أقوم بوضع امتحان نصف العام ولم يكن القانون على أية حال يشمل شيئًا عن تقييم الامتحان مما ساعدنى فى اختيار ما أريد ومحاولة إضفاء بعض البهجة وقبل يومين من امتحان نصف العام طلبت من الطلبة أن يكتبوا الأسئلة التى يرغبون فى معرفة إجاباتها وفى الفترة التالية قمت بتفريغ صندوق الأوراق الذى وضعوا فيه أسئلتهم ثم رحت أمشى حوله على شكل دائرة، لقد وضعوا أسئلتهم فى الصندوق فقمت بهزه وإعادة تدويره مرة أخرى.

جاءوا فى الحصة التالية وهم مستعدون للكتابة فأخبرتهم بأننى سأراقبهم بعناية حتى لا يسرقوا كتابات بعضهم البعض وبعد انتهاء الحصة قرأت مقتطفات من كل ورقة.

كانت نوعية الأسئلة تدور حول الأفكار العميقة والمثيرة والتى تحث على التحريض والاستفزاز وكثير منها كان أسئلة شخصية مثل: ما ذكرياتك الأولى؟ هل كنت سعيداً فى طفولتك؟ متى شعرت بأسعد لحظات حياتك؟ هل عرفت شخصًا ما قبل أن يموت؟ هل شاهدت حالة ولادة من قبل؟ متى شعرت بخوف شديد؟

وكانت بعض الأسئلة ذات طابع سياسى مثل: هل نظام الولايات المتحدة السياسى قابل للإنقاذ؟ هل سيغزو بوش والولايات المتحدة العراق؟ (إنه لمن المثير أن يطرح أحدهم مثل ذلك السؤال داخل الفصل عام ١٩٩١ وأنا متأكد بأننى لو كنت ما أزال أقوم بالتدريس فى الغرب فى العام ٢٠٠٣ لكان أحدهم سأل السؤال نفسه).

كان الكثير من الأسئلة قد اتسم بالطابع الروحانى والدينى مثل: هل تؤمن بالله؟ من الله؟ هل هناك علاقة بين إيمانك أو عدم إيمانك بالله وإدراكك الشخصى للمبادئ الأخلاقية؟

كانت أسئلتهم فى الغالب أسئلة واقعية وتعبر عن هواجسهم وكذا كانت الإجابات فى كثير من الأحيان واقعية وأتذكر حين سألنى أحد الطلبة يوما ما ذلك السؤال المثير: أيهما أولاً، الدجاجة أم البيضة؟

فاجأنى ذلك الطالب بإجابته عى السؤال إجابة متعمقة فكتب يقول: لأن الدجاج من سلالة الديناصورات فمن الواضح أن البيض هو الذى جاء أولاً.

كان ذلك هو اكتشافه غير العادى لطبيعة الوجود والقضاء والقدر والإرادة الحرة والمصير فهل الدجاج حاضر وموجود فى الديناصورات حقًا؟ وبالمثل نستطيع طرح السؤال التالى: هل أفعال ذلك الطالب وتساؤلاته الآن وهو مراهق حاضرة وموجودة فيه منذ الطفولة؟ وما العلاقة بين ما هو عليه الآن وما سيكون عليه غداً؟ ومن منهما سيبقى ويواصل حياته يوماً بعد يوم؟ وهنا يتحول السؤال إلى: منْ أكون؟

كل ذلك مثير جداً ومهم جداً وذو مغزى على ما أعتقد من القوالب الجامدة والمقالات والكتابات التقليدية مثل التى يكتبون فيها لمدة ساعتين فى موضوعات عن التدخين السلبى أو عن متعة التسوق فى المتاجر.

مـاذا تـعنــــى عشــــــر أو خـمس عـشــــرة ســـنة؟ عليك بـالـتــــــــفـكـيــــــــــر فـى الأبـديـة !!

لا أجد إجابة لكننى أعرف أن الأبدية هى كل دقيقة تمر!!

«نيقوس كازانتزاكي»

من أنت للمرة الثانية ؟

سألت وأنا أتجول داخل الفصل: كم واحد منكم سيكون هنا الليلة؟

رفع معظمهم أياديهم وكانت تلك إشارة جيدة.

من سيكون هنا؟

ظلت أياديهم مرتفعة ورفع البعض حواجبه ثم رفع اثنان آخرآن أياديهما أيضًا.

منْ الذى سيكون هنا؟

تحركت حواجبهم معبرة عن التجهم والعبوس.

منْ أنت؟ منْ أنت؟

لم يقل أحد منهم أى شيء.

منْ أنت؟ إننى أريد حقًا أن أعرف.

ظلوا صامتين دون أن يجيب أحد بأى شيء فبدأت أغنى لجذب الانتباه لكنهم ظلوا على ما هم عليه ثم حاولت مرة أخرى قائلاً: عندما تقرءون كتابًا أو تذهبون لقضاء نزهة أو للقيام بممارسة الحب أو حتى حين تأتون إلى الفصل منْ يكون الشخص الذى يقوم بتلك الأفعال فعلياً؟

أجاب أحد الطلبة بخجل قائلاً: أنا.

ضحك بعض الطلبة الآخرين بما يعنى موافقتهم على ما قاله زميلهم.

من يكون ذلك؟

قال آخر: أوه، لا، إنه يفعل ذلك الشيء حيث لا يهم ما تقوله، إنه يواصل توجيه الأسئلة إليك، عليك الفرار من أجل حياتك.

قلت: تلك هى المسألة، منْ الذى كان عليه أن يفر بحياته؟

أنا.

ساد مزيد من الضحك.

ولكن منْ أنت؟

لا إجابة.

قلت: أوه، أووه، إنهم لا يقدرون انطباعاتى، لقد تحدثنا كثيراً فى هذا الفصل عن سؤال الكينونة، منذ سنوات قليلة مضت قرأت كتاباً بعنوان "الأرض المنبسطة" للكاتب المعروف "إدوين أ. أبوت" وقد وصف العالم فى بعدين فقط مثل قطعة من الورق، إن النساء الذين يعتبرونهن أقل شأناً فى عالمنا يسرن فى خطوط مستقيمة ولدى الرجال جوانب أكثر وكذلك أركان وزوايا أكثر اعتماداً على تصنيفهم الاجتماعى، كلما امتلكت أركان وزوايا أكثر امتلكت تقديراً اجتماعياً أعلى، فالأشكال الهندسية المخمسة تقابلها نظرات تقدير أعلى من المربعات والتى بدورها يكون النظر إليها بتقدير أعلى من المثلث، إنه لشيء مثير حقاً!! إنهم يمتلكون البيوت والعلاقات التى من خلالها يتفاعلون مع بعضهم بعضا كما أنهم يمتلكون رؤيتهم الخاصة لكنهم لا يستطيعون فهم كل شيء وإدراكه فيما وراء ذلك فإذا أردت أن تنصب وتداً فإنهم لن يستطيعوا رؤية ارتفاعه لكنهم يستطيعون فقط أن يتجولوا حول حافته ولا يقدرون على تحديد ارتفاع الوتد ولو بالتقريب وذلك لأن فكرة ومفهوم الارتفاع فى الحقيقة لم تخطر ببالهم، عندئذ يقوم بوصف خط الأرض حيث العالم برمته يتكون من خط وكذلك الفراغات التى تشبه عالمنا أكثر والعوالم بأبعاد أكثر من ذلك غير أننى أريد التحدث عن نوع المخلوق المحدد الذى يمكنه العيش فى تلك الأرض المنبسطة التى كانت عبارة عن نقطة سوداء صغيرة عندما تشكلت للمرة الأولى ثم تحولت مع الوقت إلى دائرة أكبر وتغير لون جلدها حتى وصلت إلى وقت معين فاكتسبت ألوانا مختلفة حتى أصبح شكلها مسدس الزوايا والأضلاع

وعند النهاية تحولت إلى الشكل الدائرى مرة أخرى وصلدة ومشرقة، عند الاقتراب من الموت تفقد ألوانها وتصير شاحبة وعليلة حتى تتلاشى وتصبح لا شيء.

راحوا يحدقون فى ربما لاعتقادهم بأننى كنت أعيد التمرين نفسه الذى توهموا فيه بأننى من كوكب المريخ.

قلت: نعم، وبالطبع فإننى أصف القلم وهو يتحرك فوق قطعة من الورق حيث يعيش شخص ما فى الورقة ولا يدرك سوى بعدين فقط إلا أنه يدرك الهدف كما يحدث مع الطفل أو نسيان كل شيء كما يحدث فى الشيخوخة، لكن الحقيقة هى أن كل ما كتبه القلم كان موجوداً طوال الوقت.

قال أحدهم متسائلاً: وما الهدف؟

الطفل الرضيع، النهاية الأخرى هى النهاية القديمة.

لا، ما الهدف من وراء قولك هذا؟

ماذا لو أننا نمضى فى الطريق نفسه.

وهل تعتقد حقًا فى ذلك؟

بالطبع لا، كل شخص يعرف أن مكونات أجسادنا لا توجد حقيقة حيث نعيش، إن أجسادنا هى نوع من أنواع مستقبلات التليفزيون أو الراديو وعليكم أن تتخيلوا بأنكم لم تشاهدوا التليفزيون أبداً من قبل ثم سرتم داخل حجرة وفوجئتم به فإنكم قد تعتقدون حينها أن أناساً من ذوى الحجم الصغير يجرون بداخله، وأن بداخله مسرحاً صغيراً وعالمًا صغيراً.

وعلى الرغم من ذلك قلت مستطرداً: الغالبية لا تتذكر، ربما نحن لا نفكر فى أجسادنا إلا حين استخدامها فقط لكن أجسادنا عبارة عن أجهزة استقبال معقدة تستقبل طاقات فى كل مكان مثل موجات الراديو والتليفزيون التى تحيط بنا من كل اتجاه ولا نستطيع إدراكها إلا بعد أن تلتقى الموجات مع ترددات جهاز الاستقبال.

أتعنى بأن الفراغ يقودنا إلى الوجود؟

لا، ذلك يعد أمراً سخيفاً، بل إن الحياة نفسها تتراقص وتتفجر من حولنا وعند التقاء الموجة الصحيحة مع الوعاء الدموى الصحيح فإنك تتحول إلى شخص حقيقى أو إلى شجرة أو ضفدعة وربما إلى صخرة، كل منا يظهر بطريقته الخاصة.

وهل تعتقد حقًّا فى ذلك؟

بالطبع لا، وإنما الحقيقة تكمن فى أننى شيء غير مرئى ولا وزن له، شيء يسمى الروح وتلك الروح تعيش فى مكان ما خلف النجوم يطلقون عليه اسم الجنة، أبدأ بالتشكل على شكل جسدى كنوع من الاختبار لتحديد إذا ما كنت سأتبع القوانين التى شرعها الملك- وهنا لا أعنى ألفيس بريسلى- وإذا التزمت باتباع تلك القوانين فإننى سوف أعيش فى الجنة إلى الأبد وأنا أعزف على آلة الهارب وأتناول طعاماً سماوياً يعتقد بعض دارسى الإنجيل بالمناسبة أنه يفرز مادة تقاوم الحشرات، أما إذا فشلت فإننى سوف أحترق للأبد ولن أكون متأكداً من الشيء الذى يحترق، هل هو تكوينى الجسدى أم الروحى، وإذا كانت الروح فإننى أعتقد بأن النار أيضاً ستكون غير مرئية خاصة وأن جدلاً كبيراً حدث منذ آلاف السنين فى الكنيسة الكاثوليكية عما إذا كانت نار الجحيم روحية أم جسدية.

ظل الجدل محتدماً بين الطرفين واتفق كلاهما على ألا يتفقا وكان ولا يزال كل طرف على يقين بصحة رأيه.

لقد قلت بأنك لست مسيحياً وهكذا يبدو لى بأنك لا تعتقد فى مثل تلك الأشياء.

وتساءل آخر قائلاً: هل قال بأنه ليس مسيحياً؟

توقفنا لحظة فى انتظار أن ينهار المبنى أو على الأقل فى انتظار أن تنقطع الكهرباء.

لا، أنا لا أظن أن ذلك سيحدث أيضاً، كلنا يعرف أن كينونتك هى الذات داخل

حقيبة من جلد بشرتك وحين أقف على أطراف أصابعى يصبح كل شيء داخل الحقيبة هو أنا أو على الأقل معظم الأشياء إن لم تكن جميعها فإذا ما أصابتنى الأنفلونزا فإن فيروسات البرد ليست منى ولن أكون متأكداً إذا ما كانت البكتيريا فى معدتى هى أنا أم لا، قد تكون كذلك إذا كانت مفيدة لى وعندئذ تكون جزءاً منى وإذا لم تكن كذلك فهى ليست منى.

وماذا عن الطعام الذى تناولته منذ ساعة مضت؟ هل ذلك الطعام هو أنا أم لا؟ أما الدم الذى يجرى فى عروقى الآن فهو دمى على ما أعتقد ولكن إذا ما حدث لى نزيف فإنه ليس دمى ومنذ لحظة بداية النزيف يصبح شيئاً لا ينتمى لى.

منذ سنوات قليلة مضت أزالوا جزءاً من أمعائى وظللت أتساءل بعد ذلك عن الجزء الذى هو أنا، هل هى الأمعاء أم بقية أجزاء جسدى؟

إذا كانت بقية أجزاء جسدى هى أنا فإلى أى مدى تكون أمعائى ليست جزءاً منى؟ ربما بعد أن أزالوا جزءاً منها إذا ما اعتبرنا أن كل شيء فى العالم خارج جسدى ليس منى وبالمثل فإن أحداً منكم ليس منى ولا أحد بينكم هو أنا.

قال أحد الطلبة: ولكن، ماذا عن ذكرياتك بشأننا؟ هل تكون تلك الذكريات جزءاً منك وهل تكون هى أنت؟

أجبت قائلاً: نعم، أعتقد أنها كذلك فيما عدا تلك الذكريات عن بعض الناس التى تشبه كثيراً تلك الفيروسات التى ذكرتها.

قال آخر: وماذا عن الهواء الذى أتنفسه ثم ألقى به خارج رئتى ثم تتنفسه أنت؟

قالت امرأة: أحياناً أفكر أنا وأختى فى الأشياء نفسها فى لحظة واحدة حتى حين نكون فى أماكن مختلفة وبعيدة، كيف تفسر ذلك إذن؟

قال واحد من الرجال: إنها مجرد صدفة.

أضافت المرأة: لكن ذلك يحدث طوال الوقت.

قال آخر: ذلك لأنكما نشأتما معًا فى بيت واحد ومكان واحد وتشاركتما المفاهيم والخبرات نفسهما.

قلت: مثل الآلة.

* نعم، حسنًا.

أضفت قائلاً: نسيت أن أقول لكم بأننى أفكر جديًا فى أننا لا شيء أكثر من آلات وماكينات تعمل على تكاثر الجينات وأن أى شيء آخر إنما هو شيء ثانوى.

* أنت لا تعتقد فى ذلك.

* أنت على حق، نحن فعلاً مجرد شبكة من العلاقات والتجارب والخبرات، إننى مجرد تقاطع لكل شخص فى الفصل فى هذه اللحظة من خلال كل شيء حدث لى ومن خلال كل نفس أتنفسه وكل كلمة أقولها وكل قطعة طعام أقوم بتناولها، إننى لست شيئًا على الإطلاق، إننى مجرد عملية، لا، ولست حتى كذلك، إن لغتنا لا تستطيع أن تصفنى لأن الكلمات تتطلب اسمًا وفعلاً.

سألت امرأة أخرى: ماذا يحدث؟ إذا قمت بممارسة الجنس واحتويت شخصا ما بين جسدك فهل يكون عندئذ جزءًا منك؟

قال آخر: لدي ذكريات لا تفارقنى منذ قرأت لتلك المرأة التى كتبت كثيرًا عن الاغتصاب، لقد تأثرت بشدة وظلت التفاصيل عالقة بذهنى وما انفكت تطاردنى كل يوم رغم أننى لا أريد لتلك الذكريات أن تكون جزءًا منى غير أننى لا أستطيع.

قال الرجل الذى كتب عن الدجاج والبيضة: إذا مات ابنى فإننى سأموت أيضًا، إنه جزء منى.

وقالت امرأة: لقد سمعت شخصًا يضحك فى اللحظة التى ماتت فيها جدتى وكانت هى عاشقة للضحك وتعيش بعيدًا بآلاف الأميال لكننى سمعت ضحكاتها وكنت أعرف بأنها هى وأعرف بأنها ماتت.

انتهى الدرس وأسرع الطلبة بالرحيل ولم أكن فى الحقيقة راغبًا لقول أى شيء إضافى طوال بقية الفصل الدراسى.

مع بداية الفصل الدراسى التالى سأل الطالب نفسه قائلاً مرة أخرى: ما الهدف من وراء الدرس الفائت؟

ضحكوا جميعًا داخل الفصل ثم فتحت عينى عن آخرهما وسألته: منْ أنت؟

كيف لي أن أعرف عن اقتناع بأنني سأنجو بشخصيتي خارج الأبواب إلا إذا عرفت نوع مقبض الباب الذي يلف أصابعه حوله.

«فورد مادوكس فورد»

الوضوح

إن القاعدة السابعة فى الكتابة هى أنك تريد للقارئ أن يفكر فيما تريد أنت له أن يفكر ولا تريد أن يفكر القارئ فيما لا تريد له أن يفكر.

فى أبسط المستويات فإن ذلك يعنى بأنك تتطلع إلى الوضوح أى أنك تريد أن تكون واضحًا بمعنى أنك لا تريد على سبيل المثال أن تكتب: (إن "جيم" و"بوب" يتبادلان الحديث ثم قال "جيم"...................).

أنت تريد للقراء أن يفكروا فيما قد يقوله "جيم" و"بوب" ولا تريدهم أن يتساءلوا عن هوية المتحدث إلا إذا أردت أنت ذلك وهذا المستوى يعنى الدقة.

دعنا الآن ننتقل إلى مستوى آخر، عندما كنت أصغر سنًا كانت أمى تعمل فى القسم الأمريكى الهندى فى متحف دينيفر للفن وكانت أيضًا تعمل لبعض الوقت وكيلاً للفنانين الهنود وهكذا تعلمت كثيرًا عن ثقافة الشعوب ونتيجة لذلك فإننى عندما كنت أرى الغربيين أثناء طفولتى لم أكن أفكر إذا ما كان سلاح الفرسان سيقبل الهنود إلى صفوفه وكانت أمى تقول: إن الهنود البسطاء لا يرتدون الملابس المبهرجة وكان ارتداؤهم لبعض القلادات المصنوعة من فك الدب وبعض الأشياء الأخرى المثيرة يعد ضربًا من الجنون، أما أولئك الهنود فى غرب مونتانا فكانوا مختلفين ومثيرين للضحك، إذا كنت فى طريقك لإنفاق ملايين الدولارات لعمل فيلم سينمائى يصور الحياة فى الأقاليم الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية فإنك لا شك ستقوم بعمل بعض الأبحاث ويحدث الشيء نفسه حين تفكر فى الكتابة فتبدأ بعمل الأبحاث الأساسية.

إذا شاهدت فيلمًا عن الحياة الغربية هذه الأيام فإننى لا أفكر فيما يريدنى المخرج أن أفكر فيه لكننى أفكر فى الإبادة الجماعية وما ستكون عليه تلك الأفلام

السينمائية التى يقوم بكتابتها وإنتاجها وإخراجها والتمثيل فيها أولئك النازيون، إنهم ليسوا غربيين فقط، وعندما أشاهد فيلمًا بوليسيًا فإننى أفكر فى الدعاية للدولة البوليسية ومثال على ذلك ما سمعته من أن هناك فيلمًا جديدًا سيتم عرضه قريبًا عن خبراء شجعان فى مقاومة الإرهاب يحاولون إيقاف الفوضويين والثوار عن وضع السم فى مصادر تمويل المياه وحينما ذهبت لمشاهدته لم أفكر فى الخدع السينمائية لكننى رحت أفكر فى حقيقة أن الفوضويين والثوار لن يضعوا السم أبدًا فى مصادر تمويل المياه لأن الثوار الذين أعرفهم أو قرأت عنهم لا يفعلون مثل تلك الأفعال، كان من الممكن أن يكون الفيلم أكثر دقة وإثارة بالنسبة لى إذا قاموا بتغيير طفيف فى السيناريو وجعلوا الثوار الشجعان يتصدون للرأسماليين وهم يقومون بوضع السم فى المياه، جعلنى ذلك الفيلم أعض أظافرى.

كان المخرج "جورج روى هيل" مدركًا لهذه القاعدة عندما أخرج فيلمين كان يعرف من خلالهما أن المشهد الأخير الذى أراده لبطلى الفيلمين هو أن يقوما بإطلاق أكثر من ست طلقات نارية بدون إعادة شحن المسدس، لقد أراد أن يخدع لكنه لم يشأ أن يفكر المشاهدون فى ذلك، كيف إذن فعل ذلك؟ لقد كرر مشهد البطلين وهما يقومان بإعادة شحن أسلحتهما، كان يريدنا أن نفكر فى حقيقة أنه لا يقوم بالخداع ولقد استطاع فعلاً أن ينجح فى ذلك، إنه نوع مقبول من الخداع والمكر.

كتبت رواية منذ عامين لم تكتمل وسوف أعاود العمل على إنجازها وتدور الرواية حول أحد الجرائم، استدعيت زوج إحدى صديقاتى الذى يعمل طبيبًا للطوارئ (كان صديق أحد أصدقائى الكتاب يؤكد على أن يكون لكل كاتب صديق من أطباء الطوارئ وأنا لا أختلف معه فى الرأى لكننى لم أجد ذلك الصديق حتى الآن).

سألت قائلاً: إذا كنت فى طريقك لإطلاق النار على شخص ما من مسافة قريبة لكنك لم تكن تريد للرصاصة أن تنفذ من الخلف فما نوع السلاح الذى ستستخدمه؟ وإذا أصابت الطلقة قلب هذا الشخص فما المدة الزمنية التى سيستغرقها حتى يموت؟ وماذا سيحدث فى تلك الأثناء؟ إنه يعرفنى جيدًا فكان يفكر فيما أود له أن يفكر فيه ولا

يفكر فيما لا أريد له أن يفكر فيه، لقد كان وقتًا عصيبًا أن يتجول أحد أصدقاء القاتل داخل الحجرة قبل عملية القتل ولم يكن يعرف ذلك الصديق شيئًا عن الجريمة، طلبت من طلبتى فى السجن أن يفكروا فى أشخاص يعرفونهم قاموا بعملية القتل، ماذا كانوا سيفعلون فى مثل ذلك الموقف؟ هل كانوا سيعملون على إيقاف عملية القتل؟ أم سيشتركون فيها؟ وهل كانوا سيقتلون الشاهد أيضًا؟

قال غالبيتهم بأنهم كانوا سيقتلون الشاهد لكن أحدهم قال: لكن الأمر مختلف بين القاتل المتعمد وذلك الذى لديه شيء ما يريد إنجازه.

تم الحكم بالسجن على كثير من الناس؛ لأنهم لم يقتلوا الشهود مع أن المنطق يحتم قتلهم، يجب أن ينشغل القارئ بالخطة ولا يردد بينه وبين نفسه قائلاً: أوه، لا يمكن أن يتم الأمر بتلك الطريقة.

لم تكن كل تلك التطبيقات عن حقائق مادية وعن بعض الأنشطة والممارسات التى تحدث من حولنا ولكنها كانت من أجل النقاش وإعمال العقل فأنت تريد للقارئ أن يكون معك وأنت تصنع الحدث ولا تتمنى للقارئ أن يعترض أو يتساءل عن أشياء لا تستطيع الإجابة عليها.

سأل شخص ما ذات يوم الرئيس "ناثان بدفورد فوريست" عن الكيفية التى استطاع بموجبها أن يكسب كثيراً من المعارك فأجاب: أن تصل إلى ما يريده معظم الناس.

الإجابة نفسها تنطبق على الكتابة فدائمًا ما أقول لطلبتى أن عليهم ككتاب أن يشعروا بقرائهم ويتواصلوا معهم وعليهم بأن يطرحوا الأسئلة ويقدموا اعتراضاتهم قبل أن يقوم القارئ بذلك على أن يفعلوا ذلك بطريقة بسيطة.

القاعدة الثامنة فى الكتابة هى أن يقف صديقان فوق الرصيف المواجه للمطعم أثناء ذهابهما لتناول العشاء فيقول أحدهما للآخر: ماذا تريد أن تأكل؟

يجيب الآخر قائلاً: لا يهم طالما أننى لست مضطراً لتناول مرق الماشية، إننى أكره مرق الماشية.

لم أعرف من قبل أنك تكره مرق الماشية.

إننى أكرهه.

دخلا المطعم وجلسا وسألهما الجرسون عن الطعام الذى يرغبان فى تناوله.

قال الشخص الثانى: لا يهم بالنسبة لى طالما لن أتناول مرق الماشية، إننى لا أحب مرق الماشية.

قال الجرسون: لا أعتقد أن هناك مشكلة فلدينا قائمة طويلة من مختلف أصناف الطعام الأخرى.

وعندما جاءوا لهما بالسلاطات كان مرق الماشية يغطى الأوراق الخضراء.

قال الرجل: لا أستطيع تناول ذلك النوع من السلاطات فأنا لا أحب مرق الماشية.

قال الجرسون: معذرة، سأحضر لك نوعاً آخر بدون مرق الماشية بما أنك لا تحبه.

بعد الانتهاء من تناول الوجبة سأل الرجل الأول صديقه: هل استمتعت بالطعام؟

قال صديقه: جداً، لقد استمتعت كثيراً، إنها حقاً وجبة رائعة خاصة وأننى لم أكن مضطراً لتناول مرق الماشية لأنك كما تعرف أو ربما لا تعرف بأننى أكره مرق الماشية.

تلك كانت نهاية قصة الصديقين وها هو الآن الدرس المستخلص من تلك القصة: بعد قراءة تلك القصة فإن أول شيء سيقوله كثير من القراء هو أنهم لا يفهمون شيئاً وسيتساءلون عن الذى يريد الكاتب أن يقوله بالضبط.

ليس مهماً درجة الوضوح التى ينبغى أن تكون عليها، إن الفرص جيدة لكنك لست كذلك و لا يهم أن تلف وتدور مع القارئ فى حوار وجدل واضحين، إن الفرص جيدة لكنك لا تمتلكها وليس ذلك لأن القارئ غبى، تلك الصعوبة فى التواصل هى شيء

متأصل وطبيعى فى الفن فأنا لا أستطيع إخبارك بعدد كبير من الصور المؤثرة فى كثير من الأفلام السينمائية والتى فشلت فى اجتذابى والسيطرة على مشاعرى؛ لأننى كنت أحاول -أثناء المشاهدة- أن أتذكر الشخصية التى شاهدتها منذ ثلاثة مشاهد سابقة والشخصية التى ماتت فى العشر دقائق الأولى من الفيلم ثم فجأة وفى تلك الأوضاع أستطيع أن أفهم -بعيداً عن العنصرية فى اختيار الألوان- السبب فى امتلاك أولئك الغربيين السفهاء للأولاد الذين يرتدون القبعات السوداء.

قرأ الطلبة حديثًا قصته فى السجن فقلت: أنا أحب الطريقة التى تفاعلت بها الشخصيتان لكننى أجد نفسى فى موضع التساؤل طوال الوقت عن طبيعة علاقتهما، إنهما يبدوان صديقين حميمين رغم الفارق الكبير فى عمريهما فكيف تقابلا؟

أجاب واحد من طلبتي: لقد قلت فى الصفحة الثانية بأنه ينظر إلى أبيه.....

إننى آسف فلم أسمع ذلك.

وفى الصفحة السابعة نادى شخص ما على الآخر مستخدمًا كلمة الابن.

كنت أعتقد أن تلك هى لغة الخطاب بين الكبار من الرجال وبين الأصغر منهم.

نظر كل منا إلى الآخر وقلنا معًا وكأننا نمثل دورًا فى مسرحية: مرق الماشية.

ثمة أمر أكثر أهمية من رؤيتى المتواضعة مع أى من أنواع التواصل، إن أشكال الدافع البدائى داخل الأحاسيس التى تتشابه لكنها لا تماثل الدافع الأصلى لكثافة الحلم، ذلك الإحساس والشعور يوضح نفسه لكن الكلمات فى أفضل أحوالها ليست سوى ظل لذلك الإحساس، إننى أتحدث أو أكتب تلك الكلمات وبالطبع فإن الشخص الذى يستقبل تلك الكلمات يستحضر مع استقباله ذلك مفهومه الخاص فالقرفة على سبيل المثال قد تستدعى ذكريات مختلفة أو قد تعنى لك شيئًا مختلفًا عما تعنيه لى أنا والشيء نفسه يمكن قوله عن الجنس والحضارة وعن سمك السالمون، تلك الكلمات قد تستقر داخل الشعور وتؤدى ربما فى النهاية إلى تشكيل دوافعك ومع التفسيرات العديدة المختلفة لا عجب فى أننا غالبًا نسيء فهم كل منا للآخر ويحدث ذلك بين

شخصين يتحدثان اللغة نفسها، يا له من سوء فهم كبير ومعقد!! عندما لا يتشارك الناس فى الخلفية الثقافية العامة أو فى التحدث بلغة مشتركة فما المدى الذى قد نصل إليه حين نسمع كلبًا يتحدث أو شجرة أو حجرًا؟

فى سنوات العشرين من عمرى عندما كنت فى بداية تعلمى الكتابة كانت عدم مقدرتى على جعل كتاباتى ملائمة من حيث الجمال وقوة العالم الطبيعى لأحلامى الخاصة تؤرقنى غير أن ذلك العجز ظل ملازمًا لى حتى هذه اللحظة ولم أستطع التعبير بالوصف فى كتاباتى ثم فجأة وفى يوم من أحد الأيام أدركت بأننى كنت أحمق، لقد رأيت علامة توقف السيارات وفكرت بأن لا أحد يتوقع لتلك العلامة أن تكون سببًا فى توقف سيارته وبالمثل فإنه لا ينبغى أن أتوقع للكلمات أن تكون عوضًا عن الخبرة والتجربة إذ ليس من وظيفة الكلمات أن تقوم بذلك الدور على الرغم من التأكيد على إمكانية إساءة استخدام الكلمات، إن وظيفة الكلمات هى أن ترشدنا إلى الخبرة وتساعدنا فى الالتفاف حولها ومحاولة الاستفادة منها كما تعمل الكلمات على تبسيط تلك الخبرة وتوضيح الطرق لنا للمشاركة ولو بجزء ضئيل من تلك الخبرة والتجربة مع من نحب، إن وظيفة الكلمات تتمثل أيضًا فى مساعدتنا على تعلم كيفية العيش والتصرف كآدميين.

لم يحدث أن قبلت صديقتى القديمة قط وكنا غالبًا ما نتحدث عن السبب الذى لم يجعلنا فى حالة من الترابط العاطفى فى أواخر العشرينيات من عمرنا وكان أحد الأسباب هو عدم قدرتنا على قراءة إيماءات وإشارات كل منا للآخر، كنا كثيرًا ما نتبادل الأحاديث العاطفية والمبهجة ولم تكن تتوقف عن التحديق فى وجهى بعينيها الواسعتين وكان ذلك يصيبنى بالارتباك، كنت أعرف تمامًا من خلال مشاهداتى للأفلام السينمائية أن القبلات تأتى من النظرات المرتعشة والإشارات المبهمة والنظرات الجائعة إلى الشفاه وهذا ما لم يحدث أبدًا معى وقد اكتشفت مؤخرًا أن صديقتى تتحدث بلغة مختلفة وفى النهاية كان كلانا يذهب للنوم وحيدًا، إنه مثال عملى من درس مرق الماشية.

قاعدة أخرى للكتابة كنت أطلق عليها أنا وأحد طلبتى السباق أو التسلسل أو اقتفاء الأثر ولقد أطلقنا عليها ذلك الاسم لأنها تحاول التأكد من أن القارئ وهو ينتقل من كلمة إلى أخرى ومن صورة إلى أخرى ومن حوار إلى آخر فإنه يتنقل بنعومة (إلا إذا أردت أنت ألا يفعل ذلك) إننى أستطيع مثلاً أن أقرأ وصفًا لوجه امرأة قام "ريموند شاندلر" بكتابته ثم حين أعاود قراءة الوصف نفسه يمكننى أن أدرك أن طريقته فى الوصف كانت جزافية ولم تخضع لأى نوع من التوجيه بدءًا من وصف الشعر إلى الوجنتين إلى الشفاة والذقن والرقبة وحتى الأثداء، إنه يمضى فى الوصف بطريقة سلسة وناعمة ويتنقل من الشعر إلى الأثداء ثم يعود إلى الوجه.

قد تكون أسهل الأمثلة على ما أطلقت عليه أنا وأحد طلبتى بالسباق أو التسلسل أو اقتفاء الأثر هى ما يبدو فى الأفلام السينمائية فلنقل مثلاً بأنك تتبادل معى الحديث الآن وأن الكاميرا تعرض أولاً وجهك حين تتحدث ثم تنتقل إلى وجهى وأنا أتحدث وبعد ذلك تعاود التركيز على وجهك حين تبدأ بالكلام وهكذا، عندئذ سيكون انتباه المشاهد موزعًا بيننا وبعد لحظة معينة أثناء قيامى بالحديث تبدأ الكاميرا فى إظهار شخص ما وهو يتسلل عبر الباب ويحمل سكينًا بين يديه، إذا كانت تلك هى كل ما يريد صانعو الفيلم من توصيله إلى المشاهدين فلن يكون لديهم أى فكرة عما يجب أن يشعروا به، كان بمقدور الرجل الذى يحمل سكينًا أن يقسم العالم إلى نصفين ومن ناحية أخرى يمكننا القول إذا كنت أحدق فى وجهك مثلاً ثم رحت أحدق فى مكان ما خلف كتفك الأيسر فإن تركيز المشاهدين سيكون مع تحركات عينى وفى أكثر الاحتمالات سيأمل المشاهدون فى رؤية الرجل الذى يحمل السكين وهو يتسلل خلفك.

لقد تعلمت من تسلسل الأحداث عند "ألفريد هيتشكوك" و"جون كيبل"، إن أحد المشاهد النفسية عند "هيتشكوك" تمثلت فى تصوير بطلة الرواية "ماريون" وهى تسرق ٤٠،٠٠٠ دولار من الرجل الذى تعمل عنده وكنا نرغب حينها أن لا يكتشفها أحد وتنعم بتلك النقود وحين همت بمغادرة المدينة شاهدت رئيسها وهو يعبر الطريق وتمنينا

وقتها أيضًا ألا يتوقف عن العبور وفيما بعد نامت "ماريون" فى عرض الطريق وراح رجل الشرطة ينظر من خلال نافذتها وانتابتنا رغبة كبيرة فى ألا يرى النقود فى محفظتها، ذهبت إلى الفندق وتم قتلها فى الحمام.

كانت اللقطة الثانية هى التى تعلمت منها كيفية تسلسل الأحداث فقد راحت الكاميرا تتنقل بين عينيها المغلقتين وبين النقود الملفوفة فى الجريدة ثم عبر الحجرة وصولاً إلى النافذة المفتوحة ثم باتجاه المنزل الذى يقيم فيه "نورمان بيتس" مع أمه، سمعنا بعد ذلك "نورمان" وهو يصيح قائلاً: أوه، يا إلهى، أمى، الدم، الدم.

اندفع بعد ذلك عبر ردهات الفندق وبدأ فى إزالة آثار حادثة القتل ووضع جثة "ماريون" فى صندوق سيارتها الخلفى وبينما كان يضع أجزاء الجسد الذى قام بتنظيفه أيضًا كانت ثمة سيارة تمر بجواره، كنا نحن جماعة المشاهدين قلقين بشأن "نورمان" الذى مضى بعد ذلك بسيارتها بعيداً واتجه نحو المستنقع خلف أحد الفنادق الصغيرة على الطريق العام وغطاها بأوراق الشجر، بدأت السيارة تغوص فى الأرض حتى لم يعد يظهر منها إلا السقف العلوى، لقد رأيت مثل تلك الأعمال مرات كثيرة فى المسرح وفى كل مرة كان المشاهدون يلهثون ويشعرون باضطراب فى التنفس ثم يعبرون عن ارتياحهم عندما تغرق السيارة عن آخرها.

ولكن ما الذى حدث بالضبط؟

قبل ذلك بعشر دقائق تعاطفنا نحن المشاهدون مع "ماريون" لكننا -فجأة- تمنينا لو أن "نورمان" يقوم بالهرب بعد جريمتها، كانت تلك معالجة فنية رائعة، كيف فعل "هيتشكوك" ذلك؟

أما درس "جون كيبل" فقد كان شخصيًا أكثر، لقد كان أستاذى الذى علمنى الكتابة عندما تخرجت وكان عندما يقرأ قصصى كان غالبًا ما يسألنى بعض الأسئلة التى كنت أتصور فى البداية أنها أسئلة تتسم بالغباء فقد كتبت ذات مرة على سبيل المثال عن امرأة تقف فى مطبخها ثم همت بالخروج إلى الشارع فسألنى عندئذ وقال: كيف دخلت إلى هناك؟

اتسمت نغمات صوتى بقليل من القلق وأجبت بنفاذ صبر: لقد ذهبت من خلال حجرة المعيشة وخرجت من الباب الأمامى بعد أن هبطت السلالم واتجهت للبوابة الرئيسية ثم مضت عبر الرصيف.

قال: لم تخبرنى بذلك.

قلت: إنه لأمر واضح ولا يتطلب القول.

قال: ليس بالنسبة للقراء.

أدركت بعد وقت قصير أن أسئلته لم تكن تتسم بالغباء على الإطلاق لكنها ساعدتنى كثيراً فى إجبارى على التفكير بطريقة نقدية كما أننى تمكنت من خلالها وبشكل محدد من الانتباه لتتابع الأحداث والعمل على ذلك من خلال رؤية القراء وكيفية مشاهداتهم للأحداث والعمل على مد جسور منطقية بين كل حدث والحدث الذى يليه وبين كل جملة والجملة التى تليها وبين كل حوار والحوار الذى يليه ولم يمض وقت طويل بعد ذلك إلا وأصبحت أسئلته هادئة ومرشدة لى وعندئذ لم يعد يطرح مزيداً من الأسئلة.

لم يكن يهم حقًا إذا ما كنا نتحدث عن الأفلام السينمائية أو الروايات أو عن فن الجدل ومهاجمة آراء وأفكار الآخرين أو تطبيق دروس المسلسلات، أنت تريد لمشاهديك أن يتبعوا الطريق الذى تريد لهم أن يتبعوه (إلا إذا كنت لا تريد)، كما تريد لمنطقك أن يكون واضحاً وشفافًا وسهلاً فيما عدا بالطبع لو أنك لا تريد.

ثمة درس أخير فى فن الكتابة، لقد اعتدت تعليم طلبتى كيفية كتابة حوار جيد والعمل من أجل تحقيق ذلك يعد أمراً بسيطًا وهو ألا تجبر الطلبة على أن يجيب كل منهم على أسئلة الآخر.

يمكننى القول بشكل أكثر وضوحًا إن الحوار الردىء هو أن يسأل شخص ما مثلاً شخصاً آخر ويقول: كيف حالك؟

• ليس على ما يرام.

•لماذا؟ وماذا بك؟

•خسرت خمسين دولاراً بالأمس.

•كيف؟

•أنا واثق أن ذلك ما حدث فى الرهان.

•هل بدأت تقامر من جديد؟

إن ما لم يتم ذكره فى الحوار السابق هو الحقيقة القائلة بأن المراهنات لا تعتبر عادة نوعاً من أنواع المقامرة وإنما هى مجرد مساعدة خيرية لوكيل المراهنات.

وفى رأيى أن الحوار التالى أفضل كثيراً:

يسأل شخص ما شخصاً آخر قائلاً: كيف حالك؟

•اللعنة على المقامرة.

•هل بدأت تقامر من جديد؟

هكذا تم نقل المعلومات نفسها بكلمات أقل.

يتحدث الناس غالباً عن رغبتهم في أن يكون الحوار واقعياً غير أن ذلك هو آخر شيء يريده القارئ وإذا تبادلت أنت معى الحديث مثلاً فإنك ستقول ما تريد أن تقوله وستكون متأكداً من أننى فهمت رسالتك ثم سأعيد أنا استئناف ما قلته لتعرف أننى سمعتك.

قال الرجل للمرأة أثناء لقائهما فى موعد غرامى: لقد سئمت الحديث عن نفسى فلماذا لا تتحدثين أنت عنى بعض الوقت؟ ولكننا سنتجاهل ذلك الاحتمال الآن؛ لأننا لا نتحدث عن المونولوج وإنما عن الحوار، بعد ذلك سأقدم إجابتى على تعليقاتك ثم سأستخدم كلمات أقل فى الحوار معك وتفعل أنت معى الشيء نفسه وبذلك نعمل معًا

على إثراء المناقشة والحوار وتمضى المحادثة بينى وبينك حتى تصل إلى هدفها النهائى، قد يجعل ذلك القراءة مملة ولا يمكن التسامح من أجلها وتذكر أن كثيراً من الأفلام السينمائية أقصر من معظم المحادثات والحوارات الحقيقية الجيدة التى كنت طرفًا فيها.

إن الإجابة عن كل ذلك سهلة وبسيطة وتتمثل فى كيفية الإيجاز وتمديد الفراغات بين السطور، أحيانا أرى أن كتابة الحوار شبيهة بوضع ما يكفى من الأحجار وسط جدول من الماء للعبور دون أن تبتل الأقدام، فإذا وضعت الأحجار قريبة جداً من بعضها البعض فإنك تستطيع أن تخطو بأمان وتكفى خطوات طفل صغير للعبور، أما إذا كانت الأحجار بعيدة عن بعضها البعض فإنك معرض للسقوط والشيء نفسه يحدث فى الحوار عندما ترغب فى أن يخطو القارئ خطوات الطفل لأنك لم تضع مسافات كافية بين التعليقات.

إن التدريب الأول على الحوار الذى أعلمه لطلبتى هو التدريب نفسه فغالبًا ما أطلب منهم أن يكتبوا قصة وأقول لهم بأن كتابة القصة لن تكون جيدة إلا من خلال الحوار وأن القيام بعملية الوصف ليس مسموحاً به لكننى أريد تصويراً للمشهد ومعنى إذا كنت تريد للقارئ أن يعرف، عليك إدراك الطريق الطبيعى لشخصية واحدة لتقول ذلك لشخصية أخرى كأن تقول مثلاً: تلك السيارات اللعينة دائمًا ما تجعل حالة الربو التى أعانى منها أسوأ مما هى عليه.

لديك شخصيتان يريد أحدهما أن يحقق هدف ما ولن يتوانى عن فعل أى شيء لتحقيق ذلك الهدف، أما الآخر فإنه لا يريد ولا يرغب فى تحقيق ذلك الهدف ولن يتوانى أيضًا فى عمل أى شيء للحيلولة دون تحقيقه وأنت هنا لا تستطيع الحديث صراحة عن ذلك الهدف أبدًا ولكن يجب أن يفهمة القارئ من خلال الشخصيتين.

لم يوافق بعض طلبتى فى السجن واعترضوا كثيراً، كان اثنان فى طريقهما للسطو على مخزن للخمور وكان أحدهما مريضًا بداء السرقة أو أن اثنين من المدمنين كانا يتعاطيان الهيروين وكان كلاهما يعتقد بأن الآخر لا يريد مشاركته، وكان مروج

المخدرات يرغب فى أن تشاركه صديقته فى البيع وتسليم المخدرات لتكون بمثابة العين التى تحميه وتراقب من حوله، كل أولئك كانت شخصيات درامية تفوق فى مأساتها عدم الموافقة من قبل طلبة الكلية أو من قبل الجالسون فى ورش الكتابة.

لقد تحدثت عن قواعد الكتابة لكننى لم أذكر شيئًا بعد عن القاعدة الأولى للتعليم التى يجب الإعداد لها عشر مرات على الأقل أكثر من المناقشات والأسئلة التى تعتقد بأنك تحتاجها وليس فى ذلك أى نوع من الغلو.

لقد وصفت فى هذا الكتاب المناقشات التى تدور داخل الفصل والتى تتم على أكمل وجه غير أننى لم أتناول فى حديثى شيئًا عن تقليب الصفحات المفاجئ، هناك قليل من المشاعر أسوأ من انشغالك بالأسئلة ومحاولة الإجابة عليها.

يقودنا ذلك إلى جانب آخر وهو تعليقى على شغف الطلبة لمعرفة المعنى الذى لم يستجيبوا له وكنت أعرف منذ البداية أن ذلك ليس خطئى لأننى كنت أترك الفرصة لكل قسم فى التحدث كل ليلة حتى نهاية الوقت وحتى الانتهاء من موضوع المناقشة.

كانت بعض الفصول التى لا تريد التحدث معى ومناقشتى تتحدث عادة حين يحل أحد الطلبة مكانى فى قيادة الفصل، لم يهتموا بمحاولاتى فى حثهم على الكلام وكانوا يكرهون رؤية واحد منهم فى حالة من الارتباك وذات ليلة كانت لديهم سلسلة من الأسئلة عن الله والدين ورؤى مختلفة عما يمكن أن يحدث بعد الموت وكانت الطريقة التى تشكلت بها آراؤهم طريقة مثيرة حقًا ولم تكن الأسئلة فى حد ذاتها أمرًا مهمًا لأن أحدًا سواى لم يجب على أسئلتهم وبعد أن ساد بعض الهدوء انتقلت من حالة الارتباك والحرج إلى حالة الألم ثم من حالة الألم إلى الارتباك وفى النهاية قال أحد أعضاء المجموعة فى غضب: ألا يحب أحدكم أن يفكر؟

أجاب أحد الرجال قائلاً: لا، أنا لا أحب فعلاً أن أفكر.

نظر إليه أعضاء المجموعة نظرات استياء لكننى سارعت طالبًا منهم أن أتولى

الأمر قبل أن يقول شيئًا ردًا على نظراتهم المستاءة فرحبت المجموعة وشعرت بالسعادة لذلك.

قلت وقد ملأتنى الإثارة: لا توجد أحكام على الأسئلة التى سأطرحها عليكم، إننى حقًا مهتم وإذن كم منكم لا يحب التفكير؟

رفع حوالى ثلث الفصل أياديهم وكان هو الثلث الذى خمنت أنه سيفعل وشعرت بطريقة ما ببعض الارتياح لرؤية تلك الأيادى المرفوعة، لقد ساعدتنى تلك الأيادى المرفوعة على إدراك شيء ما وإلا كان الأمر سيظل مستعصيًا على الفهم بالنسبة لى وظللت أسأل نفسى عما إذا كان الساسة والصحفيون يقومون بعمل الشر أم أنهم لم يفكروا أبدًا فيما يقومون به، ورحت أتساءل بينى وبين نفسى أيضًا عن اعتياد الناس على ذلك.

كنت أعرف بأنهم لا يعملون عقولهم ولا يفكرون لكننى أردت أن أتأكد فقلت متسائلاً: ماذا تفعل وأنت تستحم أو وأنت تقود السيارة أو عندما تذهب إلى الفصل؟

قال أحدهم: أنا أستمع إلى المذياع.

وقال آخر: إننى أضحك على برامج التليفزيون التى شاهدتها فى الليلة السابقة.

وقالت الأغلبية: نحن لا نفعل شيئًا أو بمعنى آخر نحن لا نعرف.

سألت واحدًا ممن يحبون الرياضة: هل حدث وفكرت فى كرة القدم؟

* لا.

* لكنك تشاهد مباريات الكرة طوال الوقت.

* وليكن.

* ألا تفكر فى نتيجة المباراة؟

*لا، إننى فقط أستمتع بالمشاهدة.

أريد القول بأمانة بأنى لا أعرف كيفية التصرف حيال ذلك، لقد مضى على تلك المناقشة حوالى عشر سنوات ولم أزل أفكر فيها وما زلت غير قادر على إدراك وفهم إجاباتهم وخاصة مضمون تلك الإجابات.

يتردد المرء كثيرًا حين يكون متورطًا ودائمًا ما تكون فرصة الانسحاب صعبة وغير قابلة للتفكير وفى الأعمال الإبداعية يجب الحذر والتحلى بالشجاعة الكافية فى الطرح؛ لأن الشجاعة هى نوع من أنواع العبقرية كما أنها تحوى بداخلها القوة والسحر، فلتبدأ بها الآن.

«و.ه. موراي»

الوقوع في الحب

لم أخبرك حتى الآن عن السبب فى أننى لم أعد أجبر نفسى على الكتابة، لقد حدث ذلك لأننى وقعت فى الحب ويمكننى القول بطريقة أخرى أننى وقعت فى شيء ما أكثر اتساعًا من مجرد النظر إلى نفسى وسوف أخبرك بالقصة.

كنت أعيش فى "إيداهو" أثناء انهيار عام ١٩٨٧ وكنت ما أزال أحسب الكلمات وأحاول الكتابة ومن أجل النقود عملت مع شريك لى فى مخزن للأخشاب لكن العمل لم يستمر وقتًا طويلاً وكذلك لم يكن العائد المادى مجزيًا وكنت أقرأ وأكتب كثيرًا وكانت قراءاتى فى العموم هادفة وحاولت أن أتعلم كيفية الكتابة واختيار الكلمات المناسبة واستبعاد الكلمات التى لا تخدم المعنى وكانت الكلمات انتقائية كما حاولت أن أتجنب الوقوع فى أخطاء الكتابة محاولاً الاستفادة من كل أعمال الخيال العلمى والإثارة والغموض لكتاب من أمثال "توماس مان" و"كيلجور" و"ألبير كامو".

كانت القصص التى كتبتها فى الغالب شبيهة بتلك التى قرأتها لأننى كنت أحاول تقليد أسلوب الكتاب أنفسهم الذين قرأت لهم ومعالجاتهم الفنية نفسها.

قرأت كتابًا لـ"جيمس هيريوت" وكان واحدًا من أجمل السلاسل المنشورة وأكثرها إشراقًا عن مغامرات شيقة ومليئة بالحيوية طبيب بيطرى من يوركشاير وكانت إحدى القصص تتحدث عن رجل ليس له صديق سوى كلبه، كان الكلب يذهب معه كل يوم إلى الحانة ولقد عرفت بطريقة ما من السطر الأول ما ستنتهى إليه القصة، سيموت الكلب وسيقتل الرجل نفسه، عرفت أيضًا أن الكاتب سيستخدم كل الحيل التى يعرفها لكى يجعل القارئ يبكى لكننى أقسمت أنه لن ينجح معى وفكرت فى التوقف عن القراءة

طالما أن النهاية معروفة وليست مفاجئة لكننى واصلت القراءة حتى النهاية وعندما توقفت عن البكاء فى النهاية أصابنى الذهول من كيفية البساطة والوضوح فى معالجته البارعة وأسلوبه الجميل ولقد تعجبت من مهارته منذ اللحظة التى أصبت فيها بالذهول وتساءلت بينى وبين نفسى عن براعته فى إجبارى على البكاء من مجرد حبر على ورق وعرفت فى اللحظة نفسها أن تلك هى المهارة التى يجب أن أمتلكها.

قلت: إننى فى حاجة إلى خطة وأعتقد أن الأمر قد ينجح معى كما نجح مع "جيمس هيريوت".

ستحكى القصة عن رجل ليس له صديق سوى كلبه وعندما يموت الكلب لا يقتل الرجل نفسه وإنما يغادر المدينة وبما أننى لم أقم بزيارة "يوركشاير" من قبل فإن الأحداث ستكون فى نيفادا حيث عشت سنوات قليلة فى الماضى.

طوال أشهر عديدة حاولت أن أكتب القصة لكننى لم أستطع لأن خطتى أصابها الإخفاق مما جعلنى أشعر بالتعاسة لأسباب عديدة.

وفى خلال ذلك ظهرت ابنة شريكى فى مخزن الأخشاب قادمة من كاليفورنيا وكنت قد قابلتها فى الصيف الماضى وبسرعة أصبحنا أصدقاء مقربين لكنها لم تأت هذه المرة فى زيارة وإنما للبحث عن ملجأ هرباً من زوجها الفاسد الموجود حاليًا فى السجن بسبب اغتصابها.

تحدثنا كثيراً عن تجربتها ولقد تشاركت معها فى تلك الإساءة التى عانيت منها أثناء طفولتى ولكن بعد ذلك وكما يحدث فى حالات كثيرة راحت تسقط كل الاتهامات عن زوجها وبدأت تفكر فى العودة إليه وقالت: إن الضرب لم يكن بالشيء السيئ فيما عدا المرة الأخيرة، إنه لم يضربنى أبداً فوق وجهى وأنا أعرف بأنه سيتغير وسيكف عن ضربى فالمشكلة فى حقيقة الأمر لا تكمن فى شخصه وإنما فى المخدرات، إن أولادى فى حاجة لأب فكيف لى تحقيق ذلك؟

تحدثت معها ولم يكن حديثًا مثمرًا وتحدث أباها معها وكذلك أمها ولم يثمر الحديث عن شيء مفيد وفى إحدى الليالى تبادلت الحديث مع أمها وواحد من أصدقاء عائلتها حتى الثالثة أو الرابعة صباحًا ورحنا نفكر فى كيفية العمل على عدم عودتها لكننا لم نتوصل لشيء محدد ولم نجد وسيلة مناسبة ثم عدت للمنزل ونمت.

استيقظت حوالى الساعة التاسعة فى ذلك الصباح وقد أمسكت بالخطة وتوصلت إلى ما عجزنا عن الوصول إليه فى الليلة الفائتة، تستطيع المرأة المتزوجة فى مواجهة الرجل الذى يسيء إليها أن تصبح صديقة حميمة لرجل أعزب لا يعرف من الأصدقاء إلا كلبه وسوف تساعدها المحادثات بينهما على إدراك أنها تستحق معاملة أفضل من التى يعاملها بها زوجها الآن لكن زوجها يعلم بصداقتها تلك فيذهب ويقتل كلب صديقها فيسيطر الحزن على الرجل ويغادر المدينة ومن خلال تلك الصدمة تتعلم المرأة فى النهاية أن تحب نفسها بما يكفى.

بدأت فى الكتابة ولم تقف الكلمات حائلاً بينى وبين القدرة على التعبير وإنما جاءت سهلة ومعبرة كما لو أننى كنت أحلم لكننى عندما وصلت إلى الصفحة السادسة أدركت أن القصة قد لا تتجاوز خمس عشرة صفحة وعندئذ توقفت عن الكتابة مكتفيًا بذلك القدر لذلك اليوم.

فى الصفحة الثانية عشر شعرت بأن القصة ستطول وتصل إلى عشرين صفحة وعند الصفحة الثامنة عشر قلت بأنها ستصل إلى ثلاثين صفحة وظل حلم الكتابة يراودنى طوال ستة أشهر حتى انتهيت من كتابة ثلاثمائة صفحة.

أرسلت الكتاب إلى مائة واثنى عشر ناشرًا وتلقيت اثنى عشر رفضًا ولم ينشر الكتاب، أعرف عدد الناشرين لأننى كنت أسجل عدد المرات على ورقة فوق الحائط وبه أربعون رفضًا نقلت الورقة من فوق الحائط إلى خلف الباب حتى لا يتسنى لى رؤيتها كثيرًا وتمنيت لو أن لى وكيلاً يقوم نيابة عنى بمثل تلك الأعمال لكى يخفف عنى الصدمات التى كانت تصيبنى عند كل رفض وعندما أصبح لى وكيلاً تلقيت منه أيضًا خمسة وثلاثين رفضًا.

ورغم ذلك كان اكتشافى لمعنى التأمل هو الشيء المهم فيما حدث وكذلك معرفتى بمكان الكلمات التى تتخذ شكل الفقاقيع القادمة من جبال الثلج، كنت فى حالة حب مع الكلمات ومع مجمل الحكاية وعملية الكتابة ذاتها ومع الإحساس بالتواصل المطلق بذلك الصراع الذى يشكل شيئًا ما بالنسبة لى.

كيف حدث ذلك؟ إن جزءاً منه بالطبع هو شيء سحرى يحدث فى كل مرة ويحدث الآن كل يوم، وجزء آخر هو نوع من المران والتدريب يبعث على الراحة الكافية مع استخدام الكلمات والأفكار ومع كل ما يمكن أن يحدث من انفعالات وأحاسيس تتشكل مع بعضها البعض فى منظومة من الوضوح والجمال بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة، إن الأمر ببساطة ليس به نوع من البراعة فهناك اختلافات نوعية فى تجارب الكتابة وحتى فى الكلمات التى يتم كتابتها فوق الورق، هناك فرق كبير بين الأعمال التى تتسم بالتواصل والحب لحظة كتابتها وبين تلك التى تفتقد التواصل والحب، إنها الفعالية والسلاسة وثمة باب مفتوح، إنه الفرق بين الإعجاب بشخص ما والوقوع فى حب ذلك الشخص.

أصبح السؤال الآن كالآتى: كيف ولماذا تم فتح الباب وكيف يمكننى مساعدة الطلبة فى معرفة الكيفية التى يفتحون بها أبوابهم؟

ما أعرفه أننى أهتم كثيراً وبعمق بالموضوع فلا أريد مثلاً لصديقتى أن تعود إلى زوجها ولا أتمنى لها مزيداً من الأذى، ذلك ما يدفعنى للكتابة، إنه الهدف الذى يجب أن يكون نصب عينى أثناء عملية الكتابة، إننى أحاول التواصل مع الحدث والانفعال به ولا أكتب لمجرد رص الكلمات وليس أيضًا لمجرد النشر رغم أن النشر شيء جيد ولا حتى لمجرد التدريب، إننى أحاول بيأس أن أنقل رسالة وتجربة.

كيف لى أن أساعد الطلبة فى الكشف عن انفعالاتهم المختلفة؟ ما الشيء الذى يصيبهم بالغيظ أو يخيفهم وما الشيء الذى يبهجهم إلى حد كبير؟ وما الرسالة التى يرغب طلبتى بشدة فى نقلها وتوصيلها وإلى من يرغبون فى نقلها؟ كيف يتسنى لى

مساعدتهم فى تفجير انفعالاتهم بطريقة قوية حتى يفقدوا وعيهم الخاص ويقعون أسرى لأحاسيسهم وللكلمات التى يستخدمونها وللرسائل التى يرغبون فى توصيلها.

يعيدنا ذلك إلى السؤال القديم نفسه، منْ أنت؟ وماذا تحب؟

أما السؤال الجديد فهو: ماذا تريد؟

إذا أخبرتنى منْ تكون فعليك بإخبارى بما تحب وبالشيء الذى تريده وتتمناه وعندئذ سوف أخبرك بدورى وما يتحتم عليك كتابته وربما أجد نفسى غير مضطر لإخبارك لأنك قد بدأت بالفعل فى معرفة ما يجب عليك كتابته.

لا بد أن تتحمل المسئولية عن الكيفية التى تتعامل بها مع الوقت غير أنك فى المدرسة لا تكون مسئولاً عن ذلك فمن الواضح أنهم فى المدرسة يساعدونك على تبديد الوقت ومن هنا نستطيع القول مرة أخرى بأن المدرسة مثل الجيش أو السجن ما أن تدخل إليهما حتى تجد نفسك فى مواجهة كل أنواع المشاكل ليست الحرية من بينها.

«جيري فاربر»

الثـــــورة

أرسلت لى إحدى صديقاتى فى الأسبوع الماضى رسالتين بالبريد الإليكترونى موضحة فيهما وجهة نظرها فى تفاصيل العملية التعليمية وعبرت فى الرسالة الأولى عن وجوب الإبقاء على نظام التعليم العام حتى المرحلة الرابعة وقالت: أستطيع تذكر ذلك اليوم الأول وخوفى الكبير من ذلك السجن الذى لم يخبرنى عنه أحد والذى أمضيت فى جحيمه ثمان سنوات وما زلت أشعر بقوة أن وجوب الإبقاء على تلك السنوات المبكرة من التلقين كان دائمًا أحد أعظم أسباب قوتى.

أما الرسالة الثانية فقد قالت: كان لدى قليل من المدرسين الذين جعلونى أتراخى عن مباشرة أعمالى الإبداعية بطريقتهم البائسة وبالعمل من خلال مؤسسات تعليمية منهارة لم تكن تعرف شيئًا عن التعليم الحقيقى ولقد فقدت ثقتى مرات عديدة بذلك النظام الذى نشأت على كراهيته، وبالطبع فإننى أشعر بامتنان كبير لمعرفتى بأننى أكرهه ولقد أحببت التعليم من المنزل دون الذهاب إلى المدرسة حيث لا توجد مثل تلك الضغوط وتعجبت كثيراً وما أزال من أولياء الأمور الذين يبعثون بأطفالهم للدراسة فى تلك المنظومة المتهالكة وهم لا يدركون وكان تبريرهم لذلك هو ما أثار عندى مزيد من الدهشة والتعجب بالإضافة إلى أنهم كانوا يسلمون أطفالهم طواعية إلى من يسيئون إليهم، وذات صباح ذهبت مع صديقة لى لنصب ابنها إلى المدرسة وكان ابنها فى المرحلة الأولى وأثناء عودتنا قالت لى بأنها شاهدت كثير من الأمهات وهن يبكين لترك أطفالهن فى المدرسة لأول مرة، إن الأمهات جميعاً يعرفن ذلك الألم.

قلت: ولماذا تبكى كل الأمهات فى رأيك؟

لم تجبنى على سؤالى.

يقود كل ذلك إلى سؤال أحاول أن أتجنبه وألا أطرحه فى هذا الكتاب وهو: هل لابد من التعامل مع ذلك النظام الفاسد أم علينا التمرد على كل شيء؟

تلقيت اليوم رسالة أخرى بالتزامن مع الرسالتين السابقتين وكانت هذه الرسالة من صديقة أخرى وكانت عن التعليم أيضًا وقالت فى رسالتها: من المهم النظر بعين الاعتبار إلى العملية التعليمية لأنها علاقة نجد أنفسنا جميعًا مجبرين على الدخول فيها ويمكن رؤيتها على أنها مجاز أو قالب يصب فى خدمة كل علاقاتنا الأخرى فى السيطرة والهيمنة.

فكرت فى ذلك كثيراً فى الفترة الأخيرة لأننى فى العامين الأخيرين كنت أجلس فى مقعدين أحدهما فى صف طلبة الدراسات العليا الراغبين فى الحصول على الدكتوراه وفى صف المدرسين الذين يعملون بطريقة رديئة وأدركت أننا حين نتحدث عن التعليم أو الثقافة فإنما نتحدث فى الحقيقة عن تعطيل وإبطاء علاقة السيطرة، وكنت أحاول جاهداً فى كل يوم أن أجد بعض الطرق التى تجنبنى الشعور بالحزن لكن ذلك لم يكن ممكنًا وكذلك حاولت ألا أقمع روح التحدى غير أننى لست أدرى مدى نجاحى فى تحقيق ذلك الأمر، حاولت فى الفصل ألا أنفعل وألا أجبر طلبتى على فعل ما لا يرغبون مستحضراً فى ذهنى السؤال الذى يتحدث عن الفرق بين القيادة والإجبار أو الإكراه وعندما حاولت تفويض الطلبة ومنحهم السلطة نجحت فى بعض الأحيان وفشلت فى أحيان أخرى وخاصة فى الفصول الأصغر كنت أستطيع أن أكون نفسى تمامًا وكنت أقوم بعملية التدريس بالطريقة التى أؤمن بها وكنت أستطيع العمل على جعل الفصل فصلاً حقيقيًا ونجحت فى جعل الطلبة يحبون ما يتعلمونه أو يعرفونه عن أنفسهم لكننى اكتشفت أن كثيراً من طلبتى وبخاصة ممن هم فى المراحل المتقدمة لا يشعرون بالراحة تجاهى ويتعاملون معى بطريقة غليظة إلا فى الحالات التى أمارس فيها السلطة وكان بعضهم يفهم انفتاحى على أنه ضعف ورقتى فى التعامل معهم على أنها نوع من التنازل، كثير من الطلبة كان يتوقع منى أن أقودهم وأتعامل معهم مثلما

اعتادوا من قبل فى كل مراحل حياتهم وفى الحقيقة فإن لديهم الكثير من الطرق لحدوث ذلك مما يذكرنى بتلك العلاقة القديمة مع أحد أصدقائى المقربين الذى نظرت إلى وجهه بعد أن صرخت فيه فوجدته متأنقًا ونظيفًا وبدت عليه السعادة وعرفت من تعبيرات وجهه أنه فى النهاية نجح فى دهاء بإجبارى على التصرف بالطريقة التى يريدنى هو أن أتصرف بها فقررت أن أنهى تلك العلاقة وأعتقد بأنه يجب القول نحو مزيد من الدقة بأننى تركت ذلك النموذج من العلاقات القائم على الإجبار، يحدث مثل ذلك النوع من العلاقات كثيراً، إن نظام السيطرة يتخلل كل أوجه الحياة وتستطيع أن تجده فى كل علاقاتنا كما توجد الآلية التى تفجره فى كل جزئيات حياتنا، عندما يدخل ذلك النظام من العلاقات فى علاقاتنا المقدسة، فى علاقة الجسد والقلب فهو ليس فى حاجة للمزيد لكنه بالطبع لا يتوقف عند هذا الحد ويصبح السؤال كالآتى: كيف نسن قانونًا للعلاقات لا يكون قهريًا من خلال نظام لا يؤيد القهر؟ إن الأمر معقد إلى حد بعيد.

أعرف أن طلبتى يتمردون على خبرات الظلم والاضطهاد الذى يتعرضون له وأعرف أننى أول منْ يواجه ذلك التمرد كما يوجد بعض الطلبة ممن تعرضوا للأذى من قبل والديهم أو من قبل المدرسين وأشكال السلطة المختلفة غير أننى لا أستطيع مساعدتهم والوصول إليهم لأنهم لا يستطيعون سماعى فماذا يمكننى أن أفعل بشأنهم؟

فى نهاية العام الماضى مثلاً قام أحد الطلبة الأفظاظ بإلقاء خطاب طويل عن إحساس الأطفال الذين يتعرضون لإساءات عاطفية لكننى لم أستطع إدراك ما يعنيه لأنه كان فظًا ثم فهمت -فجأة- االسبب وشعرت بالندم وأعتقد أن كل ذلك يندرج تحت أسئلة ثلاثة:

١ - هل المادة التى تأتى من تفوق الجنس الأبيض الاستعمارى تستحق التدريس على وجه الخصوص؟

٢ - أعرف أن الغرض من التعليم الحقيقى هو السماح للناس أن يتعلموا عن أنفسهم وعن العالم الأكبر الذى يحيط بهم فهل يستحق التعليم بشكل دائم؟

٣ - كيف يمكن لذلك النظام أن يعمل؟

لم أستطع الإجابة على الأسئلة وما أعرفه أننى أكره الحضارة الصناعية لما تتسبب فيه من ضرر للكوكب وما تفعله من تأثيرات سلبية فى المجتمعات وما تقوم به من أضرار للكائنات غير الإنسانية المتوحشة منها والقابلة للترويض وكذلك لما تفعله للإنسان الفرد سواء كان متوحشًا أو أليفًا، إننى أمقت كذلك النظام الاقتصادى القائم على استئجارالعمالة؛ لأنه يسبب أو فلنقل لمزيد من الدقة أنه يجبر الناس على بيع حياتهم وعلى عمل أشياء لا يحبونها كما أنه يكافئ بعض الناس لما يقومون به منإيذاء لبعضهم البعض وتدمير لقناعاتهم، أكره كذلك التعليم الصناعى؛ لأنه يرتكب واحدًا من الخطايا التى لا يمكن الصفح عنها، إنه يقود الناس إلى العزلة والانفراد ويساعدهم فى الابتعاد عن بعضهم البعض ويقوم بتدريبهم على أن يصبحوا عمالاً ويعمل جاهدًا على إقناعهم بأنهم فى أفضل حالاتهم ليسوا سوى عبيد أوفياء كما أنه نظام يقوم على إكراه الناس على اصطحاب كل من يقابلونه إلى القاع وأنا عن نفسى أشارك فى هذه العملية عندما أقوم بالعمل على جعل المدرسة مقبولة ويمكن احتمالها والقيام بإضفاء روح المرح عليها فى الوقت الذى يتدرب فيه الطلبة على القيام بأدوارهم فى التدمير المتواصل للكوكب والقيام بأدوارهم الثانوية فى الآلة الصناعية العملاقة.

إن التعليم الصناعى يقتل فى الحقيقة الروح وليس الجسد وذلك ما يجعلنى دائم الرفض له كما أننى لا أتوقف عن لوم نفسى لأننى واحد من المشاركين فى أكبر العمليات التى تدمر وتشوه الإنسانية.

نحو مزيد من الوضوح ولكى نكون متيقنين من قدرتنا على الإفلات من ذلك الشرك فلا بد أن نعى بأن الحضارة الصناعية تساهم بقوة فى تدمير الكوكب وأن كلا منا يقوم بدوره فى ذلك التدمير وكان من الممكن تجنب حدوث ذلك لو توقفنا عن المشاركة فالمهندسون يقومون باكتشاف الغاز الطبيعى فى الصحراء وشركات الإعلان تواصل إعلاناتها عن شركة فورد للسيارات ويتبادل ركاب الطائرات حبات الفول السودانى فى رحلاتهم العابرة للقارات كما يساعد الأطباء العمال والمديرين على الحفاظ على صحتهم ويقوم علماء النفس بمساعدة مرضاهم على العيش بشكل أفضل ويواصل الكتاب

إبداعاتهم؛ كى يقرأها الناس فى أوقات فراغهم ويساعد المدرسون أولئك الكتاب على الكتابة بطريقة لا تجعلهم يشعرون بالملل، إن ذلك النظام المميت والقاتل يحتاج إلينا جميعاً.

لقد أظهر التعليم فى السجن ذلك الأمر بوضوح أكثر فكنت فى كل مرة أسير خلالها عبر البوابات أساهم فى المساعدة على دعم أنظمة السجون فى العالم والوقوف إلى جانب العنصرية التى لم يحدث مثلها حتى أثناء نظام التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا، ولكننى أعرف فى الوقت نفسه أن كثيراً من طلبتى أخبرونى بصراحة وفى مرات عديدة أن دروسنا هى ما يتطلعون إليه طوال الأسبوع وأن تلك الدروس هى الشيء الوحيد الذى يقيهم الجنون.

فى الأسبوع السابع من كل فصل دراسى كنت أسأل نفسى السؤال نفسه: ما الذى ينبغى أن نتحدث بشأنه ما دام الطلبة هم الطلبة أنفسهم فى الفصول المتعاقبة وفى نصفى السنة؟

كنت أصل تقريباً إلى الإجابة نفسها فى كل فصل من فصول السنة الدراسية فإذا ما كان الفصل الأول عن الليبرالية يكون الثانى عن المسئولية، كل شخص يحتاج للتعلم وللخبرة لكن سؤال الليبرالية والمسئولية لا يتم طرحه فى فصول السجن لأن الظروف المحيطة بالطلبة داخل السجن مختلفة فهم يعرفون احتياجاتهم وأسئلتهم الموجهة لى مختلفة كما أن المسموح لى بتقديمه لهم مختلف أيضاً.

كان الأسبوع الثامن بعد بداية العام الجامعى حين حدث ما يشبه الثورة وراح كثير من الطلبة يضايقوننى فقال أحدهم: أنت تتحدث عن الليبرالية وعن كيفية أن نكون نحن القادة فى الفصل وتريدنا أن نتولى الأمر بالعناية بتعليمنا لكن كل ذلك لا يتعدى قيامك بدورك.

قال آخر: قلت إنك لا تريد التقييم على أساس الدرجات لكن نظام الدرجات ما يزال إجبارياً!!

وقالت إحدى الطالبات متسائلة: وماذا لو أننى لم أرغب فى كتابة أى شيء؟

قلت: أعتقد أنك سترسبين.

قالت: دائمًا ما كنت أعتقد بأنك أفضل من بقية المدرسين لكنكم جميعًا الشيء نفسه.

تناقشت معهم ولكن ليس بالقدر الكافى ثم خضعت لوجهات نظرهم.

ثم إضافت الطالبة نفسها: أنا لا ألومك فأنا معجبة بطريقتك كما أنك رائع لكنك تحاول دائمًا أن تكون مثاليًا وتحاول تعليمنا كيفية أن نكون مثاليين من خلال نظام يرتكز أساسًا على الإكراه والإجبار وذلك أمر مثير للسخرية.

شعرت بألم خفيف قلل من فرحتى فقلت: وماذا يجب أن أفعل عندئذ؟ هل ترغبين فى تغيير طريقتى فى التدريس؟ هل تريدننى أن أعتمد على نظام الدرجات؟

قالت بفزع: لا.

•وإذن فماذا يجب أن أفعل؟

•عليك بتغيير النظام كله.

•كيف أفعل ذلك؟

فكرتْ لحظة قصيرة قبل أن تجيب بأفضل الإجابات الممكنة وقالت: أنت شخص ذكى وتحتاج لتحقيق ذلك بمفردك ولكن يجب أن تعرف بأننى عانيت كثيرًا من المتاعب فى حياتى الخاصة لأننى كنت وحيدة أمام نظام بأكمله.

إننى أحب ذلك العمل.

قاعدة عميقة، أساس راسخ، زخارف كثيفة: من مركز العالم ترتفع شجرة بلا أشواك، واحدة من تلك الأشجار تعرف كيف تقدم نفسها إلى الطيور، حول الشجرة ترقص الأزواج وتتموج على أنغام الموسيقى التى توقظ الأحجار وتشعل النيران فى الثلج، وأثناء الرقص يزينون الشجرة ويخلعون عنها أوراقها بشرائط متموجة من كل لون، إن شجرة الحياة تعرف -مهما حدث- أن الموسيقى الدافئة الحميمية لن تتوقف من حولها أبدًا مهما سقط حولها من الموتى ومهما تدفق الدم، سيرقص الرجال والنساء على أنغام الموسيقى طالما ظلوا أحياء وستحتويهم الأرض ولن تتراجع عن حبهم.

«إيدواردو جلينو»

السير فوق الماء

كان الأسبوع الثالث وحتى الأخير من الفصل الدراسى فى الجامعة حين أحضرت معى فيلمًا تسجيليًا يحكى عن قصص قليل من أولئك الذين ماتوا بمرض الإيدز، عندما أضأت النور فى الحجرة بعد ذلك رأيت أن كثيراً من لاعبى كرة القدم فى الفصل قد قاموا بخفض رءوسهم وعندما رفعوها مرة أخرى كانت أكتافهم مشدودة وعيونهم حمراء.

بدأت الكلام متسائلاً: كيف سيتذكرونكم فى حالة موتكم؟

توقفت عن الكلام لكن أحداً لم يجب أو يقل شيئًا.

بدأت مرة أخرى وقلت: أو بالأحرى فإننى أقصد القول بأنكم حين تموتون فأى شيء سيقوله الناس عنكم؟

كانوا صامتين وفى حالة من الهدوء لكن كثيراً منهم كان يفكر فقلت: أريدكم أن ترسموا خططًا لمناقشة موضوع الإيدز وأنتم لستم مجبرين على الوصول إلى نتائج معينة وإنما عليكم فقط بوضع الموضوع فى الاعتبار.

ظل الفصل صامتًا حتى كسر أحد الشباب الصمت وقال بدون تفكير: أنا لن أقوم بعمل ذلك فأنا لن أموت بمرض الشواذ.

كنت أعرف طوال الربع الأول من العام الدراسى بأنه شاب يعانى من الخوف وأنه يكره النساء فلم أندهش مما قاله وقلت له: إن منْ يمارسون الجنس من الرجال والنساء بشكل طبيعى يموتون أيضًا وقد يموت الناس فى حوادث السيارات أو من تناول

الكحول أو من ممارسة الرجل للجنس مع أربع نساء فى وقت واحد كما يموت الناس فى حوادث كثيرة ومختلفة.

بدا أن كلماتى لم تشكل مشكلة بالنسبة له فأضفت موجهًا حديثى للفصل كله: يمكنكم القيام بهذا التدريب بأنفسكم ولكن من الأفضل أن تجعلوا شخصا ما يكن لكم الحب أن يقوم بعمل ذلك نيابة عنكم، الوالدين أو الأخ أو الأخت أو العشيق أو الصديق.

قال أحدهم متسائلاً: أتعنى أن نثق بشخص ما للقيام بما يجب أن نقوم نحن بعمله؟

أجبت قائلاً: يا لها من صفقة!!

جاءوا فى الأسبوع التالى بوجهات نظر محددة وراحوا يتحدثون عنها وكانت النقطة الأساسية فى ذلك التدريب هى أن ثمة شيء كان مختلفًا عما يبدو فى السطح ولم يكن الهدف يتمثل فى إجبارهم على التفكير فى الموت أو فى دمجهم معًا للإجابة على السؤال القديم نفسه، لقد كنت أسأل كل فصل السؤال نفسه: منْ أنتم؟

لم يكن الأمر كذلك لإضفاء جو من المرح أو لنكون أكثر حميمية من بعضنا البعض على الرغم من أننى كنت أشعر بسعادة بالغة لأى من تلك الأسباب.

إن الهدف الأساسى هو منحهم الفرصة ليعبر لهم الناس الذين يحبونهم عن تلك الأحاسيس والعواطف وتعريفهم بالمميزات التى يحبونها.

كنا على وشك الانتهاء من الفصل الدراسى وكنا فى طريقنا للتصويت، عندما كنت فى الكلية سمعت إشاعات عن أن الذين يدرسون بجدية لا ينامون سوى ساعتين فى الليلة لكننى لم أصدق تلك الأقاويل والحقيقة أننى لم أصدق بما يكفى وعلى مدى سنتين ظللت أسجل وقت ذهابى للنوم وعدد الساعات التى أستغرقها فى النوم -(لم أستطع النوم قبل منتصف الليل لمدة عام كامل وحتى بعد الأول من أغسطس)-

بالإضافة إلى عدد الساعات التى أقضيها فى الدراسة والتحصيل فى كل يوم، كان الأمر مثيراً بالفعل، سمعت أيضاً بعض الأقاويل والإشاعات عن أولئك الذين يتناولون الخمور مرات كثيرة فى الاسبوع مع العلم بأن معظم أصدقائى لا يتعاطون الخمر.

كنا جميعًا -بما فيهم أنا- نتفادى الأسئلة المباشرة عن الجنس لأننا كنا نشعر بأن الأمر قد يضايق البعض ممن بدءوا ممارسة الجنس فى وقت متأخر من أعمارهم أو فى وقت مبكر جداً أو أولئك الذين لم يمارسوا الجنس أبداً، كنا نعرف أيضًا أن الأصدقاء من الأولاد والبنات قد يكذبون فى إجاباتهم عن الأسئلة المتعلقة بالجنس، وعلى أية حال كان من الأفضل ألا نتوجه بالأسئلة فى ذلك الشأن، كما كان لدينا قاعدة واضحة ومحددة لا تسمح بالأحكام المطلقة أو محاولات الإقناع وكان الهدف من كل الأسئلة هو معرفة ما يفكر فيه الطلبة من خلال تشجيعهم على سرد القصص التى توضح ما تنطوى عليه قصصهم.

التقطت قطعة من الورق من كومة من الأوراق الملقاة أمامى.

كم ساعة تنام فى الليل؟

كانت النسبة الغالبة للطلبة هى ست ساعات ونصف ويقل بعضها إلى أربع ساعات ويزيد البعض الآخر إلى إحدى عشرة ساعة.

إذا لم تقلق بشأن الجدول ومواعيد الدراسة فكم عدد الساعات التى ستنام فيها وفى أى وقت؟

عندما انتهيت من طرح ذلك السؤال ارتسمت فوق وجوههم نظرات حالمة وانتابتهم حالة من الانتشاء وراحوا يفكرون قليلاً قبل الإجابة التى تراوحت بين النوم الكثير وعدم ضبط الساعة على وقت محدد للاستيقاظ والنوم فى أى ساعة من الليل أو النهار.

كم عدد الذين لم يتناولوا الخمور أبداً أو قاموا باحتساء كأس أو كأسين من النبيذ مع العائلة طوال العام؟

رفع ربع الفصل تقريبًا أياديه.

كم عدد الذين شربوا حتى الثمالة مرة واحدة فى الشهر؟

كان نصف الفصل تقريبًا.

وكم عدد الذين شربوا حتى الثمالة مرة فى الأسبوع؟

ربع الفصل.

كم عدد الذين يقرءون كتابًا فى الأسبوع غير كتب الدراسة؟

اثنان أو ثلاثة فقط.

وفى الشهر؟

الربع.

وفى أقل من عام؟

اثنان أو ثلاثة.

هل قام أحدكم بالغش والخداع فى المدرسة الثانوية؟

أجاب الجميع بلا ما عدا امرأتين أحدهما أمريكية والأخرى صينية.

هل تم خداعكم فى الكلية؟

بعد ضحكات قليلة توحى بالخوف والقلق أجاب النصف بنعم فطلبت منهم أن يدونوا أسماءهم بوضوح فوق أزرار قميصى.

قالوا: هل تخدعنا؟

قلت: يتوقف الأمر على كيفية رؤيتكم للخداع.

لم يوافقوا.

كنت أنقل الواجب المدرسى من زملائى طوال الوقت وكنت أسمح لهم بالنقل عنى ولم يكن ذلك يشكل خداعًا أبدًا بالنسبة لى، كانت حالة سياسية وحالة من الرفض للمواقف التنافسية التى تشكل ثقافتنا، إنها حالة من التضامن مع زملائى الطلبة ولا تتعدى كونها حركة فى اتجاه النموذج الأكثر تعاونًا فى التعليم.

ظلوا على حالتهم من عدم الموافقة.

كان من الأجدر ألا أخبركم بذلك لكننى قمت بتمرير عدد قليل من أوراق المدرسة الثانوية داخل فصول الكلية وكان ذلك من أجل أغراض تعليمية بحتة، لقد أردت معرفة الفرق فى التقدير بين المدرسة والكلية، تلك الأوراق التى تحصل على (أ) فى المدرسة بينما تحصل الأوراق نفسها على (ب) فى الكلية، أعتقد أن تلك معلومة مهمة وأنا أرحب بالتضحية من أجل كتابة تلك الأوراق وتمريرها عليكم الآن.

لم يوافقوا أيضًا.

لكننى قمت بالغش فى الاختبارات مرتين ولقد صدمت فى البداية وأصابنى الهلع من طبيعة الغش العادى وتعلمت درسًا فى غاية الأهمية وهو أن لا أهمية لحدوث عمل مشين فى البداية لأنك سوف تعتاد عليه وستشم رائحته النتنة فى النهاية وعندئذ لن تشعر بالقلق أبدًا، إن الرائحة النتنة تفوح من أى شيء كالغش أو التقديرات وحتى من الحضارة نفسها.

قال أحد االطلبة: قلت لنا بأنك قمت بعملية الغش مرتين.

قلت: كنت فى اختبار الكيمياء فى العام الأول من الجامعة وفى واحدة من أكبر قاعات المحاضرات وكنت قريبًا من نهاية القاعة وكانت لدى مشكلة مع سؤال بعينه - كانت لدى فى الحقيقة مشكلة مع عديد من الأسئلة- وحين كنت أجيب على السؤال السابع والعشرين نظرت إلى الساعة وكان الشخص الجالس أمامى يرفع ورقته فى الهواء فى محيط رؤيتى فعرفت أنه انتهى من إجابة السؤال السابع والعشرين فلم

أصدق وقمت بتغيير إجابتى على السؤال حسب ما رأيته من ورقته وقد عرفت بعد ظهور النتيجة أن إجابتى الأولى كانت هى الصواب مما جعلنى لا أفعل ذلك فيما بعد.

أخبرتهم برغبتى فى قول شيء آخر عن الغش، شيء ما تمنيت لو أننى عرفته حين كنت فى المدرسة، إن المدرس يستطيع فى الغالب أن يرى كل ما يحدث فى الفصل وبالتالى فإنك على خطأ حين تعتقد بإخفائك ورقة وسط الكتاب أن المدرس لا يعرف وإنما الحقيقة أن ذلك المدرس لا يهتم أو أنه سئم من التوجه إليك لإيقافك.

ذلك يطرح سؤالاً آخر: كم عدد الذين قاموا بالغش فى هذا الفصل؟

أجابت امرأة وهى تهز أطراف جفونها: كيف لنا أن نغش فى ظل نظام علامات الصواب والخطأ؟

أشرت إلى سلة المهملات.

قالت وهى تهز أطراف جفونها بشكل أسرع: أوه، لم أفكر فى ذلك أبداً.

ضحك الجميع وطلبت منهم أن يكتبوا عدداً كبيراً من الأوراق خلال ربع العام من خمس إلى عشر مرات كما يفعل الطلبة فى فصول مبادئ التفكير والكتابة.

التقطت قصاصة أخرى من الورق، إذا شاهدت رجلاً من رجال الشرطة ولم تكن قد ارتكبت شيئًا ضد القانون ولست فى حاجة إلى شرطى فبأى شيء ستشعر فى الحال؟

ماذا لو شاهدت دورية من الخفر؟

كان التصويت خمسة بالسالب وبدأ الناس فى الحديث بأقوال خيالية عما يرغبون فى فعله تجاه أولئك الخفر أو رجال الشرطة.

وكان السؤال التالى: هل كنت ستقوم بحلاقة رجليك وإبطيك إذا كنت امرأة؟ وإذا كانت أى واحدة منكن رجلاً فهل كانت ستواعد رجلاً لا يحلق رجليه وإبطيه؟

ثم سألت قائلاً: هل تؤمن بالله؟

وقبل الإجابة على ذلك السؤال علينا أن نتفق على سلسلة من التعريفات، هل الله يعنى شخص كبير بذقن بيضاء؟ هل الله عملية متعاقبة؟ هل هناك آلهة متعددة؟

انتهينا إلى مقولات متعددة ووافق الكثير على وجود احتمالات كثيرة: المؤمن بإله واحد (فى المسيحية والإسلام واليهودية) والقائل بوحدة الوجود وأن الله والطبيعة شيء واحد وأن الكون المادى والإنسان ليسا سوى مظاهر للذات الإلهية ثم أولئك المؤمنون بتعدد الآلهة وتعدد مبادئها بما فى ذلك احتمال وجود بعض الديانات الهندية من بينها ثم أربعة أو خمسة من الملحدين وثلاثة أو أربعة ممن يتبنون المبدأ القائل بأن وجود الله ومبادئه من الأمور التى يصعب الوصول إليها.

سألونى عما أؤمن أنا به فحكيت لهم القصة التى حدثت لى حين كنت فى الطائرة وأخبرونا بثمة أعطال ميكانيكية فى الطائرة وكان علينا أن ننتقل إلى طائرة أخرى، انتقلنا بالفعل إلى طائرة أخرى وجلست إلى جوار رجل كبير كان مستغرقًا فى قراءة الإنجيل، وعندما كان المسافرون يمرون فى طريقهم بالقرب منه كان يلقى بورقة تحتوى على نصوص من الإنجيل داخل جيوبهم، حاولت الإمساك بالكتاب الذى أقرأه ورفعه فى المنتصف بينى وبينه على أمل أن يكون حاجزًا بينى وبينه لكن محاولتى باءت بالفشل وظل من وقت لآخر يصطدم بى بالمصادفة ثم ما يلبث أن يقدم الاعتذار وكان من الواضح أنه فى انتظار قبول اعتذاره وحين لم يجد قبولاً منى أمسك بركبتى وسألنى: هل تعرف السبب الذى من أجله أصاب الله الطائرة الأخرى بأعطال ميكانيكية؟ وهل تعرف لماذا فعل الله ذلك؟

أجبت قائلاً: نعم، أستطيع أن أخبرك بكل شيء عن وحدة الوجود وعن كيفية أن الله والطبيعة شيء واحد.

مال بعيدًا عنى واتخذ من الإنجيل جدارًا بينى وبينه وكانت الرحلة أقصر مما ينبغى أن تكون عليه.

سؤال آخر: هل توجد كلمات بذيئة لم تقلها؟

قال اثنان فى وقت واحد باستخدام لفظة بذيئة: لا.

أصابتنى الدهشة فغالبية الناس لم يتلفظوا بالكلمات البذيئة لكن معظمهم كان يستخدم أحد تلك الكلمات فى أحاديثه منفرداً كما أصابتنى الدهشة أيضًا أن امرأة متعصبة تجاوبت مع ذلك السؤال رغم عدم تقبلها السؤال المتعلق بالإيمان والله وقد قالت عندما بدأ الرجل الأمريكى الهندى فى شرح تجاربه الروحية: أوه، أنتم الهنود تعتقدون فى الأشباح، أليس كذلك؟

توقف الرجل قليلاً ثم قال: هذا هو رأيك.

لم تستخدم المرأة أيًا من الكلمات البذيئة أو أى لون من ألوان السباب ولم تهتم بالكلمات التى تناولها الآخرون فى الحديث وحتى حين بدأت أطرح السؤال ارتبكت بعض النسوة وشعرن بالخجل وراحت واحدة منهن تصرخ وهى تغطى أذنيها.

قلت لرئيسى بأننى سوف أطرح ذلك السؤال فأخبرنى بالكثير عن علاقتنا ثم تجهم وقال بجدية: كم مرة قلت لك يا "ديريك" ألا تذكر مثل تلك الكلمات البذيئة فى الفصل؟

سألت الفصل: هل أنتم سعداء؟

معظمهم لم يكن كذلك وبعضهم لم يعرف حتى مدى ما يشعرون به.

•هل تعتقدون بأنكم ستنعمون بالسعادة؟

أجاب كثير منهم بالنفى.

•أتعتقدون بأننا نحيا حياة ديمقراطية؟

ضحكوا وقالوا: بالطبع لا.

•هل من الأفضل للحكومة أن تولى اهتماماً بالشركات والنقابات أم بالإنسان؟

ضحكوا مرة ثانية وقالوا: الشركات بالطبع.

* هل تعتقدون أن العالم سيكون أفضل بعد عشرين سنة؟

* لا.

* بعد أربعين سنة؟

* لا.

* مائة سنة؟

* لا.

* وإذن فما رأيكم فى الوقت الذى ستصبحون بعده سعداء؟ وكم من الوقت سيمضى حتى يصبح العالم مكانًا أفضل؟

إنهم لا يعرفون.

قلت فى الفصل الأول من الأسبوع التالى قبل الأخير: سأتقدم إليكم بمهمة أخيرة.

ظلوا صامتين فى حالة من الترقب ثم قلت لهم: أريدكم أن تسيروا فوق الماء.

كانوا ما يزالون فى حال من الترقب ولم يستطيعوا إدراك المعنى الذى أقصده فقلت متسائلاً: هل أنتم مستعدون للمضى قدمًا فى مناقشة اليوم؟

أجاب أحدهم قائلاً: لا.

وقال آخر: ولكن....

قلت: أوه، يوجد شيء آخر بالطبع أريدكم أن تكتبوا عنه فيما بعد وآسف للارتباك الذى أصابكم بسببى.

قال شخص ما: لن أفعل ذلك.

أجبت: سوف تفعل.

قال الشخص نفسه: ولكن ما الهدف من فعل ذلك؟

* سوف تعرف الهدف أيضًا.

حاولت أن أنجح مع الفصل وأصل معهم إلى نتائج محددة غير أنهم لم يسمحوا لى بالوقت الكافى ولم يتجاوبوا معى وظلوا يتساءلون عما أريد لهم أن يفعلوه وظللت بدورى أجيب بالطريقة نفسها وأردد: أريدكم أن تسيروا فوق الماء ثم تكتبون عن تلك التجربة.

فقدت امرأة صوابها ونفذ صبرها أخيراً ثم قالت مخاطبة الفصل: كل شخص هنا يعرف قصة سير المسيح فوق الماء، أليس كذلك؟ عن أى شيء كانت تتحدث القصة؟ إنها قصة شخص ما يقوم بعمل شيء ما يصعب القيام به أو فلنقل بأنه شيء مستحيل.

أجاب أحد الطلبة من ذوى التفكير البسيط والموضوعى: ولكننا لن نستطيع عمل ذلك إذا كان مستحيلاً.

قالت المرأة: ذلك هو الموضوع فهو يريدكم أن تفعلوا المستحيل.

* ولكن....

قالت المرأة لتوضيح خدعة الحوار الجيد: إن كلمة (لكن) هذه هى السبب فى عجزكم وعدم قدرتكم على الفعل.

قال واحد من معتنقى الديانة المسيحية: إن يسوع الرب هو الوحيد القادر على السير فوق الماء.

قالت المرأة: ليس ذلك نظاماً لاهوتيًا جيداً وأقل كثيراً من علم النفس، فالآخرون أيضًا يستطيعون ما داموا لا يشكون فى قدرتهم على الفعل.

قال المسيحى: وطالما أنهم يتطلعون دائمًا للمسيح ويطبقون تعاليمه.

* دعك من المسيح الآن.

* ذلك نوع من أنواع التجديف وعدم احترام المقدسات.

* إننى لست مسيحياً ولذلك فإن كلمة تجديف لن تخيفنى فالمجاز من وراء القصة هو أنك فى الوقت الذى تنظر فيه إلى داخل نفسك وفى اللحظة التى تكتشف فيها ذاتك وعندما تبدأ فى الإيمان بقدراتك فإنك ستجد نفسك قادراً على إنتاج وخلق أعمال مدهشة لم تكن فى السابق تفكر فيها أو حتى تتخيل حدوثها كالسير فوق الماء.

نظرت المرأة نحوى وقالت: هل يمكن ذلك؟

أومأت برأسى وقلت ببطء: أعتقد..

قاطعتنى قائلة: إنه شيء جيد لأنك فى اللحظة التى تصل فيها إلى المكان الذى تستطيع فيه السير فوق الماء سوف تكتشف فجأة أنك فوق أرض صلبة وجامدة كنت تعتقد فى السابق استحالة السير فوقها بالإضافة إلى عدم وجود أى نوع من المساندة والدعم، إن ذلك الدعم لا يأتى منك وإنما من كل ما يحيط بك وما أن تبدأ فى الفعل فإن الكون بأكمله سيتعاون فى مساعدتك ودعمك.

عاودت النظر نحوى ثم توقفت.

قلت مرة ثانية: أعتقد.....

لكنها قاطعتنى مرة أخرى وراحت تضيف بحماس قائلة: وهذا هو حقًا ما نحتاجه، إن النظام بأكمله نظام فاسد وكل شيء فاسد، إنهم يقتلون الكوكب الأرضى ونحن نساهم فى كل تلك الأعمال المؤسفة التى نمقتها والتى تتطلب من كل منا معجزة أو ملايين المعجزات، ذلك هو ما يطلبه "ديريك" ويريدنا أن نفعله، إنه يريدنا أن نخرج مما نحن فيه ونذهب لارتكاب المعجزات ثم يريدنا أن نكتب عن تلك المعجزات وأعتقد أن ذلك ليس كثيراً، أليس كذلك؟

قلت مخاطباً إياها: أستطيع القول بأنك فكرت فى الموضوع قليلاً.

قالت: قليلاً فقط؟!

كانت مقالاتهم وأبحاثهم جيدة، كان بعضهم من أعضاء نادى القلم فكتب قليل منهم عن ملء البانيو بالماء بما يعادل ارتفاع بوصة واحدة ثم السير فيه بينما كتب البعض عن السير عبر بركة متجمدة.

لكن كثيراً من الطلبة كتبوا عن المعجزات والطلبة فى فصلى بما فيهم أنا، لا نحتاج للتعلم ولكننا ببساطة نحتاج للتشجيع وللنمو من خلال قلوبنا، نحن لسنا فى حاجة لأن تحكمنا أجندات خارجية ولا لأن يخبرنا أحد بموعد احتياجنا للتعلم ولا حاجتنا للتعبير لكننا فى حاجة لأن يوفروا لنا الوقت وليس بالإجبار أو الإكراه وإنما كعامل مساعد حيث نستطيع اكتشاف ما نريد ومعرفة منْ نكون بمساعدة الآخرين ممن يهتمون لأمرنا، ذلك أمر مهم وضرورى ليس بالنسبة لى ولطلبتى وإنما لنا جميعًا وحتى جيراننا من غير البشر، نحن نريد أن نحب ونجد من يحبنا، يجب أن نقبل الآخرين ونريد أن يقبلنا الآخرون ونتمنى أن يتذكرنا الناس ونحب أن يدللونا وينبغى أن نقبل ما نحن عليه وذلك كله ليس بالأمر العسير، نستطيع ببساطة أن نكون كذلك.

دخلت امرأة لتتحدث عما كتبته وراحت تقرأ لى بصوت عال، كانت رسالة حصيفة موجهة إلى صديقتها العزيزة وكانت الرسالة للوداع فلم أعلق كثيراً لكننى سألتها عندما انتهت من القراءة قائلاً: كيف تشعرين بشأن رحيلها؟

بدأت فى البكاء ثم راحت تتنهد بأنفاس سريعة ولم تستطع الإجابة على سؤالى.

قلت لها بعد أن هدأت قليلاً: اكتبى ما تشعرين به فوق الورق.

قالت: هل تعنى أن نضع عواطفنا ومشاعرنا فى أوراقنا؟

لم أقل شيئًا لكن ابتسامة رقيقة راحت ترتسم فوق وجهى.

عادت فى اليوم التالى برسالة جديدة وحين بدأت فى القراءة كانت تتوقف كثيراً بين جملة وأخرى لأنها بدت متأثرة ومنفعلة بما تقرأ، ناولتنى الرسالة وسارعت بقراءتها فوجدت نفسى أتوقف أيضًا بين حين وآخر وعندما استطعت الكلام قلت: رسالة جيدة، إنها حقًا كلمات جيدة ومعبرة.

قالت: لقد فهمت.

كان اليوم الأخير حين فكرت لمدة طويلة فيما يجب أن ننتهى إليه ويكون كافيًا لمنحنا شرف المشاركة، كنت موجوداً داخل الفصل حين دخل الطلبة وظللنا نتحاور ونتبادل الأفكار حتى جاء وقت البداية فوقفت ومضيت نحو السبورة ثم أمسكت ببعض الطباشير وحركت يدى وكأننى سألقى بالطباشير فى اتجاه الحائط الخلفى ثم توقفت فضحكوا، بدأت أكتب كلمات وتعبيرات موجزة من وحى أشياء قمنا بها معًا، كتبت عن حفلة شواء الهامبورجر والسجق وعن طعام النباتيين ثم كتبت عن تلك الليلة التى قمت فيها بعرض أحد الأفلام والليلة الأخرى التى شاهدنا فيها فيلم (طار فوق عش المجانين) بطولة "جاك نيكلسون".

قال أحدهم متسائلاً: أتلك أمثلة من السير فوق الماء؟

أجبت: ها قد أخرجت شخصا ما من ذلك النمط المنظم من الحياة الاجتماعية ومن الأعراف والتقاليد المعروفة الساكنة.

قال آخر: القاعدة الأولى فى الكتابة.

كتبت ما قاله فوق السبورة.

قالت واحدة من الفصل بصوت عال: دع الأطفال يخرجون من دورة المياه.

ظللت أدور حول نفسى وألقيت بالطباشير ثم التقطت واحدة وكتبت ما قالته فوق السبورة.

* إنه الوقت الذى أجبرتنا فيه على كتابة الأشياء التى نفتخر بأننا قمنا بإنجازها فى حياتنا.

* هى تلك الليلة التى حاول فيها الطلبة الآسيويون أن يعلمونا استخدام العصا فى تناول الطعام.

قال واحد من الرجال: هل كانوا يعلموننا فعلاً أم أنهم كانوا يسخرون من عجزنا.

* والوقت الذى حاولنا فيه أن نجعل "ديريك" يمشى كما القمر.

* حاولنا. تلك هى كلمة السر.

* لعب الكرة بعينين معصوبتين.

* الطفل المشاغب.

* مرق الماشية.

* الرصاصة.

* تلك الليلة التى كتبنا فيها قصص الأشباح.

* العرف والتقاليد.

* أوه، يا إلهى، هل تتذكر الكعكة المحلاة برقائق الشيكولاتة؟

كنت أكتب بأسرع مما أستطيع وأتحرك من أول الحجرة إلى آخرها وكانوا ما يزالون يتحدثون بصوت عال وكان الوقت يمضى.

كرر الرجل السؤال نفسه الذى اعتاد أن يسأله: وما الهدف؟

قمت بتسجيل السؤال فقال: لا، ما الهدف مما تفعله الآن؟

استدرت ناحيته ولم أعرف ما يمكننى قوله.

راحت المرأة التى كتبت رسالة الوداع إلى صديقتها فجأة تضرب بيدها فوق المقعد ثم صرخت قائلة: لقد عرفت الهدف، الهدف هو أنه لا يستطيع إخبارنا بالهدف وإنما علينا أن نكتشفه بأنفسنا.

مضيت نحو مقعد شاغر بجوارها وجلست ثم وضعت قطعة الطباشير فوق مقعدها وقلت بهدوء ولكن بصوت عال كى يسمع الجميع: لا يوجد شيء آخر يمكننى تعليمه لكم، حظ سعيد لكم واستمتعوا بوقتكم.

إن مأساة التعليم الصناعى تكمن فى صنع كل ما هو سيئ كما القابلات اللاتى يشرفن على مولد طلبتهم ومدرسيهم واللاتى يتحملن مسئولية كبيرة ومرعبة، كثير جداً من المدرسين مثل كثير من الطلبة وكثير من العمال فى كثير من الحقول الصناعية وكثير من الكتاب أيضًا وعدد لا بأس به من الساسة وكذلك العديد من الناس الذين استطاعوا الحفاظ على إنسانيتهم رغم نشأتهم فى ظل نظام تعليمى بائس وفى ظل القيام بأعمال لا يرغبون فيها ومع وجود إغراء المال.

إذا كان الوصول بالناس إلى أن يكونوا أشخاصًا آخرين غير أنفسهم هو واحد من أكثر الخطايا فلا يجب أبداً أن نغفر لنظام التعليم الصناعى.

يوجد البديل على أية حال أو بالأحرى هناك كثير من البدائل طالما يوجد كثير من الناس وخاصة مع وجود الناس الذين يتحلون بالنشاط والحيوية وعلى علاقة فكرية بمجتمعاتهم التى تشمل أساس حياتهم والأرض التى يعيشون عليها وينشأون بها والتى تعمل على دعمهم ومساعدتهم.

سمعتُ أنه من خلال ثقافتنا المميتة تكون غالبية الأفعال الثورية التى يقوم بها أى

شخص تكون نابعة من القلب والعاطفة، يجب إذن أن تتبعوا قلوبكم، إن أكثر الأعمال الثورية والأخلاقية التى تستطيع القيام بها لمساعدة الآخرين هى أن تساعدهم على اكتشاف قلوبهم الحقيقية أى اكتشاف شخصياتهم والعمل على تعريفهم بآرائهم ومواقفهم ومساعدتهم على اكتشاف أنفسهم، ذلك أمر أسهل كثيراً مما يبدو.

الوقت قصير، إنه قصير بالنسبة لكوكبنا الأرضى الذى هو بيتنا وملاذنا والذى يتم قتله بينما نحن لا نفعل شيئًا، وبالنسبة لكل أولئك الطلبة فإن الوقت أقصر مع حياتهم التى تنزلق منهم مع كل تكة من تكات الساعة الملتصقة فوق حائط الفصل.

كثير من العمل يجب القيام به فماذا تنتظرون؟ لقد حان وقت البداية.

المراجع

Abbey Edward- إدوارد آبي) :Desert Solitaire ناسك الصحراء) نيويورك 1968: لا شك في أنه كتاب مذهل وهو أفضل كتب آبي.

Abbot Edwin – إيدوين آبوت: A Romance of Many Dimensions (رومانسية الأبعاد) 1984 – أعيد طباعته بمنشورات دوفر Dover Publication، نيويورك ١٩٩٢: إنه كتاب صغير مثير ومحرك للعقل ويؤكد على إعمال العقل كما أن ثمنه دولار ونصف فقط فلا يوجد عذر إذن في عدم اقتنائه وقراءته.

Booth Wayne – واين بوث: Is There Any Knowledge That A Man Must Have (هل ثمة معرفة ينبغي علي الإنسان اكتسابها) An Anthology Of Expository Prose, (مقتطفات من النثر التوضيحي) – الطبعة السابعة – نيويورك ١٩٨٨ -Nor ton & Co.

Evans Arthur -أرثر إيفانز: Witchcraft and the Gay Counterculture (الفتنة والثقافة المضادة)، بوستون، ١٩٧٨: اكتشفت هذا الكتاب من خلال مجلة Green Anarchy وأنا سعيد جداً بهذا الاكتشاف، إنه بمثابة هدية ذات قيمة عالية وبخاصة الفصل الذى يحمل عنوان (Sex Among The Zombies الجنس خلال القوى فوق الطبيعية)، إنه رابط مدهش عن الكبت الجنسى والعنف الناتج عن الحضارة.

عنوان دار النشر: Fag Rag Books , Box 331 , Kenmore Station , Boston , MA 02215 .

Farber Jerry جيرى فاربر: مقالة رائعة وجيدة وذات تأثير كبير ويمكن مطالعتها علي الإنترنت من خلال

http://www.soilandhealth.org/03sov/0303critic/030301studentasnigger.html

ورغم كتابتها في العام ١٩٦٩ فإنها لا تزال وثيقة الصلة بالموضوع.

Madox Ford فورد مادوكس: اقتبست من كتاب "بول أونيل" و"جين فاولر" الجميل (مذكرات كاتب) فيلادلفيا، ١٩٨٤

- Fralin Francis فرانسيس فرالين: The Indelible Image الصورة التي يتعذر محوها أو إزالتها) - صور فوتوغرافية منذ حرب ١٨٤٦ وحتي الوقت الحاضر - نيويورك: Harry N . Abrams هاري ابرامز ١٩٨٥: أحد أفضل الصور الفوتوغرافية التي تصور الحرب والتى تحولت إلى رسالة قوية لإدانة الحرب ولم يسبق أن شاهدت مثلها من قبل.

- Foucault Michel ميشيل فوكولت: The Birth Of The Prison Discipline & Punish أصل السجن ترجمة Alan Sheridan آلان شيريدان - نيويورك Vin-tage Books 1979- كتاب رائع يعبر عن كيفية العيش في مجتمع نراقب فيه أنفسنا بشكل دائم، إنه كتاب يجب أن يحتل أولوية القراءة لدى أى شخص مجبر علD الذهاب إلى المدرسة لأنه بمجرد فتح الكتاب سيكتشف مدى قوته وأهميته.

- Fowler Gene جين فاولر . Running Press Book Publishers 1984

- Galeano Eduardo إيدواردو جاليانو: Memory Of Fire ذاكرة الغضب ترجمة Cedric Belfrage سيدريك بيلفراج - نيويورك - Pantheon 1988 إن مجرد الكلمات لا تفى هذا الكتاب حقه فالمؤلف جاليانو كاتب رائع وربما يكون هو الكاتب المفضل عندي.

- Gatto John Taylor جون تايلور جاتو: The Underground History of

Intimate Investi) ،(التـاريخ السـري للتـعليم الأمـريكي American Education
تحـقـيق تفـصـيلي gation Into The Problem Of Modern Schooling An
لمشاكل التعليم الحديث) - نيويورك -Oxford Village Press 2001 يمكن قراءة هذا
الكتاب علي الرابط التالي: http://www.johntaylorgatto.com

The) ،(خيانة الذات) The Betrayal Of The Self :أرنو جروين- Gruen Arno
خـوف الاسـتـقـلال عند الرجـال Fear of Autonomy In Men And Women
والنسـاء - ترجمـة Hildergaarde and Hunter Hannum نـيويورك Grove Press
1988.

The Insanity of Normality جنون السـواء)، واقـعـيـة المرض - نحـو فـهـم الدمـار
الإنسـاني - ترجـمـة - Hildergaarde and Hunter Hannum نـيـويورك - Grove
Weidenfeld 1992.

جروين أرنو على ما أعتقد هو الكاتب الأكثر استخفافاً في كتاباته عن تدمير الثقافة المسيطرة.

- Henry Jules (جولز هنري:)Culture against Man ثقافة ضد الانسان) -
نيويورك - Random House 1963 يعد هذا الكتاب اكتشافاً مهما للثقافة الأمريكية.

- Hesse Hermann هيرمان هيس: Demian ترجمة/ "مايكل رولوف" و"مايكل
ليبيك" - نيويورك - .Bantam Books 1975

إنه الكتـاب الأول الذي أقـرأه للمـؤلف "هـيس هيـرمـان" وقـد أصـبح من الكتب المفضلة بالنسبة لي.

- Johnson Charles تشـارلزجونسـون Interview in At the field`s End (حديث
مع عـشـرين من كـتـاب الشـمـال الغـربي) وقـام بالتـحـرير Nicholas O`Connell
نيكولاس أوكونيل - سياتل Madrona Publishers 1987.

أهدتني أمي هذا الكتاب في عيد ميلادي حين كنت ما أزال أتحسس كلماتي وعندما كبرت أصبح الكاتب حلماً بالنسبة لي.

- Kazantzakis Nikos نيقوس كازانتزاكي: Zorba the Greek (زوربا اليوناني) – ترجمة / كارل ويلدمان – نيويورك Simon and Schuster 1952.

-Keller Helen هيلين كيلر:

King Stephen ستيفن كينج: Salem`s Lot نصيب سالم – نيويورك Signet 1975.

لا أعتقد أنني الوحيد الذي يرى أن هذه الرواية هي أفضل أعمال "كينج" وإذا كنت أحد القلائل الذين لم يقرأوا هذه الرواية فلا بد أن تبدأ من الآن بقراءتها إلا إذا كنت تخشي مصاصي الدماء وفي أي الحالات يجب أن تحاول قراءة) The Dead Zone منطقة الموتى) التي أعتقد بأنها قصة حب أكثر منها قصة رعب.

The Memory Hole (مأزق الذاكرة): إنه واحد من آلاف المواقع التي تزودنا بنوع من التحليل غير متوفر أبداً في الاعلام السائد أو فى المدارس السائدة وهو:.http://www.thememoryhole.org/ Murray W. H - موراي: The Scottish Himalayan Expedition لندن 1951

لقد استعنت بهذا الكتاب في المراجع لكي أقتبس منه افتتاحية الفصل المعنون Falling In Love) الوقوع في الحب) والنص المقتبس المنسوب إلي "جوهان فولفجانج فون جوته" هو نص آخر غير الموجود علي الإنترنت ولا يتعدي كونه أحد الملصقات الاعلانية ولم يقم "جوهان" بقوله أبداً.

O`neil Paul- بول أونيل: كما حدث مع النصوص التي اقتبستها من "مادوكس فورد" و"فاولر جين" حصلت علي هذا النص من كتاب صغير وبارع بعنوان Insights from Writers With Space For Personal Notes فيلاديلفيا 1984.

Pink Floyed فلويد بنك: The Lyrics to Timeتأليف Roger waters، 1973

Rogers Carl كارل روجرز: On Becoming a Person بوسطون 1961 – حصلت والدتي علي هذا الكتاب حين كانت تدرس في فصل علم النفس عام 1970 ولست أدري كيف وجدته بين أرفف مكتبتي وظل في مكانه لعدة سنوات دون قراءة ثم لسبب غير معروف قمت بالتقاطه من بين الأرفف ذات مساء متأخر قبل دخولي قاعة المحاضرات في الصباح التالي في جامعة واشنطن الشرقية وكنت قد قرأت أكثر من نصفه في تلك الليلة، وبالرغم من أنه كتاب طويل وكان التعب قد أصابني عندما وصلت إلي الفصل القصير عن التعليم إلا أن كلماته قد أيقظتني وعرفت بأنني لم أقرأ في حياتي أفضل من وصفه عن معني أن تكون مدرساً.

Trumbo Dalton دالتون ترومبو: Johnny Got His Gun نيويورك – بانتام ١٩٧٠ – إنها أفضل رواية قرأتها عن مناهضة الحرب وأعتقد أنها واحدة من أفضل الروايات وقد ترك أسلوب "ترومبو" أثراً بالغاً في نفسي.

William Terry تيري وليام: Desert Quartet (رباعية الصحراء) – نيويورك pantheon Books 1995 - إن "تيري وليام" كاتب مذهل كما أنه متحدث فاتن وساحر وإذا سنحت لأحدكم فرصة الاستماع إليه فلا ينبغي أن يتردد أبداً.

المؤلف فى سطور:

ديريك جنسن

ولد "ديريك جنسن" فى ١٩ ديسمبر ١٩٦٠ وهو كاتب أمريكى وناشط فى مجال البيئة ويعيش الآن بمدينة جريسنت بولاية كاليفورنيا.

صدرت له العديد من الكتب فى نقد المجتمع المعاصر والقيم التى يتمتع بها مثل:

–The Language Older Than Words.

- The Culture Of Make Believe.

- Endgame.

حاصل على بكالوريوس فى علوم هندسة التعدين من مدرسة كلورادو للتعدين كما حصل على شهادة الكتابة الإبداعية من جامعة واشنطن الشرقية.

يعمل الآن بتدريس الكتابة الإبداعية فى سجن ولاية خليج (بيليكان) وفى جامعة واشنطن الشرقية.

المترجم في سطور:

سمير عبد ربه

متفرغ تماماً للكتابة والترجمة.

اهتماما خاص بالأدب الإفريقى .

عضو اتحاد الكتاب المصرى وعضو نادى القلم .

أهم الأعمال المترجمة المنشورة:

١- رواية (سنوات الطفولة) للكاتب النيجيرى "وول سونيكا" الحاصل على جائزة نوبل - مكتبة مدبولى - القاهرة - ١٩٩١.

٢- رواية (سهم الله) للكاتب النيجيرى "تشينوا أتشيبى" - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٢.

٣- مجموعة قصصية بعنوان (الياقوتة) لكاتبة جنوب إفريقيا "نادين جورديمر" الحاصلة على جائزة نوبل - دار الهلال - القاهرة - ١٩٩٢.

٤- مسرحية (الحب والأسى) للكاتبة الصينية "باى فنجكسى" - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ٢٠٠٢- العدد رقم ١١.

٥- رواية (العالم البرجوازى الزائل) للكاتبة "نادين جورديمر" من جنوب إفريقيا والحاصلة على جائزة نوبل - المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة - القاهرة ٢٠٠٢ - العدد رقم ٣٤٣.

٦- رواية (الموت فى الشمس) للكاتب التنزانى "بيتر بالانجيو" - المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة - القاهرة ٢٠٠٢ - العدد رقم ٣٤٤.

٧- مجموعة قصص أفريقية بعنوان (من روائع الأدب الإفريقى) لمجموعة من المبدعين الأفارقة - المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة - القاهرة ٢٠٠٢ - العدد رقم ٤٩١ - أعيد طبعها بمكتبة الأسرة ٢٠٠٥.

٨- رواية (طريق الجوع) للكاتب النيجيرى "بن أوكرى" الحاصل على جائزة بوكر - المركز القومة للترجمة - القاهرة ٢٠٠٨.

٩- تحت الطبع: (رواية "جاجوا نانا" للكاتب النيجيرى "سيبريان إيكوينسى" - المشروع القومى للترجمة.

- هذا بالإضافة إلى مجموعة قصصية واحدة مؤلفة بعنوان (سماء لا تشرب الشاى) - دار البيادر - القاهرة - ١٩٩١ إلى جانب العديد من الأعمال المترجمة والقصص القصيرة والمقالات فى مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية.

Masry1950@hotmail.com

التصحيح اللغوى: نعيمة عاشور

الإشراف الفنى: حسن كامل

يقدم هذا الكتاب "السير فوق الماء" نظرة استثنائية ومذهلة للتعليم والكتابة والإبداع والحياة، نظرة يقدمها كاتب طالما عُرِف بنقده المحموم لمظاهر الحضارة الغربية. يأخذنا ديريك جنسن في هذا الكتاب إلى فصله الدراسي الخاص، ويعلمنا كيف أن المدارس تحاول أن توهمنا بأن السعادة تكمن خارج ذواتنا، وأن هذه المدارس تعمل على إبقائنا خاضعين لمن هم في السلطة.

تصميم الغلاف : عبد الله البسيوني